

زکی مبارک



الاخلاق عندها العزة

” وكلما عظم المطلوب وشرف ، صعب
مسلكه ، وطال طريقه ، وكثرت عقباته ”
النزلا

قدم هذا الكتاب الى الجامعة المصرية ونوقش فى ١٥ مايو سنة
١٩٢٤ ، ونال به المؤلف شهادة العالمية بدرجة « جيد جدا »
ولقب « دكتور في الآداب » .

مقدمة

بقلم : د . منصور فهمي

لهم يكـد مؤلف هذا الكتاب يجتاز امتحان الدكتوراه مصحوبا بال توفيق ، حتى قام نفر من أصحاب الأغراض : يذيعون عنـه المفـرـيات ، ويـقـولـونـ عـلـيـةـ الأـقاـوـيلـ . وقد بدا للمـؤـلـفـ أنـ يـدـفعـ الشـرـ بالـشـرـ ، ولكنـ أـسـتـاذـهـ الـفـيـلـاسـوـفـ الدـكـتـورـ منـصـورـ فـهـمـيـ كـتـبـ إـلـيـهـ خـطـابـاـ يـوـصـيـهـ فـيـهـ بـالـرـفـقـ ، وـيـنـصـحـ لـهـ بـالـتـبـثـ ، وـيـدـعـوـهـ إـلـىـ مـقـابـلـةـ الشـرـ بـالـصـفـحـ الجـمـيلـ .
وـالـمـؤـلـفـ يـبـثـ هـنـاـ هـذـاـ الـأـئـمـةـ الـخـالـدـ ، وـيـشـكـرـ أـسـتـاذـهـ عـلـىـ نـصـيـحـتـهـ الـقـيـمـةـ ، وـيـعـاهـدـ رـبـهـ وـقـومـهـ عـلـىـ أـلـاـ يـعـمـلـ غـيـرـ مـاـ يـعـتـقـدـ أـنـهـ حـقـ وـصـوـابـ .
أـخـىـ العـزـيزـ :

طـالـماـ وـجـدـنـاـ فـيـ تـارـيـخـ الـأـفـكـارـ عـامـةـ حـمـلـاتـ لـلنـقـدـ شـدـيـدةـ . وـطـالـاـ رـأـيـناـ عـلـمـاءـ الـسـلـمـيـنـ وـفـلـاسـفـهـمـ يـنـالـ بـعـضـهـمـ بـعـضـاـ بـالـنـقـدـ وـالتـجـرـيـعـ .
وـطـالـماـ غـلـوـاـ فـيـ النـقـدـ حـتـىـ اـنـتـلـبـ اـيـذـاءـ وـايـلـاماـ .
وـلـكـنـ هـلـ أـخـفـتـ شـدـةـ النـقـدـ يـوـمـاـ فـضـلـ المـتـقـدـ عـلـيـهـ ؟ وـهـلـ ضـنـ
الـزـمـانـ عـلـىـ المـتـقـدـيـنـ بـمـاـ هـمـ أـهـلـ لـهـ مـنـ الـحـرـمـةـ وـالـمـكـانـةـ ؟ وـكـيـفـ ذـلـكـ ،
وـالـنـقـدـ لـيـسـ أـلـاـ أـدـاءـ لـاـظـهـارـ الـحـقـائـقـ وـاـضـحـةـ جـلـيـةـ ؟
وـلـئـنـ كـانـ لـلـنـاقـدـ فـضـلـ فـيـ اـظـهـارـ خـطاـءـ المـتـقـدـ عـلـيـهـ ، فـلـقـدـ كـانـ لـهـذاـ
أـعـظـمـ الـفـضـلـ بـسـبـقـهـ إـلـىـ مـوـارـدـ الـعـلـمـ ، وـخـوـضـهـ فـيـ مـسـائـلـ كـانـ سـيـاـ فيـ
يـقـظـةـ هـذـاـ الـبـاحـثـ الـأـخـيـرـ .

★ ★ *

أـلـاـ أـنـهـ يـجـعـلـ بـنـاـ حـيـنـ تـنـظـرـ فـيـ كـتـبـ المـقـدـمـيـنـ ، الـذـيـنـ يـخـالـفـونـنـاـ فـيـ
أـسـالـيـبـ الـبـحـثـ ، وـمـنـاهـجـ التـفـكـيرـ ، أـنـ تـمـثـلـ أـنـفـسـنـاـ فـيـ أـرـمـتـهـمـ ، وـأـمـكـنـتـهـمـ ،

وأن تمثل ما استخدموه للحصول على الحقائق من مختلف الأدوات ،
لكى نلتمس لهم العذر ، اذ رأيناهم لم يصلوا الى الاغوار البعيدة التي ينبع
منها الماء صافيا نقيا .

وما أبعد الفرق بين من يدخل الهيجاء بما سلحته به العصور الخوالى
من سهام ونبال ، وبين من يدخلها مدرعا بما ابتدعه العصور الحديثة من
معدات النزال ! وما أكبر الفرق بين الضوء ينبع من زيت المصباح ، وبين
النور يتفجر من ثريات الكهرباء ! ولكننا مع ذلك ايها الاخ العزيز نعجب
بأصحاب القسى والنبال ، اذ لم تقصهم الشجاعة ، ولم يفthem الثبات ،
ونحمد الأضواء الضئيلة التي تتبعث من زيوت المصابيح ، لأنها على ضالتها
تصدح جوانب الظلام .

فإذا رأينا الغزالي غفل عن حقيقة تنبئنا نحن اليها ، أو أغلق عليه
موضوع فتحت لنا أبوابه ، أو أدركه وهن في الرأى ، أو تناقض في
فهم فكرة ، فجدير بنا أن نقدر ظروف زمانه ومكانه ، وأن نذكر كيف
كانت وسائله إلى الفهم والادراك ، قبل أن نصب عليه جام اللوم والشريب .

ان أهل تلك الأعصر الخالية ، كانوا يعتمدون كثيرا على ذاكرتهم ،
وكانوا في الوقت نفسه يتذمرون كثيرا من الموضوعات ، لأن فكرة الاحصاء
وتوزيع الأعمال ، لم تكن مألوفة لديهم على نحو ما هي اليوم ، وكانوا
يرون الجد في طلب العلم طاعة لله . فمن ثم حفظوا كثيرا ، وكتبوا
كثيرا ، ولكن شاق وقفهم ، ووهنت قوتهم ، فلم يستطعوا ترتيب ما كنزوا
من العلوم الكثيرة ، فخلطوا الفت بالسمين ، وعرض لهم الضعف ،
والتناقض ، والاضطراب .

وكذلك كان من أكبر الخدمات أن يتراول الشباب المثقف كتب
المقدمين ، فيدرسها ، ويفهمها ، ويحللها ، ثم بين ما فيها من الخطأ
والصواب .

ومن أولى بذلك من طلبة الجامعة المصرية ، التي أنشئت لوصول

القديم بالجديد ، وحثَّ الخلف ، على الاتفاف بميراث السلف ، وانقاد الجيل الحاضر ، من غلطات الجيل الغابر ؟

لا يخطئ من يتساول كتب المقدمين بالدرس ، والتمحیص ، والتهذیب ، بل ذلك حق وواجب ، لأن فيه حياة لما يجب أن يحيى من الأفکار ، وموتًا لما يجب أن يموت من الأوهام ، ولأن في النقد الصحيح تهذیباً للمشاعر ، وتنویراً للعقول .

وانما يخطئ من يبالغ في حب المقدمين ، فينسى سیئاتهم ، مع أن لهم سیئات ؟ أو يبالغ في بغضهم ، فينسى حسناتهم ، مع أن لهم كثيراً من الحسنات . والنقد الحق يرتكز على سرد المحاسن والعيوب ، بلا جور ولا محاباة ، وقد يذهب بصاحبها إلى التوفيق بين الآراء المختلفة ، فيجعل من الزوايا المتعددة التي تنظر منها إلى الحقائق شكلًا واحدًا منسجم الترتيب تنظر من نواحيه إلى تلك الحقائق . فأعداء النقد ليسوا فقط أعداء لحرية الآراء ، ولكنهم أعداء لمنازع التوفيق .

★ ★ *

وأنت يا أخي درست مؤلفات الغزالى ، وفهمتها ، وحللتها ، وبينت ما فيها من الخطأ والصواب ، فماذا يقم الناس منك ، وقد ذكرته بالخير ، حين رأيت أن يذكر بالخير ، وذكرته بالللام ، حين رأيت أن يذكر بالللام ، وما كان الغزالى بأكبر من أن يخطيء ، ولا كنت أنت بأصغر من أن تصيب .

لقد راعهم أن يقسوا قلمك على مؤلف له عندهم حرمة وقداسة ، وكان عليهم أن يذكروا أنك شاب ، وأن قلم الشباب قاس شديد ، بل ليتهم عملوا بما طالبوا به من الرفق والهدوء ، فلم يوجهوا إليك قارص اللوم ، ومر التأنيب .

كانت رسالتك مثاراً للجدل والمناقشة ، ويعلم الله أنها لن تغصب

لذلك ، لأنّا نريد أن تخدم الحقيقة ، والحقيقة بنت البحث . وهل علمناك الا أن تكون خادماً للحقيقة ولو شق إليها الطريق ؟ فما دمت ترى أنك على حق ، وما دمت تعتقد أنك سائر على الصراط السوى ، فلك أن تمسك برأيك ، وتدافع عن حقك ، ولكن في رفق وزنهاه ، فإن الحق لا يخدم بمثل الرفق والزناهه . وكما يجب عليك أن تدافع عما تعتقد أنه حق ، فإن عليك أن تنفض يدك بسرعة البرق مما تعتقد أنه باطل ، فإن الرجوع إلى الحق فضيلة ، والتمادي على الباطل نفيصة ، وليس بعد الحق إلا الصلاه .

* * *

لقد علمتنا رسالتك ، بجانب ما تناولته من الأبحاث العديدة ، أنتا قطعنا شوطاً بعيداً في سيل الآراء الحرة ، المدعمة بالقوة والنهوض . وإن كنا نأسف على أنه لا تزال هناك صدور ضئيلة ، يؤذيها الهواء الطلق ، وكان الخير في أن تستروح به ، وتسكن إليه . ونأسف كذلك على أن عدد هؤلاء كثير ، وعدد المفكرين قليل .

لقد زاد اغتيابي برسالتك أنها أول رسالة قيمة تناولت تاريخ الأفكار الإسلامية بالتقدير والتحليل ، وأرجو أن تكون خطوة تتبعها في هذا المدى خطوات . وإن كان يحزنني أن يتائب عليك رجال المعهد الذي أعدك لدخول الجامعة المصرية . ولكن الانصاف يقضى علينا بأن نعرف بأن هذه سيئة لم ينفرد بها الأزهريون . فانا نرى بكل أسف أن الأزهريين يرمون أصحاب الأفكار الحرة بالكفر والمرopic ، وأنصار الآراء الجديدة يرمون الأزهريين بالجهل والجمود . وهم جميعاً من المسرفين .

وإذا كان لي أن أصلحك - ومن الواجب أن أصلحك - فاني أدعوك إلى حرب هذه الصالحة . وحذار أن تقاطع أحداً من أساتذتك وزملائك في الأزهر الشريف ، فأنكم جميعاً طلاب علم ، وأنصار حق ، والتوفيق بينكم ليس بالأمر المحال .

لقد فات كثيرا من عشاق الجديد أن يضموا اليهم أنصار القديم
بالرفق والمجاملة وأنت بحمد الله رب الأزهر والمعاهد الدينية ، فماذا
يضرك لو وصلت أستاذتك وزملاءك ، وجادلتهم بالتي هي أحسن ،
لتسيروا أصفياء في التوفيق بين القديم والجديد .

اتنى أخى عليك كثيراً أبها الأخ ، فقد رأيت كيف قامت القيامة
حين اطلع الجمهور على جانب واحد من رسالتك ، فماذا عسى أن يصنع
هذا الجمهور حين يطلع على ما فيها من شتى الجوانب ، ومختلف الأرجاء ؟
ولكن اياك أن تجزع ، وقد بدأت حياتك العلمية ، بصدمة من تلك
الخدمات الاجتماعية ، فذلك دليل على أنك خادم من خدام الاصلاح ،
وهو خير لقب تلقى به الله .
ولك خالص الدعوات ، والمعطف ، والسلام .

منصور فهمي

تعقيب للمؤلف

أكرر الشكر لسيدي الأستاذ الدكتور منصور ، وأؤكد له أن بيني وبين علماء الأزهر الشريف عرا لا تقدر على فصمها الليالي . ولن أنسى ما حسنت أنني مدین على الأقل لحضرات أساتذتى الأمجاد الشيخ الدجوى والشيخ اللبن والشيخ الطواهيرى والشيخ الزنکلوبى والشيخ حسين والى والشيخ سيد المرصفى . فاذا قضت الظروف بان تتقطع بيني وبين الأزهر جميع الصلات - لا قدر الله ولا سمح - فاني لن أنسى ولن ينسى أحد أنني مدین لأساتذتى فى الأزهر ، وأن خروجي عليهم ضرب من العقوق ، ونكران الجميل .

اللهم ان كنت تعلم أنى صادق فيما أقول ، فاجزئنى بخير ما يجزى به المؤمن الصادق ، وإن كنت تعلم أنى أظهر غير ما أضمر ، فاغفر لي وتب على ، فانك وحدك التواب الغفور .

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلوة والسلام على جميع الأنبياء
والمرسلين •

وبعد فهذا هو الكتاب الذي نلت به اجازة الدكتوراه من الجامعة
المصرية ، والذي سلقي العلماء من أجله بأسنة حداد •

هذا هو كتاب (الأخلاق عند الغزالى) أقدمه للجمهور : ليكون
المرجع لمن يريد أن يتبيان مبلغ المغرضين من الصدق ، وحظ المرجفين من
الصواب •

هذا هو الكتاب الذي رميته من أجله بالكفر والزندة ، والذي فجر
لحسادي ينبوعا من اللغو والثرنة لا ينصب ولا يغيب • وما أنا والله
بنادم على رأي رأيته ، أو قول جهرت به ، فلست من يخافون في الحق
لومة لاثم ، أو يقيمون وزنا لكيد الحاسدين ، ولغو اللاغين ، من مرضي
القلوب ، وضعاف العقول ، وصفار النفوس ؟ وإنما يحزنني ما يلاقى
أصدقائي من العنت في دفع ما يفترى الكاذبون ، ويختلق المفسدون •

على أن الغزالى رحمة الله عانى من حاسديه مثل ما عانيت ، ولا ترى
ضعف مالاقيت ، حتى ليجده يطمئن أحد أخوانه بقوله : « رأيتك أيها
الأخ الشفوق موغر الصدر ، مقسم الفكر ، لما قرع سمعك من طعن طائفه
من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة في أسرار معاملات الدين ، وزعمهم أن
فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين ، والمشايخ المتكلمين ، وأن

الدول عن مذهب الأشعرى ولو فى قيد شبر كفر ، ومبaitه ولو فى
شيء نزد ضلال وحسن ، فهوأ أيها الأخ الشفق على نفسك ، لا تضيق
به صدرك وقل من غربك قليلا ، (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا
جميلا)، واستحق من لا يحسد ولا يقذف، واستصغر من بالكفر والضلالة
لا يعرف ، فأى داع أكمل وأعقل من سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ،
وقد قالوا انه مجنون من المجنون ، وأى كلام أجل وأصدق من كلام
رب العالمين ، وقد قالوا انه أساطير الأولين ، واياك أن تستغل بخصامهم ،
وتطمع في افحامهم ، فتضيع في غير مطعم ، وتصوت في غير مسمع ، أما
سمعت ما قيل :

كل العداوة قد تُرجَّى ازالتها الا عداوة من عاداك عن حسد

ولو كان فيه مطعم لأحد من الناس ، لما تلى على أجلهم رتبة آيات
اليأس . أو ما سمعت قوله تعالى : « وان كان كبر عليك أغراضهم فان
استطعت أن تبتقى نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتاتيهم بأية ولو
شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » ^(١) . وقوله تعالى :
« ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلووا فيه يعرجون ، لقالوا انما سكرت
أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » ^(٢) . وقوله تعالى : « ولو نزلنا عليك
كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر
مبين » . وقوله تعالى : « ولو أتنا نزلنا اليهم الملائكة وكلهم الموتى وحشرنا
عليهم كل شيء قبلما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله وسكن أكثرهم
يجهلون » ^(٣) .

وقد صار الغزالى بعد ذلك حجة الاسلام . ونحن لا نريد أن يقتن

(١) كبر : شق . النفق : سرب في الأرض .

(٢) يرجون : يصعدون . سكرت : حبس عن النظر .

(٣) قبلما : عيانا ومقابلة ، وأخطأ النسفي حين ظنها جمع قبيل يعنى كثيل .

الناس بنا كما قتنا به ، فهل نرجو أن نظفر فقط بالسلامة من تقول
المقرين ، وترى المتدين ؟
« على الله توكلنا ۚ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير
الفاتحين » ﴿٢﴾

محمد زكي عبد السلام مبارك

الباب الأول

في العصر الذي عاش فيه الغزالي

تمهيد

أريد أن أذكر شيئاً عن العصر الذي عاش فيه الغزالي؟ وليس ذلك لأن الغزالي صورة لعصره. بل ليعرف القارئ إلى أى حد تأثر الغزالي بعصره وأثر فيه. فمن المجازفة أن ندرس عصراً من العصور، لنعرف من نبغ فيه من الفلاسفة، والكتاب، والشعراء؛ وإنما ندرس شخصية الكاتب، أو الشاعر، أو الفيلسوف. ثم نبحث عن المؤثرات التي كانت تلك الشخصية، فقد تكون هذه المؤثرات قريبة، وقد تكون بعيدة. وفقاً لما أحاط بالشخص من الظروف.

وللوضيح هذا أذكر أن الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين درس العصر الذي عاش فيه أبو العلاء، ليعرف الأصول التي كانت وجهة نظره في الحياة، ثم فعل مثل هذا حين شرع في درس أبي نواس؟ ولكن الدكتور طه لا ينكر أن عصر أبي العلاء أنتج رجالاً يسيرون غير سيرته، ويرون ما لا يره، وأن عصر أبي نواس أخرج رجالاً لا يسيرون العبر، ولا يجizzون المجنون؟ فمن الواجب أن ندرس أولاً ما بين أيدينا من آثار الفلسفه، والكتاب، والشعراء، ثم تبين بعد ذلك ما تألفت منه هذه الآثار فقد تكون نتيجة لطالعات لا صلة بينها وبين العصر الذي ظهرت فيه. كما يمكن أن تكون نتيجة له بالذات.

وala فحدثني كيف يكون الشيخ محمد خطاب السبكي صورة لهذا العصر ، وهو يكوان من تلامذته جمهرة لا يشعر بها الناس ؟ وأمثال الشيخ السبكي عديدون ، ولكن خصصته لكترة مؤلفاته ، وقد يعثر عليه باحث يوما في زوايا التاريخ ، أفتراه يدرس يومئذ هذا العصر ، ليعرف المؤثرات التي كونت عقلية هذا الرجل الذي يدهش حين تحدثه عن أهل هذا الجيل ؟ !

انه لا شك في تأثير البيئة والعصر ؟ ولكن ينبغي أن نعرف أن من الناس من يعيش في قومه وعصره ، بجسمه لا بروحه ، فلا يحسن بما يحسن به معاصره ، وإنما يشعر بما كان يشعر به من سبقوه بأجيال ؟ ففي مصر اليوم ، ناس من القرن الثالث ، وآخرون من القرن السابع ، كما في مصر اليوم من يمكن أن تكون آراؤه وأفكاره صورة صادقة لمكانه وزمانه ، وأحب أن يعييني القاريء من ضرب الأمثال .

من أجل هذا أجمل القول عن العصر الذي عاش فيه الغزالى وأكتفى بوضع صورة قريبة من الواقع للحالة العامة في عصره ، ليتمثل القاريء زمان الغزالى ومكانه وليرى ما تمس الحاجة إليه مما أثر بالفعل في حياته العقلية : فان الفرض من هذا الكتاب انما هو أن ندرس بالتفصيل آراء الغزالى في الأخلاق .

الفصل الأول

الدولة السلجوقية

- ١ -

لا نريد أن نفصل وصول تلك الشيرة التركية إلى الغلبة والاستيلاء على أكثر الأقطار الإسلامية ، فإنه لا حاجة إلى ذلك الآن ، وإنما نذكر فقط صورة مجملة لتلك المملكة الضخمة ، التي تفأ الغزالي ظلها التلليل ٠

ذكر الأستاذ محمد الحضرى (بك) في محاضراته في الجامعة المصرية أن عشيرة السلاجقة انقسمت إلى خمسة بيوت : الأولى سلاجقة العظمى ، وهي التي كانت تملك خراسان ، والری ، والجلال ، والعراق ، والجزيره ، وفارس ، والأهواز ٠ والثانية سلاجقة كرمان ٠ والثالث سلاجقة العراق ٠ والرابع سلاجقة سوريا ٠ والخامس سلاجقة الروم ٠

أما سلاجقة الكبرى فهي الدولة التي أسسها ركن الدين أبو طالب طغول بك وحياتها ٩٣ سنة : من ٤٢٩ هـ - ١٠٣٩ هـ إلى ٥٢٢ هـ - ١١٢٧ م ٠ وقد انقضت دولتهم على أيدي شاهات خوارزم ٠

وأما سلاجقة كرمان فكانوا من عشيرة فاروت بك بن داود بن ميكائيل بن سلبيوق ، وهو أخو ألب ارسلان ، ومدة ملوكهم ١٥٠ سنة من ٤٣٢ هـ - ١٠٤١ م إلى ٥٨٣ هـ - ١١٨٨ م ٠ وقد انقضت دولتهم على أيدي الغز التركمان ٠

وأما سلاجقة العراق وكردستان فقد ابتدأت دولتهم سنة ٥١١ هـ - ١١١٧ م ٠ وانتهت سنة ٥٩٠ هـ - ١١٩٤ م على أيدي شاهات خوارزم بعد أن مكثت ٧٩ سنة ٠

وأما سلاجقة سوريا فكانوا من بيت تشن بن ألب أرسلان بن داود ابن ميكائيل بن سلجوقي و قد ابتدأت دولتهم سنة ٤٨٧ هـ - ١٠٩٢ م و انتهت سنة ٥١١ هـ - ١١١٧ م على أيدي الدولتين : النورية والأرتقية . فكانت حياتها ٢٤ سنة .

وأما سلاجقة الروم : ملوك قونية وأقصرا ، فكانوا من بيت قطامش ابن إسرائيل بن سلجوقي و قد ابتدأت دولتهم سنة ٤٧٠ هـ - ١٠٧٧ م و انتهت سنة ٧٠٠ هـ - ١٣٠٠ م وهي أطول دول السلاجقة حياة ، إذ مكثت ٢٣٠ سنة ، وقد انقضت على أيدي الأتراك العثمانيين والمغول .

والذى كان يرتبط تاريخه من هذه البيوتات بتاريخ الدولة العباسية لدخول بغداد في حوزتهم السلاجقة العظمى و سلاجقة العراق الذين كان لهم السلطان على العباسين من سنة ٤٤٧ إلى سنة ٥٩٠ ، أي ١٤٣ سنة .

واستخلف من آل العباس في عهد الدولة السلجوقية سعة خلفاء ، أولهم القائم بأمر الله الذي انتهى في عهده العصر البوبي ، وآخرهم الناصر لدين الله الذي انتهى في عصره ملك السلاجقة .

- ٢ -

عاصر الغزالى أكثر ملوك الدولة السلجوقية الكبرى ، فقد شهد عهد عضد الدين أبي شجاع ألب أرسلان ، وجلال الدين أبي الفتح ملکشاه ، وناصر الدين محمود ، وركن الدين أبي المظفر بر كياروق ، وركن الدين ملکشاه الثانى ، ومحمد بن ملکشاه .

وقد ولد الغزالى في آخر عهد طغرل بك ، الذي ملك بغداد ، وقرب من الخليفة حتى تزوج الخليفة بنت أخيه . والذى تطلع إلى أن يتزوج من البيت العباسى . وهو أمر لم تجر به العادة . فأرسل سنة ٥٤٣ يخطب بنت الخليفة ، ثم ظفر بزواجه فى حدث طويل .

أما ألب أرسلان فكان واسطة عقد الدولة السلجوقية ، وفي عهده
أسس المدارس النظامية ، صاحبة الفضل على الفزالي ، وسنعود إليها بعد
قليل . وأما محمد بن ملكشاه فهو الذي وضع له الفزالي كتاب التبر
المسبوك في نصيحة الملوك .

هذا ما يهمنا من دولة آل سلجوقي ، وما نريد أن نزيد .

الفصل الثاني

الباطنية

في الوقت الذي كان فيه السلاجقة يسطون سلطانهم على فارس
والعراق والجزيرة إلى آخر ما استولت عليه تلك البيوتات التي أجملنا
حالها في الفصل الماضي ، كان الفاطميون يسيطرون على المغرب ، وعلى
مصر ، ويهمون بيسط سلطانهم على أقطار المشرق ، بعنایة الدعاة .

والذى يعني الآن هو اجمال دعوة الباطنية ، لأن الفزالي شغل بهم ،
وكتب في الرد عليهم ، وإن لم تصلنا كتبه في هذا الباب ، وسترى حين
نتكلم عن خطبه في التأليف كيف اتهم بالليل اليهم ، اذ شرح آراءهم عند
نقدها بطريقة تقربها من متناول العقول .

وأحب أن يعرف القارئ أن أكثر ما يحتل رؤوس المسلمين من
الأفكار والعقائد ، ليس إلا أثرا للدعوات المتعددة التي قام بها العباسيون
في الشرق ، والفاتميون في الغرب ، و (كل حزب بما لديهم فرHon) .

والواقع أن الدعاة كانوا غاية في المكر والدهاء ، فقد عرفوا كيف
يمثلون تلك الرؤوس الجوفاء بالخرافات ، والوسـاوس ، والأضاليل ؟

وهذه القاهرة لا تزال سماء مسكونة بالمعبدات الصغيرة ؟ كسيدنا الحسين ، والسيدة زينب ، والسيدة فاطمة النبوية ، ومن اليهم من الأولياء ، فيما زعم الفاطميون ومن لف لفهم من علماء الاسلام !

ولولا خوف الاطالة لشرحت للقاريء طرائق الباطنية في نشر الدعوة ^{Propagande} فقد كانوا أمهر من الانجليز والفرنسيين ، والامريكان في العصر الحديث ، وكانت جنائيتهم شديدة الخطير في مسخ عقول الامم الاسلامية المسكينة ، التي قيدها الجهل ، ثم رماها بين أيدي طلاب الملك من العباسين والفاتميين . فلم يرحمها أولئك ولا هؤلاء .

كان دعاة الباطنية لمكرهم ينتقلون بالطالب من حال الى حال ، فيفهمونه أولاً أن الآفة التي نزلت بالأمة فشتت شملها ، وفرقت جمعها ، ليس لها من سبب الا ذهاب الناس عن أئمتهم الذين يعرفون بوطن الشريعة ، لأن دين محمد - فيما يزعمون - ليس هو ما تعرفه العامة ، بل هو علم خفي غامض ، ستره الله في حبيبه ، وعظمته عن ابتدال أسراره ، فلا يطيق حمله ، ولا يقوم بأعبائه ، الا ملك مقرب ، أونبي مرسل ، أو عبد مؤمن امتحن قلبه بالقوى ؟ ثم يتغلبون مع الطالب في مجاهل من ظلمات الآراء ، والأهواء ، بعضها خاص بتقديس أئمتهم ، ورفعهم الى الاختصاص بهم أسرار التشريع ، وبعضها خاص بتنظيم الدعوة ونشرها بين الناس .

وأشهر دعاة الباطنية في الشرق هو الحسن بن الصباح . الذي رحل الى مصر ، فلقى فيها الخليفة المستنصر ، وتلقى بها الدعوة الباطنية ، ثم عاد الى مرو لنصرة هذا المذهب بقلمه وسيفه ، فكان أول ما فعله أن استولى على قلعة (الموت) وتحصن بها ، ثم ثبت قدمه في الأقطار الفارسية ، بحيث كان يحسب له ولأتباعه ألف حساب ، وثبتت بينه وبين السلاجقة عدة حروب .

ومن شاء الزيادة على هذا القدر من أمر الباطنية فليرجع إلى كتب التاريخ ، ثم ليرجع إلى تفصيل آرائهم أن شاء في كتاب الملل والتحل للشهرستاني ، فإن في آرائهم غرائب وأعجيب ، وقد ورد ذكرهم في عدة مواطن من كتب الغزالي ، وعلى الأخص كتابه « فيصل التفرقة » ، بين الإسلام والزندة » فليعد إليه من أراد أن يرى منافسته بعض ما يقولون .

الفصل الثالث الحروب الصليبية

- ١ -

قد عرفت أن سلطان السلاجقة امتد على بلاد الروم ، في قونية وأقصاها ، وما إليها من البلاد ، وعرفت كيف كان التنافس بين السلاجوقيين والفااطميين ، فليس من الصعب أن تعرف كيف دعا ملك الروم حملة الصليب من الإفرنج إلى قتال المسلمين ، فقد أمن جانب الفواطم لعداؤتهم للسلاجقة ، وإنها لفرصة سانحة ، لا يصح أن يضيعها طلب الملك ، وعشاق الحياة !

بلغ قيسار الروم إلى البابا رئيس الصرانية ، يستصرخه لصد أعدائه السلاجقة ، فرأها البابا فرصة لبسط نفوذه على ملوك أوروبا وأمرائها ، فدعاهم إلى الدفاع عن الصرانية ، وخروج بيت المقدس من أيدي المسلمين .

وأود أن يعرف القارئ أن الساسة يعتمدون دائماً على استقلال العواطف ، واتخاذ عقول الجماهير ، ومن هنا لم يوجد دعاء الحروب الصليبية بدا من الكذب على الحقيقة والتاريخ ، فزعموا أن المسلمين

يضطهدون نصارى الشرق ، ويسمونهم سوء العذاب ، وقد نجحوا في استئثار أوروبا ، عامتها وخاصتها ، وساقوهم باسم الدين إلى ميدان القتال .

والدين أداة من أدوات الفتح ، والاستيلاء ، في أيدي الشعوب القوية ، وغلّ في أعناق الأمم الضعيفة ، والويل كل الويل للمغلوب ! فقد ملك المسلمون الأرض باسم الدين ، كما ذلوا بعد ذلك باسم الدين ، لأن القوي الرشيد يملك بيته آخرته ودنياه ، أما الضعيف المأفون فلا يزال يرتطم في ضعفه الذي يسميه دينا حتى يتحقق به الهلاك !

وكذلك زحف شياطين الغرب على الشرق باسم الدين ففعلوا به الأفعال ، في حين أن المسلمين كانوا يبكون في مساجدهم يوم الجمعة ليوقظوا أهمل الخواميد ، والنقوس الرواكد ، مما استمع لهم أحد ، ولا استيصال لهم مجيب ! ولم ذلك ؟ ذلك بأن الدين لا يقوم بنفسه ، وإنما يقوم به كما قلت : طلاب الملك ، وعشاق الحياة ! والا فحدثني لماذا تغاضى الفاطميون أبناء الرسول ، ولم ينضيروا لزحف النصارى على أملاك المسلمين ؟

الملك . العظمة . الحياة . تلك آمال الأمم ، وأمني الشعوب . فإن أدى الدين إلى الملك والعظمة والحياة ، فهو نعمة من الله ، لأن الله بالمؤمنين رءوف رحيم ، أما ان نزل بهم إلى الحضيض فهو بدعة ابتدعها الأخبار والرهبان ، وأمثال الأخبار والرهبان . ومن كان في ريب مما نقول فليسأل التاريخ .

ثم أخذ الصليبيون في فتح بلدان المسلمين ، فاستولوا على كثير من مدن آسيا الصغرى والشام ، وكونوا لهم فيها إمارات سميت بالإمارات اللاتينية ، نسبة إلى الأجناس التي كان يتألف منها حملة الصليب .

وأول ما أحسن من هذه الإمارات إمارة الرها بوادي الفرات سنة ٤٩٠ هـ - ١٠٩٧ م ، ثم انتصروا سنة ٤٩١ هـ - ١٠٩٨ م ، ثم فتحوا

بيت المقدس ° وقتلوا من أهله نحو ٧٠٠٠ مسلم ، بعد أن سجل التاريخ
من سوء رأى الفواطم ما يمنعنا من ذكره الحباء °

- ٣ -

أتدرى لماذا ذكرت لك هذه الكلمة عن الحروب الصليبية ؟ لتعرف
أنه بينما كان بطرس الناسك يقضى ليه ونهاره ، في اعداد الخطب وتحبير
الرسائل ، لحت أهل أوروبا على امتلاك أقطار المسلمين ، كان الفرزالي
(حجـة الاسلام) غارقا في خلوته ، منكبا على أوراده ° لا يعرف ما يجب
عليه من الدعوة والجهاد ! ويكتفى أن نذكر أن الافرنج قبضوا على أبي
القاسم الرملي الحافظ يوم فتح بيت المقدس ، ونادوا عليه ليقتدى ، فلم
يفتدى أحد ، ثم قتلوه ، وقتلوا معه من العلماء عددا لا يحصيه الا الله ،
كما ذكر السبكي في طبقاته °

وما ذكرنا هذه المأساة الا لنعد القاريء لفهم حياة الغزالى ، ولنقنه
بأنه ليس من الع.htm أن يكون الرجل الممتاز بعلمه صورة لعصره ، فإن
كتب الغزالى لا تبتئنا بشيء عن تلك الأزمة التي عانها المسلمون حين ابتدأت
الحروب الصليبية °

ومن الخطأ أن نقصر الأخلاق على سلوك المرأة كفرد مستقل عن
الحياة الاجتماعية ، فلكل ظرف واجباته ، ويتسرر وجود حالة لا تقضي
فيها الأخلاق °

الفصل الرابع

المدارس النظامية

نسبة الى «نظام الملك» : وزير السلطان ألب أرسلان، وابنه ملکشاهه مكث في الوزارة ثلاثين سنة: عشر منها في سلطنة ألب أرسلان، وعشرون في سلطنة ملکشاهه، وقد مات «نظام الملك» قتيلاً، ولكن اختلف المؤرخون في سبب قتله: فمنهم من يروي أنه لما أسرف في النفقة على المدارس النظامية، حتى بلغ ما ينفقه على طلبة العلم ٦٠٠٠٠ دينار في السنة، وشي به بعضهم إلى السلطان ملکشاهه، وقالوا (إن الأموال التي ينفقها نظام الملك في ذلك تقييم جيشا يركز رايته في سور القدس) فاعتبره ملك شاه في ذلك فأجابه «يا بني: أنا شيخ أعمى، لو نودى علىَّ في من يزيد لم أحفظ خمسة دنانير، وأنت غلام تركي، لو نودى عليك عساك تحفظ ثلاثين ديناراً! وأنت مشتعل بلدناك، منهمك في شهواتك، وأكثر ما يصعد إلى الله تعالى معاصيك دون طاعتك، وجيوشك الذين تعدهم للنواب، إذا احتشدوا كافحوا عنك بسيف طوله ذراعان، وقوس لا يتنهى مدى مرماها إلى ثلاثة ذراع، وهم مع ذلك مستغرقون في العاصي، والخمور، والملاهي، والمزار، والطنبور، وأنا أقمن لك جيشاً يسمى جيش الليل، إذا نامت جيوشك ليلاً قامت جيوش الليل على أقدامهم، صفوفاً بين يدي ربهم، فأرسلوا دموعهم، وأطلقو ألسنتهم، ومدوا إلى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك، فأنت وجيوشك في خفارتهم تغيشون، وبدعائهم تيتوون، وبركتاتهم تمطرون وترزقون» فقبل ملکشاهه وسكت!

نقل هذا جورجى زيدان فى كتاب «التمدن الاسلامى» عن كتاب سراج الملوك، ولم يعقب عليه، بل اكتفى بأن ذكر أن «نظام الملك» توفي مقتولاً سنة ٤٨٥ هـ.

ويذكر غير واحد من المؤرخين أن «نظام الملك» ولد حفيده عثمان

ابن جمال الملك أعمال مروء، وأرسل السلطان إليها شحنة^(١) اسمه قودن، وهو من خواصه ، فنماز عثمان في شيء . فحملت عثمان حداة سنة ، واعتزاذه بجده ، على أن قبض على قودن وسجنه ، ثم أطلقه ؟ فقصد السلطان ملکشاه مستفيضا شاكيا فاغتاظ السلطان ملکشاه لاستبداد « نظام الملك » وبنيه ، وخرجوهم على حدود سلطتهم . وأرسل إلى نظام الملك رسالة يقول فيها : (إن كنت شريك في الملك ، فلذلك حكم ، وإن كنت نائبي ، فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة ، فهوأاء أولادك قد جاوزوا أمر السياسة وطمعوا ، حتى فعلوا ٠٠٠ النخ) .

قال نظام الملك لحاملي تلك الرسالة :

« قولوا للسلطان : إذا كنت لم تعلم بعد أنني شريك في الملك ، فاعلم ! فإنك ما تلت هذا الأمر الا بتديري ورأيي ، أما تذكر حين قتل أبيك ، فقمت بتدبير أمرك ، وقامت الخوارج عليك : من أهلك وغيره ، وأهلك ، وأنت في ذلك الوقت تتمسك بي ؟ فلما قدمت الأمور إليك ، وأطاعتك القاصي والداني أقبلت تتخل لي الذنب ، وتسمع في الشيارات . قولوا للسلطان : إن دوائي مقتربة بساجك ، فمتي رفعتها رفع ، ومتي سلبتها سلب ! » .

ويذكرون أن الرسل اتفقوا على كتمان هذه الرسالة ، ولكن كان للسلطان عين من بين أولئك ، بلغه ما قال نظام الملك بالحرف الواحد ، ففضب السلطان ودس لنظام الملك من قته بعد ذلك .

والاقرب الى الصواب ما ذكره الاستاذ محمد (بك) الحضرى في محاضراته بالجامعة المصرية من أن نظام الملك قتل بيد أحد الباطنية حين بعث عسكره الى قلعة الموت ، وحضر فيها الحسن بن الصباح ، وأخذ عليه الطرق .

(١) الشحنة في التعبير القديمة يساوى ناطر المالية في التعبير الحديثة .

وهذا لا ينافي ما نقل من النفرة التي وقعت بين نظام الملك وبين ملکشاه ، فان حسد الخلفاء والسلطانين لوزرائهم معروف ، وعلى الأخص فى تلك الأيام المظلمة ، التي طبعت بطبع الاستبداد وكان الأمر فيها للهوى ، والحكم للجبروت !

وقد أكثر الشعراء من رثاء نظام الملك ، فمن ذلك قول مقاتل بن عطية البكري :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة يتيمة صاغها الرحمن من شرف
بدت فلم تعرف الأيام قيمتها فردها غيرة منه الى الصدف

★ ★ *

وكما بني الفاطميون الجامع الأزهر في أواسط القرن الرابع للتأييد مذهب الشيعة ، بني نظام الملك مدارسه في أواسط القرن الخامس للتأييد مذهب أهل السنة . وهكذا كان المسلمون يشترون المدارس لتشييت الملك ، كما يفعل الأوروبيون والأمريكيون في هذا الجيل ، ولا عيب في ذلك : فالعلم من أمنى الأسلحة في استلال السخاف من الصدور ، والسياسة أدهى وأمكر من أن تغفل مثل هذا السلاح !!

و كذلك عن نظام الملك بانشاء المدارس والرباطات ، ليغمر العلماء والزهاد بفضلهم ، فيكون له منهم جرائد شفوية تنشر دعوته في الشام ، والعراق ، وخراسان ، وهكذا فهم روح العصر فاستغل أهله ، حتى ليذكرون أنه كان اذا دخل عليه الأئمة الراشدين لا يقوم لهم ، ويجلسن في مسنه ، وكان له شيخ فقير ، اذا دخل اليه يقوم له ، ويجلسه في مكانه ويجلس بين يديه ، وأنه سئل عن ذلك فقال : ان أولئك اذا دخلوا يشترون على بما ليس في ، فيزيدنـى كلامـهم عجـياً وتيـها وهذا يذكرنى بعيوب نفسي فأرجـع عن كـثير مما أنا فيه !!

و اذا صحت هذه الرواية ، فانها تدل على أن علماء ذلك العصر

كانوا أضعف من أن يجهروا بالنهى عن المكر ، وأن الخاصة كانوا لا يأبون سماع النصيحة من القراء والمجاذيب ، لأن السياسة كانت تقضى أذاك بمحاجمة هذا الصنف من الناس .

ومهما تكن نيات نظام الملك - والله علیم بذلك الصدور - فإنه مشكور الصنيع ، فقد أكثر من المدارس ، ووقف عليها الأوقاف ، ورتب للطلبة الجرايات ، وبنى لهم الأسواق ، والمساكن ، والحمامات ، وظللت مدارسه بأوقافها زمناً ليس بالقليل ، وتخرج منها كثير من العلماء والأدباء .

ولهذه المدارس النظمية فضل على الغزالي ، فقد تلقى العلم في مدرسة نيسابور . وتولى التدريس في مدرسة بغداد ، وسنعود إلى تفصيل ذلك في غير هذا الباب .

الفصل الخامس روح ذلك العصر

- ١ -

من الصعب تحديد الروح السائدة في عصر من العصور ، وإنما غاية المؤرخ أن يذكر الشواهد والأمثال ، ويستخلص منها ما يرجح أن تكون عليه صورة العصر الذي يدرسها .

وأنا أرجح أن تكون السذاجة هي الصفة الفالبة في ذلك العصر مع شيء من المكر في الأمراء والعلماء . ومن الشواهد الدالة على هذه السذاجة ما ذكره الغزالى في كتابه « المنقد من الفلال » من أن الناس

كانوا يقولون حين ترك المدرسة النظامية ببغداد : إنها عين أصابت الإسلام ! وما نقل السبكي من أن أحد معاصريه سمعه يقول : « قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع ما معى ومضوا ، فتبعدتهم ، فالتفت إلى مقدمهم وقال : ارجع وبيحك والا هلكت ! فقلت له أسائلك بالذى ترجو السلامة منه أن ترد على تعليقى فقط ، فما هي بشىء تتتفعون به ، فقال لي : وما هي نعلقتك ؟ فقلت : كتب فى تلك المخلافة هاجر لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك وقال : كيف تدعى أنك عرفت علمها ، وقد أخذناها منك ، فتجزرت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟ ثم أمر بعض أصحابه فسلم إلى المخلافة . قال الغزالى : هذا مستنطق انطقه الله ليرشدنا به فى أمرى ، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته ، وصرت بحث لو قطع على الطريق لم أتجزد من علمي » .

والسذاجة ظاهرة فى هذا الحديث ، فمن الواضح أن حفظ الكتب عن ظهر قلب حتى لا تبقى إلى حفظها حاجة ، افة عظيمة فى تكوين العقول ، فليس بقيمة العالم فيما يحفظ ، ولكن قيمته فى حسن الفهم ، وأصالة الرأى ، وصواب الحكم .

ومن شواهد السذاجة ما أورده نظام الملك فى وصيته ^(١) التي تركها لخلفه من المسامة حيث يقول :

« كان الإمام الموفق النيسابوري من جلة علماء خراسان ، مبجلاً مهيباً ، وقد نيف على الخمس والثمانين . وكان السائد في عقيدة أهل زمانه أن كل من قرأ عليه العلوم العربية نفع فيها ، وبلغ الغاية ، وانساق إليه العز والجلاء ، والنعمة والثراء ، ولذلك وجهنى أبي من بلدة طوس إلى نيسابور مع عبد الصمد الفقيه ، لأقرأ على ذلك الأستاذ النابغة الجليل . وهنالك خطيت به ، فوشجت بينما أواصر المودة ، وتأكدت عرا الصداقة

(١) مقدمة السباعى لرباعيات عمر الشيام .

ولحظني بعين عنايته ، وأنزلته من نفسى أخص منزلة ، وألطفها ، ولبتسا
 على ذلك سنتين عدة . وكتت أول ما نزلت به ، وجلست فى حلقته ، لقيت
 تلميذين فى مثل سنى ، حديثى عهد مثلى بالقراءة على الامام الموفق .
 وهما عمر الخيام والحسن بن الصباح ، وكاتبا آيتين فى الفطنة والذكاء
 فانس كل منا بصاحبيه ، ونممت بينما تحن الثلاثة أحسن صحبة وأمتها .
 فكان اذا قام الامام عن الدرس ، وانفضت الحلقة ، اجتمعنا فتذاكرنا
 ما ثقلينا عليه من المعارف . وكان الخيام من أهالى نيسابور ، أما الحسن
 ابن الصباح فكان أبوه ناسكا ورعا متقدسا ، ولكنه كان زنديقا ، فأقبل
 الحسن يوما على عمر الخيام فقال له : لقد صح فى أذهان الناس قاطبة أنه
 ليس من تلميذ يتخرج على الامام الموفق الا مصريا عزاً واقبالا وثروة
 وجاهها ، فهرب أن ذلك لم يتفق لنا نحن الثلاثة جمیعا فانه لا بد أن يقع
 لواحد منا ، فماذا يكون حق الاثنين الخائبين على ذلك الفائز الظاهر ؟ فلنا
 له : اقترح ما تشاء ، فقال : فلتتعاهد الآن على أنه من أصحاب منا الثراء فعلية
 أن يقسمه فيما بيننا نحن الثلاثة على السواء ، لا يؤثر نفسه بشيء دون
 أخيه . فاجبنا : ليكن ذلك كما فلت . ثم تحالفنا على ذلك وتعاهدنا ،
 ومررت الأعوام على ذلك ، وغادرت خراسان متوجولا في فضاء الله ، إلى
 غزنة ، ثم إلى كابل ، ولما عدت تقلدت منصب الوزارة في سلطنة السلطان
 ألب أرسلان ، وبعد مدة من الزمن عرف ذلك أصحابي . فأتيني يطلبان
 انتحاز وعدى القديم واشراكمها فيما انتحاز لم من النعمة والثراء .

والذى يعنينى من هذه الحكاية هو أن يكون « السائد فى عقيدة أهل
 ذلك الزمان آن من قرأ العلوم العربية على الامام الموفق نبغ فيها وبلغ العالمية
 وانساق اليه العز والجلاء ، وتلك خرافات لا يسيغها غير ضعاف العقول ،
 وصفار الاحلام ، وقد رأيت كيف كان الناس يتداولون « هذه العقيدة »
 وكيف كان الطلبة يتقنون بها فى حلقات الدروس .

وقد رأينا فى الفصل السالق كيف من « نظام الملك » على ملکشاه

بأن أقام له جيش الليل من العلماء والقراء ، مع أنه لا يصح الدفاع عن العلم باظهار الحاجة إلى دعوات أهله ودموعهم ، فبئس السلاح سلاح الدمع والدعاء . وإنما تحرس الأمم بالعلم في إقامة ما اعوج من الأخلاق وايقاظ ما خمد من النفوس ، واحياء ما اندرس من آثار القول .

ومن الشواهد على سذاجة ذلك العصر التحدث بالنمamas والأحلام وهي شارة الارتياح في الواقع ، والإيمان بالخيال .

- ٢ -

أما ما كان في ذلك العصر من مكر الأمراء والعلماء ، فدلائله كثيرة مبعثرة في الكتب هنا وهناك ، ومؤلفات الغزالي شهيدة على ذلك ، فكثيراً ما نراه يشن الغارة على العلماء الذين يكترون الجدل ، ي逞دون بالغيرة على العلم والدين ، وهم في الواقع طلاب جاه ، وطلاب مال !!

ويمكن الجزم بأن الغزالي يمثل عصره أصدق تمثيل وهو يتحدث عن الانقياء المزيين من المتصوفة الذين يخدعون الناس باسم التقى ، وهم في أنفسهم أنصار غيّ وضلال وإنما قلنا أنه يمثل عصره ، لأنه يتكلم في هذه الشؤون بحماسة عظيمة ، ليست صدى لمطالعاته في المؤلفات القديمة ، وإنما هي أثر لغضبيه من قوم عاش بينهم ، ولقى من مكرهم وريائهم أنواع الشقاء . وقد سبقه المعرى بنقد المتصوفة ، ولكن المعرى كان غير مسموع الكلمة في نقادهم ، أما الغزالي فكانت كلمته في ذمهم شديدة الأثر ، لأنه صوفي ، ولأن تلاميذه كانوا عوناً له على نشر ما يريدوه

واليك أنموذجًا من كلامه عن أصناف المغرورين :

« وفرقة منهم عدلوا عن المنهاج الواجب في الوعظ ، وهم وعاظ الزمان كافة ، إلا من عصمه الله على الندور في بعض أطراف البلاد إن كان ولستنا نعرفه ، فاشتغلوا بالطامات والشطح وتلقيق كلمات خارجة عن

قانون الشرع والعقل طلبا للاغراب ، وطائفة شغلوا بعبارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها ، فأكثر همهم الاستجاع والاستشهاد بأشعار الوصال والفرق ، وغرضهم أن تكث في مجالسهم الرزقات ، والتواجد ، ولو على أغراض فاسدة ، فهو لاء شياطين الانس ضلوا وأضلوا عن سوء السبيل ٠

ص ٤٠٥ ج ٣ احياء ٠

على أن النزالى كان بنفسه أداة من أدوات الصوفية ، وسترى كيف كان ذلك في غير هذا الباب ٠

أما مكر الأمراء والملوك فقد كاد ينحصر في ختل العامة وجرهم إلى الحروب باسم الدين ، فمن المتعسر أن تجد أمة إسلامية حاربت أختها باسم الملك ، في دعوة صريحة بل كانت كل أمة تختص نفسها بالهداية ، وترمى غيرها بالمرقق ، وكانت الجماهير وفودا لنار تلك الفتن في مصر ، والشام ، والعراق ، وخراسان ، وغيرها من ممالك المسلمين ٠ ولمن الله الساسة أصحاب الأغراض ٠

الفصل السادس البلدان التي عرفها الغزالي

نريد أن نذكر في هذا الفصل بعض البلدان التي عرفها الغزالي ، لصلة ذلك ب حياته ، ونستثنى بغداد ، لأنها أشهر من أن تحتاج إلى تعريف ، وقد خصها الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين بكلمة ممتعة في كتابه ذكرى أبي العلاء ، فليرجع إليه من أراد ٠

ونعتمد في وصف تلك البلدان على معجم ياقوت^(١) لقرب مؤلفه

(١) توف ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان في سنة ٦٢٦ هـ . وتأتيه من أجد ما عرف العرب في القواميس الجغرافية ٠

من ذلك العصر ، ولأنه يتصور تلك المواطن على نحو ما كان يعرفها الناس
اذا ذاك .

طوس

مدينة بخراسان، تستعمل على بلدين يقال لاحداهما الطبران (وهي
التي دفن بها الغزال) وللآخرى توفان ، ولهمما اتر من الف فرية ،
فتحت فى ايام عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وبها قبر على بن موسى الرضا
وبها ايضا قبر هرون الرشيد . وقال مسعود بن المهلل : طوس أربع
مدن ، منها اثنان كبيرة واثنان صغيرتان ، وبها اثار أبنية اسلامية جليلة ،
وبها دار حميد بن قحطبة ، ومساحتها ميل فى مثلك ، وفي بعض بساتينها
قبر على بن موسى الرضا وقبر الرشيد ، وبينها وبين نيسابور قصر هائل
محطم البنيان ، لم ار مثله علو جدران ، واحدام بنيان ، وفي داخله مقاصير
تحار فى حسنها الاوهام ، وازاج ، (١) واروفة ، وخزان وحجر للخلوة ،
وسألت عن أمره فوجدت أهل البلد مجتمعين على أنه من بناء بعض التابعية ،
 وأنه كان قصد بلاد الصين من اليمن ، فلما صار الى هذا المكان رأى أن
يختلف حرمته وكوزه وذخائره فى مكان يسكن اليه ، ويسير متخففا ،
فبنى هذا القصر واجرى له نهرًا عظيمًا أثاره بينة ، وأودعه كوزه ،
وذخائره ، وحرمه ، ومضى الى الصين فبلغ ما اراد ، وانصرف فحمل
بعض ما كان جعله فى القصر ، وبقيت له فيه بعد أموال وذخائر تخفى
أمكنتها . وصفات مواضعها مكتوبة معه . فلم يزل على هذه الحال تجاذب
به القوافل ، وتنزله السابلة ، ولا يعلمون منه شيئا ، حتى استبان ذلك
واستخرج له أسد بن أبي يعفر صاحب كحالان (٢) لأن الصفة وقعت له .

وقد خرج من طوس عدد كبير من أئمة العلم أشهرهم أبو حامد

(١) مفرداتها أزاج يفتحتين ضرب من الأبنية .

(٢) من مخالفات اليمن .

الغزالى ، وخرج منها الوزير « نظام الملك » . قال ياقوت : وأهل خراسان
يسمون أهل طوس البقر ، ولا أدرى لم ذلك ؟

وقال رجل يهجو نظام الملك :

لقد خرَبَ الطوسِيُّ بلدة غزنة
فصَبَّ عليه الله مقلوب بلدته
هو الثور قرن الثور في حِرْأَمِ
ومقلوب اسم الثور في جوف لحِتَه^(١)

وقال دعبد الخزاعى من قصيدة يمدح بها على بن أبي طالب رضى
الله عنه وينذِّكر قبرى على بن موسى والرشيد بطورس :

اربع بطورس على قبر الزكى به
ان كت تربع من دين على وطنِ
قبران فى طوس : خير الناس كلهم
وقبر شرهم : هذا من العبر
ما ينفع الرجس من قرب الزكى ولا
على الزكى بقرب الرجس من ضرر
هيئات كل امرىء رهن بما كسبت
يذاه حقاً . فخذ ما شئت أو فذر

وطوس هذه هي موطن الغزالى . وموالده ، وبهـا قبره ، الا ان
صح ما رواه بعضهم من أنه ولد بقرية تسمى غزالة بالقرب من طوس .
وأنا لا أستبعد ذلك ، ما دام ياقوت يحدتنا أنه كان لطورس أكثر من ألف
قرية . وإذا يكون الغزالى بفتح الزاي لا بشدیدها ، على أن فى طبقات

(١) مقلوب طوس : سوط ، ومقلوب ثور : روث

السبكي ص ٩ ج ٤ رجال آخر يلقب بالغزالى ، ولا ضرورة لأن يكون هذا اسماً لائلة قديمة كما ظن الدكتور زويمر ، بل يمكن أن يكون كلاهما نسب لتلك القرية الصغيرة : غزالة ٠

نيسابور

قال ياقوت : هي مدينة عظيمة ٠ ذات فضائل جسمية ٠ معدن الفضلاء ومنبع العلماء ٠ لم أر فيما طوفت من البلاد مدينة كانت مثلها ، ثم قال : ومن الرى الى نيسابور مائة وستون فرسخاً ، ومنها الى سرخس أربعون فرسخاً ، ومن سرخس الى مرو الشاهجان^(١) ثلاثون فرسخاً . ثم قال : وأكثر شرب أهل نيسابور من قُنْيَّ تجري تحت الأرض ينزل اليها في سراديب مهياً لذلك ، فيوجد الماء تحت الأرض ، وليس بصادق الحلاوة ، ثم قال : وعهدى بها كثيرة الفواكه والخيرات وبها رياض ليس في الدنيا مثله ، تكون الواحدة منه منا وأكثر ، وقد وزناها واحدة فكانت خمسة ارطال بالعرافى ، وهي بيضاء صادقة الياض كأنها الطلع ، ثم قال :

(١) مرو الشاهجان ، هي قبة خراسان وكان بها لمهد ياقوت عشر خزانات موقوفة تحوى نفائس الكتب . منها خزانات في الجامع احدهما يقال لها العزيزية ، وقها رجل يقال له عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجاني ، وكان فيها ١٢٠٠ مجلد ، وأخرى يقال لها الكمالية ، لا أدري الى من تنسب ، وبها خزانة شرف الملك المستوفى أبي محمد بن منصور في مدرسته ومات المستوفى هنا في سنة ٤٤٩ هـ وكان حنفي المذهب ، وخزانة نظام الملك في مدرسته ، وخزانة للسماعيين وخزانة أخرى في المدرسة العميدية ، وخزانة لمجد الملك أحد الوزراء المتأخرین بها ونخانة المأمونية في مدرستها . والضئيرية في خانقة هناك يقول ياقوت (وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلها مائتا مجلد ، أكثرها بغير رعن) ويدرك أن أكثر فوائد معجمه من تلك الخزانات . وفي مرو الشاهجان يقول بعض الأعراب :

أقرية الوادي التي خسان فيها
تعال أملاجك البكاء فاننا
كلانا بمرو الشاهجان غريب
ويقول أبو الحسين مسعود بن الحسن الدمشقي :

أخلاى ان أصبحتم في دياركم	فالي بمو الشاهجان غريب
أموات اشتياقا ثم أحيا تذكرا	وبين التراقي والفالق لهيب
ولكن بقاء في الحياة عجيب	لما عجب موت الغريب صباة

وكان المسلمون فتحوها في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه والأمير عبد الله بن كريز في سنة ٣١ صلحاً وبني بها جاماً، وقبل انها فتحت في أيام عمر رضي الله عنه على يد الأخفف بن قيس، وإنما انتقضت في أيام عثمان فأرسل إليها عبد الله بن عامر ففتحها ثانية.

وقد خرج من نيسابور عدد كبير من أئمة العلم أشهرهم الحافظ الإمام أبو علي الحسين بن علي النيسابوري، الذي رحل في طلب العلم والحديث، وعقد له مجلس الاملاء بنيسابور سنة ٣٣٧ وهو ابن ستين سنة وقد توفي سنة ٣٤٩.

وقد أكثر الشعراً من ذم نيسابور، فمن ذلك قول أبي الحسن الاسترابادي:

لا قدس الله نيسابور من بلد
سوق الفاق بمعناها على ساق
يموت فيها الفتى جوعاً وبُرْهم
والفضل ماشت من خير وأرزاق
والخير في معدن الغرني وان برقت
أنواره في المعانى غير براق

وقال المرادي ينم أهلها:

لا تنزلن بنيساپور مفترياً
الا وجبلك موصول بسلطان
أولاً فلا أدب يجده، ولا حسب
يغنى، ولا حرمة ترعى لانسان

وقال معن بن زائدة الشيباني: يشكو ليه بنيساپور:

تمطى بنيساپور ليلي وربما
يرى بجنوب الري وهو قصير

ليالٍ اذ كل الأحبة حاضر
 وما كحضرور من تحب سرور
 فأصبحت امّا من أحب فنازح
 وأما الألّى أقليهم فحضرور
 أراعي نجوم الليل حتى كأنتي
 بأيدي عدا سائرين أسيّر
 لعل الذي لا يجمع الشمل غيره
 يديري رحي جمع الهوى فتدور
 فسكن أشجان ونلقى أحبة
 ويورق غصن للشباب نصیر

وفي نيسابور تلقى الغزالى عن امام الحرمين الفقه والمنطق والأصول
 حتى برع أنداده ، وزملاءه . وتولى في آخريات أيامه التدريس بالمدرسة
 النظامية في نيسابور مدة يسيرة ، رجع بعدها إلى طوس ، حيث اتخذ إلى
 جانب داره مدرسة للفقهاء ، وخانقه للصوفية .

جرجان

مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان ، فبعض يعدها من هذه
 وبعض يعدها من تلك ، قيل ان أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب
 ابن أبي صفرة . وقد خرج منها عدد من الأدباء والعلماء والمحدثين . ولها
 تاريخ ألفه حمزة بن يزيد السهمي . قال الاصطخري : أما جرجان فانها
 أكبر مدينة بنواحيها وهي أفل ندى ومطرأً من طبرستان ، وأهلها أحسن
 وقاراً وأكثر مروءة ويساراً من كبرائهم ، وهي قحطان احدهما المدينة
 والأخرى بكراباذ . وبينهما نهر كبير . ولجرجان مياه كثيرة ، وضياع
 عريضة ، وليس بالشرق بعد أن تجاوز العراق مدينة أجمع ولا أظهر
 حستا من جرجان . قال ياقوت : وبها الزيتون والنخل والجوز والرمان

وَقَصْبُ السَّكْرِ وَالْأَتْرُجِ وَبِهَا ابْرِيسِمْ جَيدٌ لَا يَسْتَحِيلُ صَبْنَهُ ، وَبِهَا أَحْجَارٌ
كَبِيرَةٌ لَهَا خَواصٌ عَجِيْةٌ ، وَبِهَا تَعَابِينٌ تَهُولُ النَّاظِرَ ، وَلَكِنْ لَا ضَرَرَ لَهَا ،
وَقَدْ فَتَحَتْ فِي سَنَةِ ١٨٠ هـ عَلَى يَدِ سُوِيدِ بْنِ مَقْرَنْ ، وَخَرَجَ مِنْهَا عَدْدٌ
عَظِيمٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، كَانَتْ تَشَدُّ الْيَمِّ الرَّحَالَ ٠

وَكَانَ بِهَا صَنْفٌ جَيْدٌ مِنَ الْخَمْرِ ، وَفِيهَا يَقُولُ ابْنُ خُرَبَمْ :

وَصَهَبَهُ جَرْجَانِيَّةٌ لَمْ يَطْفَ بِهَا
حَنِيفٌ وَلَمْ يُلْمِمْ بِهَا سَاعَةً غَيْرُ
وَلَمْ يَشْهُدْ الْقَسَّ الْمَهِيمِ نَارَهَا
طَرْوَقًا وَلَمْ يَحْضُرْ عَلَى طَبْخَهَا حِيرَ
أَتَانِي بِهَا يَحْيَى وَقَدْ نَمَتْ نَوْمَةً
وَقَدْ لَاحَتِ الشَّعْرِيَّ وَقَدْ طَلَعَ السَّرَّ
فَقَلَتْ اصْطَبَحُهَا أَوْ لَغَيْرِي فَاهْدَهَا
فِيمَا أَنَا بَعْدِ الشَّيْبِ وَيَحْكُ وَالْخَمْرِ
تَعْفَفَتْ عَنْهَا فِي الْعَصُورِ التِّي مَضَتْ
فَكَيْفَ التَّصَابِيَّ بَعْدَ مَا كَمَلَ الْعَرَ
إِذَا الْمَرَءُ وَقَى الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَكُنْ
لَهُ دُونَ مَا يَأْتِي حَيَاهُ وَلَا سِيَّرَ
فَدَعَهُ وَلَا تَنْفَسَ عَلَيْهِ الذَّى أَتَى
وَانْ جَرَ أَسْبَابَ الْحَيَاةِ لَهُ الْدَّهْرُ

وَيَذَكُرُ يَاقوُتُ أَنَّ أَهْلَ الْكُوفَةَ كَانُوا يَقُولُونَ : مَنْ لَمْ يَرُوْ هَذِهِ
الْأَبْيَاتِ فَهُوَ نَاقِصُ الْمَرْوَةِ ٠٠٠ وَذَكَرَ أَنَّ مُسْلِمَ بْنَ الْوَلِيدَ صَرِيعَ الْفَوَانِيَّ
مَرْضٌ مَرْضُ الْمَوْتِ بِجَرْجَانِ ، وَأَنَّهُ رَأَى نَخْلَةً لَمْ يَكُنْ فِي جَرْجَانَ غَيْرَهَا
فَقَالَ :

ألا يا نخلة بالسَّةِ يَحْ مِنْ أَكْنَافِ جُرْجَانِ
الَا انى واياك بجرجان غريان

والى جرجان رحل الفرزالي ليتلقى العلم عن ابى نصر الاسماعيلي
وعلق عنه التعليقة التي حدثتك عما فعل بها العيارون وهو راجع الى
طوس *

دمشق

لو أنك رجعت الى ياقوت ، وقرأت في معجمه أخبار هذه المدينة
نرايت ديف يصل العرب في بيداء الخيال ، ولعرفت ان لهم حظا من
اساطير الاولين . وهذا الضلال في ذكر من بنى مدينة دمشق يصور لنا
منزلتها المقدسة ، التي احتلت قبلًا رؤوس المسلمين : فهم تارة يذلرون
أن بانيها هو دمشق بن فانى بن مالك بن أرفخشيد بن سام بن نوح عليه
السلام ، وتارة أخرى يقولون أنها بنيت على رأس ثلاثة الاف ومائة
وخمس وأربعين سنة من جملة الدهر الذي يقولون انه سبعة آلاف سنة
وحياناً يزعمون أن ابراهيم عليه السلام ولد بعد بنائه بخمس سنين
وحياناً آخر يتوهمن ان العازر غلام ابراهيم عليه السلام هو الذي بنى
دمشق *

وأغرب من ذلك كله قول ياقوت : وقال أهل الثقة من أهل السير
ان آدم عليه السلام كان ينزل في موضع يعرف الآن بيت آنات ، وحواء
في بيت لهايا ، وهابيل في مقرى وكان صاحب غنم ، وقابليل في قنية وكان
صاحب زرع ، وهذه المواقع حول دمشق *

ووجه الغرابة فيه اخلاقه الى من يسميهم « أهل الثقة » وأين
وصل أهل الثقة الى أخبار آدم ونوع ، يا أيها المؤرخ الخطير !
وأجب أيه القاري الى قيمة الاغراق والغلو في وصف البلاد
فانه نعم الباعث على الرحلة والسياحة وان دل على سذاجة الواصفين

وأربعة أخimas الناس يستائفون إلى رؤية دمشق حين يقرءون أنها كانت
 مأوى الأنبياء ومصلاهم ، وأنه كان بها مسجد إبراهيم وقبور موسى عليهما
 السلام ، وأنه لم توصف الجنة بشيء إلا وفيها مثله !!
 وكانتوا يقولون : (عجائب الدنيا أربع : قنطرة سنجدة ، ومنارة
 الاسكندرية ، وكنيسة الرها ، ومسجد دمشق) ولهذا المسجد حديث
 عجيب ، فقد ذكروا أن الوليد بن عبد الملك بن مروان لما أراد بناء
 جمع نصارى دمشق وقل لهم : أنا نريد أن نزيد في مسجدنا كنيستكم
 يعني كنيسة يوحنا ، ونعطيكم كنيسة حيث شئتم وإن شئتم ضاعفنا لكم
 الشئ ، فابوا ، و جاءوا بكتاب خالد بن الوليد والمهد ، وقالوا أنا نجد في
 كتابنا أنه لا يهدمنا أحد إلا خنق ، فقال لهم الوليد : فانا أول من يهدمنها
 فقام وعليه قباء أصفر ، فهدم وهدم الناس ثم زاد في المسجد ما أراد .
 قالوا وملأ في بنائه تسعة سنين يعمل فيها عشرة آلاف رجل !! . وقال
 موسى بن حماد البربرى : رأيت في مسجد دمشق تابه بالذهب في
 ارجح محمورا فيها سورة (الهاشم النذائر ، حتى زرتم المقابر) إلى
 آخرها ، ورأيت جوهرة حمراء ملصقة في القاف ، التي في قوله تعالى :
 (حتى زرتم المقابر) فسألت عن ذلك فقيل لي : انه ذات للوليد بنت ودانت
 هذه الجوهرة لها ، فماتت فأمرت أنها ان تدفن هذه الجوهرة معها في
 قبرها ، فأمر الوليد بها فصيরت في قاف المقابر من (الهاشم التذائر حتى
 زرتم المقابر) . ثم حلف لأمها أنه قد أودعها المقابر فسكتت . ونقل الجھنط
 في كتاب البلدان عن بعض السلف أنه قال : ما يجوز أن يكون أحد أشد
 شوقا إلى الجنة من أهل دمشق لما يرونها من حسن مساجدهم . ويقول
 يافوت : ومن عجائب أنه لو عاش الإنسان مائة سنة وكان يتأمله كل يوم
 لرأى فيه كل يوم مالم يره في سائر الأيام من حسن صناعاته واحتلافيها .
 ثم قال بعد كلام طويل : ولم يزل جامع دمشق على تلك الصورة يبهر
 بالحسن والتنميق إلى أن وقع فيه حريق في سنة ١٦١ فاذهاب بعض
 حسنه .

وقد أكثر الشعراء من وصف دمشق ، فمن ذلك قول أبى المطاع
ابن حمدان :

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها
فل بجنوب الغوطتين شجون

وما ذقت طعم الماء الا استخنى
إلى بردى والنميرين حنين

وقد كان شكى في الفراق يروعنى
فكيف أكون اليوم وهو يقين

فوالله ما فارقكم قاليًا لكم
ولكنَّ ما يقضى فسوف يكون

وقال الصنوبرى :

صفت دنيا دمشق لقاطنها
فلاست ترى بغیر دمشق دنيا

تفيض جداول البلور فيها
خلال حدائق ينبت وشيا

مكللة فواكهن أبهى إلـا
مناظر فى . مناظرنا وأهـا

فنـ تفاحة لم تمـ خـدا
ومن أـ ترـجة لم تمـ نـديـا

وقال البحترى :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها
وقد وفي لك مطريها بما وعدـا

اذا أردت ملأت العين من بلد
 مستحسن و زمان يشبه البداء
 يمسى السحاب على أججاتها فرقا
 ويصبح النبت في صحرائها بددا
 فلست تبصر الا واكفا خضلا
 او يانعا خضرا او طائرا غريدا
 كأنما القبط ول بعده جيشه
 او الربيع دنا من بعد ما بعدها

وقد أغرب الأقدمون في وصف دمشق ، ومسجد دمشق ، والذى
 ذكرته من ذلك كاف لـ أنا بتصده من صلة الفزالي بهذه المدينة ، فقد
 دخلها في سنة ٤٨٩ وأقام بها أيام قليلة ، ثم عاد إليها بعد ذلك . واعتكف
 بالمنارة الغربية من الجامع ، قل السبكي : واتفق أن جلس يوما في صحن
 الجامع الأموي وجماعة من المفتين يتمشون في الصحن وإذا بقررو أتهم
 مستقيطا ، ولم يردو عليه جوابا . والفالى يتأمل . فلما رأى الفالى أنه
 ليس عند أحد جوابه ، ويعز عليه عدم ارشاده . دعاه وأجابه . فأخذ
 القروى يهزأ به ويقول : المفتون ما أجابنى . وهذا فقير عامى كيف
 يجيبنى ؟ والمفتون ينظرونه فلما فرغ من كلامه معه ، دعوا القروى
 وسألوه : ما الذى حدثك به هذا العامى ؟ وكان الفالى اذ ذاك فى ذى
 فقير مجهول - فشرح لهم الحال فجاءوا اليه وتعرفوا به ، وسألوه أن يعقد
 لهم مجلسا ، فوعدهم ، ثم سافر من ليلته .

وهناك أحاديث كثيرة عن صلته بدمشق يضيق عن ذكرها المقام .
 وحسب القارىء هذا المقدار

بيت المقدس

من المواطن التي قدسها العرب والمسلمون ، وتركوا أمرها للخيال
يصورها كيف شاء ، فهم يزعمون أن الله تعالى قال لسليمان بن داود
عليهما السلام حين فرغ من بناء البيت المقدس : سلني أعطيك : قال يارب ،
أسألك أن تغفر لي ذنبي . قال لك ذلك . قال يارب ، وأسألك أن تغفر
لمن جاء هذا البيت يريد الصلاة فيه ، وأن تخرجه من ذنبه كيوم ولد .
قال لك ذلك . قال وأسألك من جاء فغيراً أن تغفه . قال لك ذلك . قال
وأسألك من جاء سقيماً أن تشفيه . قال ولك ذلك !! ويررون عن أبي ذر
أنه قال : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى مسجد وضع على وجه
الارض اولاً ؟ قال المسجد الحرام ، قلت تم اي ؟ قال البيت المقدس ،
وبينهما أربعون سنة ، وينقلون عن كعب أنه قال : معقل المؤمنين أيام
الدجال البيت المقدس يحاصرهم فيه حتى يأكلوا أوتار قسيهم من الجوع ،
في بينما هم كذلك إذ يسمعون صوتاً من الصخرة ، فيقولون هذا صوت رجل
شبعان ، فينظرون ، فإذا عيسى بن مریم عليه السلام . فإذا رأى الدجال
هرب منه ، فيتلقاء بباب لدّ فقتله . ويؤكد الرواة يتفقون على أنها «عرصه
القيمة ، ومنها النشر ، وإليها الحشر » . ويزعمون أن سليمان كان اتخذ في
بيت المقدس أشياء عجيبة : منها القبة التي فيها السلسلة المعلقة ينالها
صاحب الحق ، ولا ينالها المبطل ، حتى اضمحلت بحيلة غير معروفة !!
وكان من عجائب بنائه أنه بنى بيته وأحکمه وصقله ، فإذا دخله الفاجر
والورع ، تبين الفاجر من الورع ، لأن الورع كان يظهر خياله في الحائط
أيضاً ، والفاجر يظهر خياله أسود ؟ . وكان أيضاً مما اتخذ من
الأعجيب أن ينصب في زاوية من زواياه عصاً آبنوس فكان من مسها من
أولاد الأنبياء لم تضره ، ومن مسها من غيرهم أحرقت يده !! قال ياتوت
(وقد وصفها القدماء بصفات ان استقصيتها أمللت القاريء) فياليت شعرى
ماذا عسى أن تكون تلك الصفات ؟

انه لا شئ في ان دل ما وصف به بيت المقدس ليس الا صورة مبلغ
امقددين من فهم حفائق الاشياء ، فليست زيارته بمخرجه احدا من ذنوبه ،
ولا براحمة فقيرا من فقره ، ولا بمنفعة سقيما من سقمه ، كما يزعمون
ان الله قل ذلك وليس هناك سند يثق به التاريخ عن بناء المسجد احرام
وببناء بيت المقدس بعده باربعين سنة ، لما يتوهمن ان النبي قال ذلك !
ولن يدل المؤمنون او تاريفتهم من اجوع حين يحاصرهم الدجال في بيت
المقدس ، ولن يعود عيسى الى هذا العالم كما يتوهم ثير من الناس ،
وهب ذلك يكون ، فمن يدرينا ان المؤمنين لن يملكون يومئذ غير الفسخ
والنبال ؟ ولا تسن السلسلة التي علقها في القبة سيدنا سليمان ، والتي
كان ينالها صاحب الحق ، ولا ينالها المبطل ، فتلك بلا ريب ولidea اخيال !!
وما عسى ان يكون ذلك اليت الذي كان اذا دخله الفاجر ظهر خياله
اسود ، واذا دخله الورع ظهر خياله أبيض ؟

اذ در هذه الصورة العجيبة لبيت المقدس ، تم اذ در قول ابن
عباس : بيت المقدس بنته الآنياء وسكنه الآنياء ، ما فيه موضع شبر الا
وفد صلى فيهنبي ، او قام فيه ملك ، ثم اذكر ما يزعمون من ان اول شيء
حسر عنه الطوفان بيت المقدس وأن فيه ينفتح في الصور يوم القيمة ،
وعلى صخرته ينادي المنادى يوم القيمة !

اذكر هذا كله ، ثم دعنا نخبرك بأن الغزال يتمدح في كتابه « المقد
من الضلال » بأنه كان يرحل الى بيت المقدس فيدخل الصخرة كل يوم
ويغلق بابها على نفسه ويتبعد فيها طول النهار !! وأنه انكشف له في أثناء
هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها كما قال *

هذه المواطن التي قدسها الخيال ، ووضعت في فضلها الأحاديث ،
أثرت تأثيراً بيناً في حياة الغزال العقلية ، وطبع نظره الى العالم بطبع
خاص . ولو لا خوف الاطالة لوصفنا ما رأه في سياحاته من المشاهد
والبقاء ، ولكن الرغبة في الإيجاز أرضاًتنا عن الاكتفاء بأشهر ما عرف من
البلاد .

الفصل السابع

أعيان ذلك العصر

الذى يهمنا من أعيان العصر الذى عاش فيه الغزالى انما هو ذكر أساتذته لتأثيرهم فى تكوين عقله ، غير أنه من الحسن أن نذكر طائفنة من علماء ذلك العصر لأن فى ذلك تصويراً لحركة العقول اذ ذاك . ونكرر ما قلناه من أن الغرض انما هو أن نقرب للقارىء زمان الغزالى ومكانه ، نوعاً من التقريب . فاما تحديد اتجاهات الفكر فى تلك الاونة ، فلا يسعه هذا المؤلف ، الذى يراد به درس آراء الغزالى في الأخلاق .

الشهر ستانى

هو أبو القتح محمد بن عبد الكريم المولود سنة ٧٩٤ والمتوفى سنة ٥٤٨ . تلقى العلم في نيسابور على أبي الحسن علي بن أحمد المدائى ، وقد ذكر السبكي بقية أستاذته في ص ٧٨ ج ٤ من طبقاته . ومن أشهر تأليفه كتاب (الملل والنحل) وهو كتاب جيد . قال في مقدمته : « وبعد فلما وفقتى الله تعالى لمطالعة مقالات أهل العلم من أرباب الديانات والملل ، وأهل الأهواء والنحل ، والوقوف على مصادرها ومواردها ، واقتناص أوانسها وشواردها ، أردت أن أجمع ذلك في مختصر يحوى جميع ما تدين به الم الدينون ، واتحلله المتخللون ، عبرة لمن استبصر ، واستبصاراً لمن اعتبر » . وقيمة هذا الكتاب ترجع إلى جمعه أكثر الآراء التي عرفها المسلمون لذلك العهد ، ومن عيوبه الإيجاز والغموض في أكثر المواطن

التي تحتاج الى البسط والبيان : وقد رماه معاصره بزيف العقيدة « لبلالته في نصرة مذهب الفلسفه » وسترى فيما بعد أن الشك في عقائد أنصار الفلسفه كان من علامات ذلك الجيل .

الأبيوردي

هو أبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردي ، تفقه على امام الحرمين ، وشهد له أهل زمانه بحسن العقيدة - وكذلك كان العلماء دائمًا في حاجة إلى شهادة العامة لهم بحسن العقيدة ، كأنما الدين خرافه يسيغها العوام وينكرها الخواص - وكان الأبيوردي يرى نفسه أولى بالخلافة وأحق بها من سواه ، وقد جرت له هذه الترعة بلايا كثيرة ، اضطر بسيبهان إلى مقارقة بغداد ، فرجع إلى همدان واشتغل مدة بالتدريس والتأليف ، ثم توفي مسموماً بأسنانه في ربيع الأول سنة ٥٤٢ .

وكان الأبيوردي بارع الشعر ، وله في الصبر على أحداث الدهر آيات بيات ، ويندر أن تجد أدبًا لا يحفظ قوله :

تنكر لى دهرى ولم يدر أنتى
أعز وأحداث الزمان تهون

فبات يريني الخطب . كيف اعتداوه
وبت أريه الصبر كيف يكون
ومن بديع الشعر أبياته التي يشوق فيها إلى أصحابه ، وقد خلاًهم
بغداد .

ألا ليت شعرى هل أراني بنيضة
أبيت على أرجائهما وأقيل
هواه ك أيام الهوى لا يفهم
نسيم ك لحظ الفسانيات عليه

وعصر رقيق الطرتين تدرجت
 على صفحاته نصراً وقبولاً
 وأرض حصاها لؤلؤ وترابها
 تضوّع مسكاً والماء شمول
 بها العيش غض والحياة شهية
 وليلي قصير والهجر أصيل
 فقل لأخلاقي بغداد هل بكم
 سلو ف Gundī رنة وعوين
 نرتحن ذكراكم فكأنما
 تميل بي الصباء حيث أميل
 لتن قصرت أيام أنسى بقربكم
 فليلي على نأي المزار طويل

الأرجاني

هو أبو بكر أحمد بن الحسين الأرجاني ، ولد حوالي سنة ٤٦٠ هـ
 وتوفي سنة ٥٤٤ هـ أصله من Shiraz وتولى القضاء بمدينة Tisr . وهو من
 فحول الشعراء قوله هذه الأبيات :

سَفَرْتُ كَيْ تزودُّ الحبَّ مِنْهَا
 نَظْرَةً حِينَ آذَنْتُ بِالْتَّسَائِي
 وَأَرَتْ أَنْهَا مِنَ الْوَجْدِ مِثْلِي
 وَلَهَا لِلْفَرَاقِ مُثْلِّ بَكَائِي

فتابكت ودمها كسيط الـ
طلـ في الجثارة الحمراء
فترى الدمعين في حمرة اللو
ن سواء وما هما بسواء
خدتها يصبح الدموع ودمى
يصبح الخد قانيا بالدماء
خضب الدمع خدتها باحمرار
كاختضاب الرجاج بالصهام
وفي مقدور القارئ أن يرجع إلى كتب الأدب والتاريخ ليرى من
نبغوا في القرن الخامس ، فان الوقوف على آراء أولئك النوابغ من أقرب
السبيل الى فهم روح ذلك المسرر ، أما نحن فلا نريد أن نطيل .

الباب الثاني

في حياة الغزالى

تَهِيد

نريد أن تتكلّم بایجاز عن حياة الغزالى ، لأنّه لا يعنينا منها غير جانب واحد : وهو حاله حين وضع مؤلفاته في الأخلاق ٠

ونحب أن ننبه القارئ إلى أن المصدر الموثوق به إنما هو كتابه «النقذ من الضلال» فاما الكتب التي ترجمته فهي في أكثرها موصومه بالغالطة ، لأن الغزالى كما سترى نزل من أهل عصره ومن بعدهم منزلة حملت أكثر مترجميه على تصوره كرجل لا ينبغي لأحد أن يناله بنقد أو تجريح ، وانهم لواهبون ٠

ولم نستشير الترجم ، والترجم نفسه يتكلّم بسذاجة واحلاص عن تطور حاله العقلية ؟ وهي التي تهمنا في هذا الباب ٠

الفصل الأول

أسرته

ولد الغزالى من أسرة فارسية ، لم يهتم بها التاريخ . وانه ليكفى
أن نعرف شيئاً عن أبيه وأخيه ، لنعرف الروح السائدة في أسرته .

أما أبوه فقد نقل السبكي في طبقات الشافعية « أنه كان فقيراً صالحاً
لا يأكل الا من كسب يده في عمل غزل الصوف ويطوف على المتفقهة
ويجالسهم ، ويتوفر على خدمتهم ، ويجد في الاحسان إليهم ، والنفقة بما
يمكنه عليهم وأنه كان اذا سمع كلامهم بكى وتضرع ، وسأل الله أن
يرزقه ابنا ويجعله فقيها ، وأنه كان يحضر مجالس الوعظ ، فإذا طاب
وقته بكى . وسأل الله أن يرزقه ابنا واعظاً » ص ١٠٢ ج ٤ .

وقد صار ابنا هذا الفقير فقيهين ، واعظين ، فان شئت قلت انها دعوة
أجييت ، وان شئت قلت ان حب هذا الرجل للفقه والوعظ نقل الى ولديه
بطريق الوراثة .

واما أخيه فقد ذكر غير واحد أنه طاف البلاد وخدم الصوفية في
عنوان شبابه ، وصاحب المشايخ ، واختار الخلوة والعزلة ، حتى انفتح له
الكلام على طريقة القوم ، وانه خرج الى العراق ، ومالت اليه القلوب ،
ودخل بغداد وعقد مجلس الوعظ ، فظهر له القبول ، وازدحم الناس على
حضور مجسه ، وأن صاعد بن فارس دون مجسه ببغداد فبلغت ثلاثة
وثمانين . وذكر ابن خلكان انه كان صاحب كرامات واسارات ، وانه كان
من الفقهاء غير أنه مال الى الوعظ فطلب عليه . وينقلون أن قارئاً قرأ يوماً

وأن الذي كفله مع أخيه هو رجل متصرف من أهل الخير بوصية والده ،
لعرفنا كيف تعاونت الظروف على أن تصبح روحه بصبغة صوفية ، وكيف
أثرت هذه الصبغة على آرائه في الأخلاق ٠

الفصل الثاني

مولده ونشأته

ولد الغزالى فى طوس سنة ٤٥٠ هـ وفيها تلقى ما تفقه به فى صباه
على احمد بن محمد الراذكاني ؟ ثم سافر الى جرجان حيث تلقى طرفا من
العدم على الامام ابي نصر الاسماعيلي وعلق عنده التعليقة - كما كانوا
يقولون - ثم رجع الى طوس وأقام بها ثلاث سنين يراجع ما تلقاه فى
جرجان ، ثم قدم نيسابور حيث يدرس امام الحرمين فى المدرسة النظامية
علوم الفقه والمنطق والاصول فلازمه الى أن توفي فى سنة ٤٧٨ هـ . ثم
خرج الى العسكر وهى محللة بالقرب من نيسابور يقيم فيها نظام الملك
- وكان اذ ذاك فى الثامنة والعشرين من عمره - وكان نظام الملك قد سمع
الثناء على عقله وعلمه وأدبه . فأحضره مجلسه ، وكان منتدى العلماء ،
فوجدت الفرصة لينشر الغزالى أثمن ما فى خزاناته من نفائس العلم وكان
من نتيجة ذلك أن برع من كانوا يغشون مجلس نظام الملك وظهر عليهم ،
فولاه ذلك اوزير رببه التدريس فى مدرسة بغداد سنة ٤٨٤ هـ ٠

ولننظر ماذا يقول عن طلبه للعلم من أوائل حياته العلمية الى أن
نيف على الخمسين « ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل
بلغ الشرين إلى الآن ، وقد آتاف السن على الخمسين . اقتحم جلّة هذا
البحر العميق ، وأخوض غماراته خوض الجنسر ، لا خوض الجبان
الخدور ، وأتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأقتحم كل

بين يديه (يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله)
فقال شرفهم بياء الاضافة الى نفسه بقوله يا عبادى ثم أنسد :

وهان على اللوم فى جنب حبها
وقول الأعادي انه لخليع
أصم اذا نوديت باسمى وانتى
اذا قيل لي يا عبدها لسميع

ويروون أنه حكى يوماً في مجلس وعظه ان بعض العشاق كان
مشغولاً بحسن صورة معشوقه ، وكان هذا موافقاً له ، فجاءه يوماً بكراً
وقال له : انظر إلى وجهي فانا اليوم أحسن من كل يوم . فقال ويف
ذلك ؟ قال : نظرت في المرأة فاستحسنت وجهي ، فاردت أن تنظر إلى ،
فقال بعد أن نظرت إلى وجهك قبل لا تصلح لي . وهذه الحكاية تمثل
اتجاه خاطره نحو الفناء .

ومن كلامه : « من كان في الله تلفه ، كان على الله خلفه » وكان
ينصح أخاه أبي حامد الغزالى بقوله :

اذا صحبت الملوك فالبس .
من السوقى اعز ملبس
وادخل اذا ما دخلت أعمى
واخرج اذا ما خرجت أخرس

وكان أستاذتنا في الازهر يقصون علينا أحسن القصص في تأثير هذا
الرجل على أخيه ، ويضربون لنا بورعه الامثال ، وقد حاولت أن أجده سندآ
لم يتتحدثون به فلم أجده ، فعرفت أن أكثر ما عرف عنه إنما هو من صنع
الخيال .

ولو أننا أخذنا إلى ما سلف أن الغزالى كان صغيراً حين مات أبوه ،

ورطة ، وتحفص عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ،
لأميّز بين محق وبطل ، ومتين ومتدع ، لا أغادر باطني إلا وأحب
أن أطلع على بطانته ، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ،
ولا فلسفي إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلما إلا وأجتهد
في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور
على سر صوفيته ، ولا متبعها إلا وأترصد ما يرجع اليه حاصل عبادته ،
ولا زنديقا معطلا إلا وأتجسس وراءه للتتبّع لأسباب جرأته في تعطيله
وزندقه . وقد كان التعطش إلى ادرك حقائق الأمور دأبي وديدني ،
من أول أمري . ورباع عمرى ، غريزة وفطرة من الله تعالى وضعها في
جبلتى ، لا باختياري وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانحرست
عنى العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا .

وهذه الفقرة تدلنا على أمرتين : الأولى أن المذاهب الفلسفية كانت
كثيرة الانتشار لذلك العهد ، وأن أصحابها كانوا يجتهدون في الدفاع عنها ،
ويجدون في اذاعتها بين الناس والثانى أن الغزالى لم يكن من أولئك
الطلبة الأغياء الذين لا يعرفون غير رأى واحد : يعيشون عليه ، ويتوتون
عليه ! بل كان طالب علم بمعنى الكلمة ، يعرف أن واجبه يقضى عليه بان
يعلم حقيقة كل نحلة ، وكه كل مذهب ، ومقصد كل فرقة ، ومرمى كل
عقيدة .

وكان أول ما أثار فيه هذه الرغبة ما رآه من أن صيان النصارى
يشاؤن على التنصر ، وصيانت اليهود على التهود ، وأطفال المسلمين على
الاسلام . وكانت هذه الملاحظة الوجيهة باعثاً له على أن يشك في دينه
حتى يتبيان حقيقته - وإن لم يحدثنا عن ذلك - لأنَّه ما الدليل على أنَّ
النصرانية خير من اليهودية ، أو أنَّ الاسلام خير من النصرانية ، أو أنَّ
اليهودية خير من الاسلام ، كما يتحدث النصارى والمسلمون واليهود :
كل على ما هو بسبيله من تفضيل دينه على غيره من الديانات .

وهنا يصرح الغزالى بأنه انتهى الى أنه لا قيمة للتقليد ، لأنه موجود في كل أمة وفي كل ملة ، وإنما القيمة كلها لليقين الذى لو تحدى لاظهار بطلانه من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا لم يورث ذلك فيه شكاوى كما أنك لو علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، وقال قائل لا ، بل الثلاثة أكبر ، بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعبانا ، ثم قلبها وشاهدت ذلك منه ، لم تنسك بسيبه فى معرفة أن العشرة أكثر من الثلاثة .

الفصل الثالث

حياته الروحية

ولكن الغزالى لم يستمر على تلك النزعة الجريئة التي أقنعته بأن لا قيمة لغير اليقين ، بل اندفع يحدتنا عن شكوك نرجح أنه لم يكن فيها غير صادق ، وأخذ يبين أنه اقتضى أولاً بأن اليقين ينحصر في الحسية والضروريات ، ثم رأى أن الحسن ليس أهلاً للثقة به ، لأنك تتظر إلى الفعل ففراه واقفاً غير متحرك وتحكم بنفي الحركة ، ثم تعرف بعد ساعة بالتجربة والمشاهدة أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك دفعة واحدة ، بل على التدريج ذرة ذرة حتى لم تكن حالة وقوف ، ثم يذكر الغزالى أنه بعد أن بطلت ثقته بالمحسوسات ول وجهه شطر العقليات التي هي من جنس الأوليات كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة ، والنفي والإبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قد ياماً ، موجوداً معدوماً ، واجباً محلاً . ثم يزعم أن المحسوسات قالت له : بم تؤمن أن تكون ثقتك بالعقلية كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقاً بي فجاه حاكم المقل

فكذبني ، ولو لا أن جاء حاكم العقل لكن تستمر على تصديقى ، فلعل وراء ادراك حاكم العقل حاكما آخر اذا تجلى كذب العقل في حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحسن في حكمه ، وعدم تجلى ذلك الادراك لا يدل على استحالته ؟

وهنا يدخل الفزالي في مضائق من شباب الحدس والتخمين فيتوهم أنه لا يبعد أن تكون هناك حالة فوق اليقظة التي هي بلا شك أثبتت من حالة النوم ، وتكون نسبة اليقظة إليها نسبة النوم إلى اليقظة ، ثم يتعدد في تعين هذه الحالة فلا يدرى أهي الموت الذي تكشف به حقائق الأشياء لقوله تعالى : (لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) أم هي حالة الصوفية : اذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي هي لهم اذا غاصوا في أنفسهم ، وغابوا عن أحوالهم وحواسهم ، رأوا أحوالا لا توافق المعقولات ؟؟

ثم يذكر الفزالي أنه عاد الى قبول الضروريات العقلية ، ولكن عودته لم تكن بنظم دليل وترتيب كلام ، بل كانت بنور قدره الله في صدره كما قال .

وتحن لا نازع الفزالي في أن الله نوراً يقذفه في صدور عباده ولكن تسأله : لم لا تكون الأحكام العقلية قبساً من ذلك النور ؟ وتسأله كذلك : ما هي حالة المرء الذي ينتظر هذا النور الذي تراه فوق البرهان والدليل ؟

على أن الذي يعنيها قبل كل شيء هو أن نسجل أن الفزالي وضع موقعاً له في الأخلاق وهو على هذه الحال . ونرجح أن حياته الروحية ابتدأت بعد توليه التدريس في مدرسة بغداد ، ثم لازمته إلى النهاية ، كما سترأه .

الفصل الرابع

فهمه للحياة

ولأجل أن نبين وجهة نظره في أحكامه الأخلاقية ، ينبغي أن نعرف كيف كانت صحته وكيف كان مزاجه ، وكيف كان فهمه للحياة ، حين عني بالتأليف في الأخلاق . فإن معرفة مزاج المؤلف ، وصحته ، وفهمه للحياة الاجتماعية ، من أهم ما ينبغي تقديمها قبل الشروع في درس ماترك المؤلفون .

والسند الصحيح لحياة الغزال هو كتابه (المندى من الضلال) فلندعه يصف لنا حياته في عزلته التي دامت نحو عشر سنين ، والتي وضع في أ nanoparticularsها كتاب الأحياء وهو أهم ما كتب في الأخلاق .

قال بعد كلام طويل : « ثم إنني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقهم إنما يتم بعلم وعمل ، وكان حاصل عليهم قطع عقبات النفس والتزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله ، وكان العلم أيسر على من العمل فابتداة بتحصيل علمهم ، من مطالعة كتبهم ، مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي ، وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المؤثرة عن الجبىد والشبل وأبي بزيد البسطامي وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، وظهر لي أن أحسن خواصهم لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات . فكم من الفرق بين أن يعلم المرء حد الصحة ،

وَهُدِ الشَّعْبِ ، وَأَسْبَابِهِ ، وَشَرْوَطَهُمَا ، وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا وَشَبَعًا ٠
وَبَيْنَ أَنْ يَعْرُفَ حَدُ السُّكَرِ ، وَأَنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ حَالٍ تَحْصُلُ مِنْ اسْتِيلَادِ أَبْخَرَةٍ
تَتَصَاعِدُ مِنْ الْمَعْدَةِ عَلَى مَعَادِنِ الْفَكْرِ ، وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ سَكْرَانِ ، بَلْ سَكْرَانِ
لَا يَعْرُفُ حَدُ السُّكَرِ وَهُوَ سَكْرَانِ مَا مَعَهُ مِنْ عِلْمٍ شَيْءٍ ، وَالصَّاحِيْ يَعْرُفُ
حَدُ السُّكَرِ وَأَرْكَانَهُ وَمَا مَعَهُ مِنْ السُّكَرِ ، وَالطَّيِّبُ فِي حَالَةِ الْمَرْضِ يَعْرُفُ
حَدُ الصَّحَّةِ وَأَسْبَابِهَا وَأَدْوِيَتِهَا وَهُوَ فَاقِدٌ لِلصَّحَّةِ ، فَكَذَلِكَ فَرْقٌ بَيْنَ اَنْ
تَعْرُفَ حَقْيَةَ الزَّهْدِ وَشَرْوَطِهِ وَأَسْبَابِهِ وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ حَالَكَ الزَّهْدِ وَعَزْوَفَ
النَّفْسِ عَنِ الدِّينِ ٠

« فَلَمَّا يَقِنَا أَنَّهُمْ أَرْبَابُ أَحْوَالِ ، لَا أَصْحَابٌ أَقْوَالِ ، وَأَنْ مَا يَسِّرُ
نَحْصِيلَهُ بِطَرِيقِ الْعِلْمِ فَقَدْ حَصَلَتْهُ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَا لَا سَيِّلَ إِلَيْهِ بِالسَّمَاعِ
وَالْعِلْمِ ، بَلْ بِالذِّوقِ وَالسُّلُوكِ ، وَكَنَّ قَدْ حَصَلَ مَعِي مِنَ الْعِلْمَاتِ الَّتِي
مَارَسْتُهَا ، وَالْمَسَالِكَ الَّتِي سَلَكْتُهَا ، فِي التَّفَتِيشِ عَنْ صَنْفِي الْعِلْمَوْنِ الْشَّرِعِيَّةِ
وَالْعُقْلِيَّةِ اِيمَانٌ يَقِنِي بِاللهِ تَعَالَى وَبِالنَّبِيِّ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ : فَهَذِهِ الْأَصْوَلُ
الثَّلَاثَةُ مِنَ الْإِيمَانِ كَانَتْ قَدْ رَسَخَتْ فِي نَفْسِي ، لَا بَدْلٌ لِمَعِينِ مَحْرُورِ ، بَلْ
بِأَسْبَابِ وَقَرَائِنِ وَتِجَارِيبِ لَا تَدْخُلُ تَحْتَ الْحَصْرِ تَفاصِيلُهَا . وَكَانَ قَدْ ظَهَرَ
عَنِي أَنَّهُ لَامْطَعْمَ فِي سَعَادَةِ الْآخِرَةِ إِلَّا بِالتَّقْوِيَّةِ وَكَفِ النَّفْسِ عَنِ الْهُوَى ،
وَأَنَّ رَأْسَ ذَلِكَ كُلِّهِ قَطْعٌ عَلَاقَةِ الْقَلْبِ عَنِ الدِّينِ بِالتِّجَافِيِّ عَنْ دَارِ الْغَرْوَرِ ،
وَالإِنْتَابَةِ إِلَى دَارِ الْخَلُودِ ، وَالْإِقْبَالِ بِكُنْهِ الْهَمَةِ عَلَى اللهِ تَعَالَى ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا
يَتَمَّ إِلَّا بِالْأَعْرَاضِ عَنِ الْجَاهِ وَالْمَالِ وَالْهَرَبِ مِنَ الشَّوَاغِلِ وَالْمَوَاقِعِ ، ثُمَّ
لَا حَظَتْ أَحْوَالِي فَإِذَا أَنَا مُنْفَمِسٌ فِي الْمَلَاقِ وَقَدْ أَحْدَدْتُ بِي مِنْ جُمِيعِ
الْجَوَانِبِ ، وَلَا حَظَتْ أَعْمَالِي ، وَأَحْسَنْتُهَا التَّدْرِيسَ وَالْتَّعْلِيمَ : فَإِذَا أَنَا فِيهَا
مُقْبِلٌ عَلَى عِلْمٍ غَيْرِ مُهِمٍ وَلَا نَافِعٍ فِي طَرِيقِ الْآخِرَةِ ، ثُمَّ تَفَكَّرْتُ فِي نِيَّتِي
فِي التَّدْرِيسِ فَإِذَا هِيَ غَيْرُ خَالِصَةٍ لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَى ، بَلْ بِاعْثَانِهَا وَمُحْرَكِهَا طَلْبُ
الْجَاهِ وَالْتَّشَارِ الصَّيْتِ ، فَتَبَيَّنَتْ أَنِّي عَلَى شَفَاعَ جَرْفِ هَارِ ، وَأَنِّي قَدْ أَشَرَّفْتُ
عَلَى النَّارِ ، إِنْ لَمْ أَشْتَغِلْ بِتَلَافِي الْأَحْوَالِ ، فَلَمْ أَزِلْ أَنْفَكِرْ فِيهِ مَدَةً وَأَنَا بَعْدُ

على مقام الاختيار : أصم العزم على الخروج من بغداد ومقارفة تلك الاجوال يوماً واحداً العزم يوماً ، وأقدم فيه رجلاً وأآخر عنه أخرى ، لاتصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة الا ويحمل عليها جند الشهوة جملة فيقرها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلامتها الى المقام ومنادي اليمان ينادي : الرحيل ! الرحيل ! فلم يبق من العمر الا القليل . وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رباء وتخيل ، فان لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ، وان لم تقطع الآن هذى العلائق فمتى تقطع !!

« وبعد ذلك تتبع الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار ، ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة ، واياك أن تطاوعلها فانها سريعة الزوال ، فان أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الحالى عن التكدير والتغيير ، والأمر المسلم الصافى عن منازعة الخصم ، ربما لا تيسر لك المعاودة . فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودعوى الآخرة قريباً من ستة أشهر . أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعين ، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار الى الاضطرار ، اذ قفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطبياً لقلوب المخالفين الى ، فكان لا ينطلق لسانى بكلمة ولا أستطيعبها البة ، ثم أورثت هذه العقلة فى اللسان حزناً فى القلب بطلت معه قوة الهضم وقرم الطعام والشراب ، فكان لا ينساغ لى شربة ، ولا تنهض لى لقمة ، وتهدى ذلك الى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج ، وقالوا : هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى الى المزاج ، فلا سيل الى العلاج » .

وانما نقلت هذه القطعة الطويلة من كتابه « المنقد من الضلال » لأن الغزالى عندي صادق فيما يحدث عن نفسه ، وكلامه خير للباحث من استشارة الترجم المختلفة ، ولم نستشير الترجم ، والمترجم نفسه يحدثنا عن تطور حالته العقلية ؟

وهل أدل على نون نفسه في ذلك الحين من قوله بعد ما سلف
(ثم لما أحسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختيارى ، التسجات الى الله تعالى
التجاء المصطر الذى لا حيلة له ، فأجبانى الذى يجيب المصطر اذا دعاه ،
وسهل على قلبي الاعراض عن الجحاد ، والمال ، والأهل والولد
والاصحاب) (!)

ويجب أن تتبه لهذه الكلمة ، فهى كافية في تصوير نفسه ، وينبئنا
أن نعرف أنه نص فيما بعد على أنه دام على هذه الحال عشر سنين ، وقد
كتب كتبه الأخلاقية وهو في هذه الحال ، ولا تسأل كيف ترك بغداد ،
ولا كيف عاد إلى أهله ، فقد رأيت كيف اعتلت صحته ، وتغير مزاجه ،
وكيف سهل على قلبه ترك أولاده ، وهو الذي تمدح بأنه كان يقصد منارة
مسجد دمشق طوال النهار ويغلق بابها على نفسه ، وكان يرحل إلى بيت
المقدس فيدخل الصخرة كل يوم ويغلق بابها على نفسه ! !

على أنه بعد أن عاد إلى أهله (آثر العزلة أيضا حرضا على الخلوة ،
وتصفية القلب للذكر) كما قال .

وأنا لا أهتم بما ذكر من أنه انكشفت له (في أثناء هذه الخلوات
أمور لا يمكن احصاؤها ، واستقصاؤها) وإنما يهمنى أن أثبت أنه كتب
ما كتب في الأخلاق وهو على هذه الحال .

ويتلخص ما سلف في ثلاثة أمور :

الأول - ما ورثه عن أبيه من نزعته الصوفية .

الثاني - ما استفاده من وصيّه تأييدها لتلك النزعة .

الثالث - عشر سنين قضتها في العزلة ، لها ما لها من الأثر في تكوين
نفسه ، وتكيف مزاجه ، والتأثير في كتبه .

اذن ليلعلم القارئ منذ الآن ان النزعة الفالية على فهمه للأخلاق إنما
هي نزعة الصوفية ، وسيرى ذلك مفصلا في عدة مواطن من هذا الكتاب .

الفصل الخامس

وفاته ورثاؤه

ترك الفزالي بغداد ، وقصد بيت الحرام ، وأدى فريضة الحج في سنة ٤٨٩ هـ ومكث فيها أياماً ، ثم توجه إلى بيت المقدس فجاور به سنة ٤٨٨ هـ بعد أن أتى أخاه عنه في المدرسة النظامية ، ثم دخل دمشق مدة ، ثم عاد إلى دمشق واعتكف في المذارة الغربية من الجامع ؟ ثم ذهب إلى الإسكندرية وأقام بها مدة ، ويقال أنه كان ينوي الرحلة إلى السلطان يوسف بن تاشفين ، لما بلغه من عدله ، ولكنه لما سمع بموته عاد إلى التسجول في الأفاق لزيارة المشاهد والترب والمساجد ، كما يقول مترجموه ، ثم رجع إلى بغداد وعقد بها مجلس الوعظ ، وتكلم بسان أهل الحقيقة وحدث بكتاب الأحياء ثم عذ إلى خراسان ودرس بالمدرسة النظامية في نيسابور ، ثم رجع إلى طوس واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاه للصوفية ، ووزع أوقاته على وظائف من حتم القرآن ومحالسة أرباب القلوب ، والتدريس لطلبة العلم ، وإدامه الصلاة والصيام ، إلى أن توفي رحمة الله بطوس يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ هـ قال السبكي : ومشهد يزار بمقبرة الطبران .

قال الزبيدي : ووُجدت في كتاب بهجة الناظرين وأنس المارفين للعارف بالله محمد بن عبد العظيم الزموري ما نصه : وما حدتنا به من أدركتنا من المشيخة أن الإمام أبي حامد الفزالي لما حضرته الوفاة أوصى رجالاً من أهل الفضل والدين - كان يخدمه - أن يحرف قبره في موضع بيته ، ويستوصي أهل القرى التي كانت قريبة إلى موضعه ذلك بحضور

جنازته وأن لا يباشره أحد حتى يصلى ثلاثة نفر من الفلاة لا يعرفون بلاد العراق ، يفسله اثنان منهما ويتقدم الثالث للصلاة عليه بغير أمر ولا مشورة .. فلما توفي فعل الخادم كل ما أمره به ، وحضر الناس ، فلما اجتمعوا لحضور جنازته رأوا ثلاثة رجال خرجنوا من الفلاة ، فعمد اثنان منهم إلى غسله ، واحتفى الثالث ولم يظهر ، فلما غسل وأدرج في أكفانه ، وحملت جنازته ، ووضعت على شفير قبره ، ظهر الثالث ملتفاً في كسائه ، وفي جابه علم أسود ، معه ما بعثه صوف ، وصلى عليه وصلى الناس بصلاته ، ثم سلم وانصرف ، وتوارى عن الناس ، وكان بعض الفضلاء من أهل العراق ممن حضر المجازة ميزة بصفاته ولم يعرفه ، إلى أن سمع بعضهم بالليل هاتفاً يقول لهم : إن ذلك الرجل الذي صلى بالناس هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن اسحاق الشريفي جاء من المغرب الأقصى من عين القطر ، وأن اللذين غسلاه هما أصحابه ٠٠٠ الخ »

وهذه بالطبع خرافية لفقهاء المتصوفة بعد موت الغزالى ، وهى فى ذاتها تدل على أن الغزالى لم يتمت الا بعد أن اتفق العامة على صلاحه ، فقد رمى بالزنقة فى جزء من حياته ، ثم عاد فى نظر العامة من المكاشفين ، حتى ليذكرون أنه أنشأ عند موته هذه القصيدة :

قل لأخوان رأوني ميتا فبكوني ورثوني حزنا
 أعلى النائب منا حزنكم أم على الحاضر معكم هننا
 أتخالونى بأني ميتكم ليس ذاك البيت والله أنا
 أنا فى الصدر وهذا بدنى كان جسمى وقيصى زمتا

وهي طويلة تجدها ضمن مجموعة مخطوطة نمرة ١٢١ تصوّف بدار الكتب المصرية ، وهي كذلك مما لفظه أصحابه بعد موته ، وما أكثر مازور باسمه من الآثار !

ونقل ابن الجوزى فى « كتاب الثبات عند الممات » عن أحمد أخي

الغزال أَنَّهُ قَالَ : « لَمَا كَانَ يَوْمُ الْاثْنَيْنِ وَقَتَ الصَّبْعَ تَوْضِأً أَخِي أَبُو حَامِدٍ
وَصَلَى ، وَقَالَ عَلَىٰ بِالْكَفْنِ ، فَأَخْذَهُ وَقَبَلَهُ وَوَضَعَهُ عَلَى عَيْنِيهِ ، وَقَالَ : سَمِعْتَ
وَطَاعَةً لِلَّدْخُولِ عَلَى الْمَلْكِ ، ثُمَّ مَدَ رِجْلَيْهِ وَاسْتَقْبَلَ الْقَبْلَةَ ، وَمَاتَ قَبْلَ
الْإِسْفَارِ » .

وَسَبِّحَانَ مَنْ تَفَرَّدَ بِالْبَقَاءِ .

وَقَدْ رَثَاهُ الْأَبِيُورْدِيُّ بِقَوْلِهِ :

بَكَىٰ عَلَىٰ حِجَّةِ الْإِسْلَامِ حِينَ ثُوِيَ
فَمَا لَمْنَ يَمْتَرِي فِي اللَّهِ عَبْرَتْهُ
نَلَكَ الرَّذِيلَةَ تَسْتَوِيْهِ قَوْيِ جَلْدِي
فَمَا لَهُ خَلَةٌ فِي الزَّهْدِ مُنْكَرَةٌ
مُضِيٌّ وَأَعْظَمُ مُفْقُودٍ فَجَمِتْ بِهِ
وَقَالَ فِي رَثَائِهِ الْقَاضِي عَبْدُ الْمَلِكِ الْمَعَافِيُّ :

بَكَيْتَ بِعَيْنَيِّيْ ثَاكِلَ الْقَلْبَ وَالسَّهِ فَتَىٰ لَمْ يَوَالِهِ
وَسَيِّئَ دَمَعًا طَالَّا قَدْ جَبَسْتَهُ وَقَلْتَ لِجَفْنِيِّ وَاللهِ ثُمَّ وَالْهِ

وَنَحْنُ - فِي جَمْلَةِ مَنْ اتَّفَعَ بِمَؤْلِفَاتِ الْغَزَالِيِّ - نَسَأَ اللَّهَ أَنْ يَرْحِمَهُ
رَحْمَةً وَاسِعَةً ، وَأَنْ يَجْزِيَهُ أَحْسَنَ الْجَزَاءِ عَلَىٰ مَا قَدِمَ فِي سَبِيلِ الْعِلْمِ
وَالَّذِينَ مِنْ صَادِقِ الْجَهُودِ ، وَأَنْ يَتَجَلَّوْزَ عَنْ سِيَّاتِهِ بِمِنْهُ وَكَرْمِهِ أَنَّهُ نَمِ
الْمُوْلَى وَنَعْمَ النَّصِيرُ ، وَهُوَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَمُوفٌ رَحِيمٌ .

الباب الثالث

في المذاهب التي استمدت منها الفرزالي

تمهيد

يذكر مؤرخو الفلسفة أن سocrates هو أول من بدأ بالتفكير في الإنسان وما يتعلّق به ، وأنه أول من قال : اعْرَفْ نَفْسَكَ بِنَفْسِكِ . ولعلهم يريدون أنه أول من بحث في الإنسان بحثاً منظماً من حيث واجبه نحو نفسه ، ونحو شركائه في الاجتماع ، على أن يكون ذلك علماً ذاتياً قواعده وأصول .

أما البحث في أن بعض الأفعال شر ، وبعضها خير ، وشيء منها نافع ، وشيء منها حscar ، فهو قديم سبق سocrates بأجيال . فالآمة العربية التي ورث الفرزالي وورث أستاذته آدابها القديمة كانت تقول الشعر والشعر في تهذيب الأخلاق ، فمن الواضح أن قول بعض الأعراب في وصية ابنه « المنية ولا الدنيا » فيه ضرب من التهذيب الفردي ، وقول أحدهم في حض الجيش على صدق اللقاء « الطعن في النجور أكرم من الطعن في الظهور » فيه نوع من تقويم المحاربين ، لأن الأخلاق لا تعرف موطنها بعينه ، وإنما تتبع الرجل في كل حال .

وكذلك قول أكتم بن صيفي : « العقل راقد ، والهوى يقطن . والشهوات مطلقة ، والحزن معقول . والمستبد برأيه موقف على مدارض الزلل . أصبح عند رأس الأمر أحب إلى من أن أصبح عند ذنبه . لم يهلك من مالك ما وعظتك . فإذا الرأى في الحرب ، أجدى من الطعن والضرب ».

التقدم قبل التندم ٠ ويل لعالم أمر من جاهله ٠ يتشابه الأمر اذا أقبل ،
فإذا أدبَر عرفه الكيس والأحمق » ٠ في هذه الكلمات كثير من الأداب
الاجتماعية ، وهي جزء من علم الأخلاق ٠

ونجد شعراء الجاهلية والاسلام ضربوا بسهم في معرفة الطبائع البشرية ، فنرى في شعرهم شيئاً عن أثر الوراثة ، وأثر الرفقة ، وأثر الجوار ، إلى غير ذلك من المعانى التي بسطها الفلاسفة حين تكلموا في الأخلاق . فقول ذي الاصبع العدواني :

دل امریء صائر يوماً لشيمته وان تخلق أخلاقاً الى حن

يماثل بعض المذاهب الأخلاقية.

وَوْلَ مُسْكِنِ الدَّارِمِيِّ :

وَفِيَانٌ صَدْقٌ لَسْتُ مَطْلُعَ بَعْضِهِمْ
عَلَى سَرِّ بَعْضٍ غَيْرُ أَنِّي جَمَاعُهَا
لَدْلُ امْرِئٍ شَعْبٌ مِنَ الْقَلْبِ فَارَغَ
وَمَوْضِعُ نَجْوَى لَا يَرَاهُ اطْلَاعُهَا
يَطْلُونَ شَتَىٰ فِي الْبَلَادِ وَسَرَّهُمْ
إِلَى صَخْرَةٍ أَعْيَا الرِّجَالُ اِنْصَادُهَا
يَمَاثِلُ مَا يَضْعُهُ الْفَلَاسِفَةُ فِي الْأَدَابِ الْفُرْدَيَّةِ ۹

ويمكنا أن نعد المدح والهجاء من علم الأخلاق ، لأن المدح في الغالب تصوير للفضائل ، والذم تمثل للرذائل ، ووصف الفضائل والرذائل مما يعني به علم الأخلاق .

قول قعبي بن خضراء:

ان يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا
صم اذا سمعوا خيرا ذكرت به
جهلا علينا وجبنا عن عدوهم

هذا هجاء ، ولكن فيه تصوير بعض الصفات الذميمة التي يعني
بحربها علم الأخلاق .

وقول حسان بن ثابت :

أحسون عرضي بمالى لا أدنسه
أحتال لمال ان أودى فأجمعه
هذا فخر ، ولكن فيه تصوير لفضيلة من كرائم الفضائل الإنسانية .
ولا تنس الحكم التي فاضت بها النفوس العربية ، فأى كلام أكرم
وأمتع من قول وابعة الأسدى :

أحب الفتى ينفى الفواحش سمعه
سليم دواعي الصدر لا باسطا أذى
إذا شئت أن تدعى كريما مكرما
إذا ما أتت من صاحب لك زلة
غنى النفس ما يكفيك من سد خلة
والقرآن ؟

في القرآن تحليل دقيق لنزعات النفوس ، وخلجان القلوب ، وفيه
حل لأكثر المشاكل الأخلاقية التي شقى في حلها الحكام ، وفيه أدب
الرجل مع ربه ، ومع نفسه ، ومع زوجه ، ومع آباءه ، ومع أبنائه ، ومع
أخوانه ، ومع أصدقائه ، ومع أعدائه ، ويندر أن تجد مشكلة خلقية لم
يعن بحلها القرآن . وفي الحديث توضيح وتسميم لما في الكتاب العزيز ،
ويكفي أن تنظر فيما يخص الأدب من كتب السنة لتعرف صدق ما نقول .

وبعد ما جاء في خطب العرب وشعرها ، وما جاء في القرآن
والحديث ، وضعت كتب خاصة للسير والسلوك ، من أقدمها كليلة ودمنة ،
الذى ترجمة ابن المفع عن الفارسية ، وفناه بكتابيه الأدب الكبير والأدب

الصغير ، ووضعت أبواب مطولة في كتب الفقه عن آداب الزواج ، ومعاملة الرقيق ، ومعاملة المحاربين ، وما إلى ذلك مما يهتم به الناس في الحرب والسلم ، ويبني عليه الاجتماع .

ثم كانت المقامات والخطب المنبرية ، التي أودعها الأدباء والمصلحون
آرائهم في تهذيب النفوس ، وتلطيف الطياع .

كل ما قدمته كان ينبعاً مانياً ينهل منه الفزالي ويعلم وهو يضع مؤلفاته في الأخلاق ، وقد تبينت أحکامه ، فرأيته لا يضم حكماً إلا وقد اقتبسه من حكمة ، أو مثل ، أو بيت من الشعر ، أو آية ، أو حديث ، أو أثر ، إلى غير ذلك مما قرأه بنفسه أو سمعه من أساتذته ، ولقد حاولت أن أرجع كل حكم لأصله ، ولكنني رأيت في ذلك منافاة للايجاز ، وهو شرط هذا الكتاب .

على أن الفزالي مع ترسيمه لما سبقه من الآثار الأدبية لم يخل من حرية الفكر، والميل الى التجديد، فقد خرج على الأشعرى في بعض آرائه، وخالف الشافعية في بعض ما يقولون به، ولكنه على كل حال يسأير التقديرين، ولا يخالفهما - حين يخالفهما - الا برفق واحتياط، كما يفعل الحذر المليوب .

الفصل الأول

المصادر الفلسفية

درس الغزالى الفلسفه ، ولكنه درسها بنية سيئه ، درسها ليسبر غورها ، ثم ينشر مساوتها فى العالمين !

وقد درسها بنفسه ، ولم يتلمند لأستاذ ، فكان ذلك داعية لهذا

البغض العميق ، الذى جعله ينسى الفلسفه ، ولم يذكرهم الا بسوء فى كتبه الأخلاقية ، ولو أنه تلقاها على أستاذ كما تلقى الفقه ، والتصوف ، والتوحيد ، لرجونا أن تخف حدته كلما وجد الفرصة سانحة ليسلق الفلسفه بلسان حديد^(١) .

ذلك بأن الأستاذة يتصررون لعلومهم ، ويؤثرون في تلامذتهم انرا غير قليل ، وأثر المتصوفة من اساتذة الغزالى واضح ذل الواضح فيما صبغت به آراؤه الدينية والأخلاقية .

ولكن هل نجا الغزالى من محاكاة الفلسفه حين كتب في الأخلاق؟ كلا ! وان نظرة في تقسيم الفضائل ، وطرائق كسبها ، وتنويع الرذائل ، ووسائل الخلاص منها ، لترىنا مبلغ محاكاته للفلاسفة الذين كتبوا في الاخلاق ، والأداب الاجتماعية .

وانك لتضحك بمثل فيك حين تراه يقول في كتابه « المنقد من الصال » :

« وأما السياسات فجميع كلامهم فيها يرجع الى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية السلطانية ، وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ، ومن الحكم المأمور عن سلف الأولياء . وأما الخلقيه فجميع كلامهم فيها يرجع الى حصر صفات النفس وأخلاقها ، وذكر أجنباسها وأنواعها ، وكيفية معالجتها ومجahدتها ، وإنما أخذوها من كلام الصوفية ، وهم المتألهون المثابرون على ذكر الله ، وعلى مخالفه الأهواء ، وسلوك الطريق الى الله بالاعراض عن ملاذ الدنيا ، وقد انكشف لهم في مجاهدتهم من أخلاق النفس وعيوبها وآفات أعمالها ما صرحو به ، فأخذه الفلسفه ومزجوه بكلامهم ، توسلًا بالتجمل به الى ترويج باطلهم » ص ١٦ .

وقد لحظ الغزالى أن هذه الدعوى العريضة قد تقبل اذا وجهت الى فلاسفة الاسلام ، فقد قرموا القرآن ، وعرفوا منه أشياء من حكم الانبياء

(١) انظر من ٩ و ١٠ من المنشـ.

والمرسلين ، وقرأوا للصوفية كثيرا من الحكم والأمثال ، ولكن هذه الدعوى قد تظهر باطلة اذا وجئت الى فلاسفة اليونان ، فانظر ماذا يقول في ذلك :

« ولقد كان في عصرهم ، بل في كل عصر ، جماعة من المتألهين لا يخلو الله تعالى العالم منهم ، فانهم اوناد الارض ، ببر لاتهم تنزل الرحمة الى أهل الأرض » ص ١٧

فعلى هذا لا فضل لسقراط ، ولا أفلاطون ، ولا ارسططاليس فيما وفقو اليه ، حين كتبوا في الأخلاق ، وإنما الفضل لا ولتك « الاوتاد » الذين شرفت بهم بلاد اليونان منذ الاف السنين ولا ادرى ماذا يفعل الغزالي اذا أقسم الاغارقة بالله جهداً ايدهم أنه لم يكن لهم الله واحد وإنما كان لهم ألف الله والله ، بل كان من المتهيم من يحضر على اللدة ، ويتمهد للفسق السهل ! !

انه لا شك في ان الغزالي استقى من المتابع الفلسفية ، في كل ماكتب عن الاخلاق ، وغاية الأمر أن وجهة الدين ، ووجهة التصوف ، غلبتا عليه ، وصورتا آراءه بصورة دينية ، روحية ، تبدو للنظرية الاولى و كانوا لا تمت للفلسفة بسبب ، ولا تأخذ منها بنصيب ، وهي في الواقع متاثرة بما للفلسفة من أصول .

وانه لا حرج علينا في أن نقر ان الغزالي أصل الفلسفة نار العقول فقد كانت سبب حصاده ، وذبوع صيته ، ثم أطمع فيها العامة ، وممكن الجهال من تصغير الحكماء ، وليس تكفيه لابن سينا والفارابي بالأمر الهين ، وأن فعلته تلك لتحسب بذرة هذه التقليد المقوته التي يعانيها المفكرون الاحرار ، في جميع الأقطار الاسلامية ، منذ حين !

٣ - اخوان الصفا

جمعية شبه سرية اجتمعت في البصرة في منتصف القرن الرابع

وانما كانت سرية لكره عامة الناس للفلسفة اذ ذاك . وكان غرض هذه الجمعية نشر المعرف التي يرونها صحيحة في جميع الأقطار الإسلامية ، فقد كانوا يرون : « ان الشريعة قد دنس بالجهالات ، واحتللت بالضلالات ، ولا سيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعقادية ، والمصلحة الاجتهدية » وقد الفوا احدى وخمسين رسالة ضمنها خلاصة العلوم المعروفة لعهدهم — وقالوا في أول هذه الرسائل : « ان الحكماء وال فلاسفة الذين كانوا قبل الاسلام تكلموا في عدم النفس ، ولنthem لما طلوا الخطب فيها ، ونقلها من لغة الى لغة من لم يكن قد فهم معاناتها ، حرفاها وغيّرها ، حتى اتفق على الناظر فيها فهم معاناتها . ونحن قد اخذنا لب معاناتها ، واصنعوا اغراضهم فيها ، واوردناها باوجز ما يمكن من الالفاظ في احدى وخمسين رسالة » .

وقد نقل الأستاذ أحمد أمين عن مكتونالد أن بعض الباحثين ظن أن هذه الجمعية جمعية باطنية ، لما بين ما يجيء فيها أحينا وبين تعاليم الباطنية من التطابق ، وقد عثر المغول عند فتحهم قلعه الموت على ثير من نسخ رسائل اخوان الصفا ^(١) .

وذكر الأستاذ الكوونت دي جلارزا في محاضراته بالجامعة المصرية أن أحد اخوان الصفا وهو أبو حيان التوحيدى المتوفى نحو سنة ٣٨٩ هـ كان يقول « ان الشريعة لم تكن كاملة ، بل فيها غلطات و يجب اصلاحها بواسطة الفلسفة » .

ورسائل اخوان الصفا تحتاج إلى درس طويل لمعرفة ما فيها من الأغراض الفلسفية ، والدينية ، والسياسية . ويكتفى أن يعرف القارئ أن الفرزالي اطلع على هذه الرسائل ، واستفاد منها ، وان صب على أصحابها جام سخطه وغضبه ، لأن استفادة المرء من كتاب لا تتوقف على حبه

(١) مبادىء الفلسفة ص ١٢٥ .

لصاحبه ، بل صرخ الغزالى بأنه أقبل فى أول حياته العلمية على درس ما عرف لعهده من المذاهب والأراء .

الفارابي

هو أبو نصر محمد بن طرخان . وهو فارسي من بلدة تسمى فاراب من بلاد خراسان - جاء إلى بغداد . وأخذ علم المطريق عن أبي بشر متى ابن يونان التصرياني الذي توفي سنة ٣٢٨ هـ ثم انتقل إلى مدينة حران وتعلم بها الفلسفة ، وعاد بعد ذلك إلى بغداد ، ثم رحل إلى دمشق وأقام بها أيام سيف الدولة بن حمدان .

قال سلطان (بات) محمد في محاضراته بالجامعة المصرية : « وهو في مقدمة الفلاسفة المسلمين الذين طالعوا كتب أفلاطون وأرسطو ووفروا على أغراضها ، واحسنوا فهمها ، يذل لذلك ما حداه الشيخ الرئيس من أنه عرف غواصين الفلسفة ، ووقف على مقاصدتها ، واستظهر القسم الالهي منها ولم يقف على حقيقة أغراضه ومباحته ، فسئلته نفسه . وكان ذات يوم لدى الوراقين ومن عليه دلال كتب ، وبيده مجلد ، وقال له : اشترا هذا . فلما علم أنه في الفلسفة الالهية ، قال لا حاجة لي به . فقال له الدلال : إن صاحبه يحتاج إلى بيده ، ويطلب به ثمناً قليلاً . وأبيعكه ثلاثة دراهم . قال فاختذته ووجده تأليف أبي نصر الفارابي ، فلما فرأته وقفت منه على أغراض ذلك العلم وفهمته بعد أن مللت الاشتغال به ويشتت من فهم أغراضه . »

وكان معشوق الفارابي من فلاسفة اليونان أرسطو ، حتى قيل انه وجد كتاب النفس لارسطو وعليه بخط الفارابي : « انى فرات هذا الكتاب مائة مرة » ولکثرة شرحه لآراء الفلسفة لقب بالمعلم الثاني كما لقب أرسطو بالمعلم الأول . وسئل : أنت أعلم أم أرسطو ؟ فقال : لو أدركته

لَكُنْت أَكْبَر تَلَامِيذِه ، وَتَوْفَى الْفَارَابِي رَحْمَةُ اللهِ سَنَةُ ٣٣٩ هـ وَهُوَ يَنْاهِزُ
الْسَّمَاوَاتِ •

وَلِلْفَارَابِي آثارٌ كَثِيرَةٌ عَدَا عَلَيْهَا الْفَنَاءُ ؛ وَمِنْ مَوْلَفَتِهِ الْبَافِيَهُ « ارَاء
أَهْلِ الْمَدِينَةِ الْعَاصِلَةِ » وَهُوَ يَحَاكِي فِيهِ جَمِيعَهُ إِفْلَاطُونَ •

وَقَدْ اتَّفَعَ الغَزَالِي بِمَوْلَفَاتِهِ ، وَانْ حَلَمَ بِلُفْرِهِ مَجَازِفَهُ وَبِلَا دَلِيلٍ •

ابن سينا

هُوَ الشِّيخُ الرَّئِيسُ أَبُو عَلَى الْحَسِينِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ سِينَا اَشْهَرُ فَلَاسِفَهِ
الْمُسْلِمِينَ ، تَوْفَى سَنَةُ ٤٢٨ هـ وَسَنَةُ ٥٨ سَنَةٌ • وَكَانَ مِنْ اَمْهُرِ الْاَطْبُءِ
وَتَابِهِ « الْقَانُونُ » كَانَ الْعَمَدةُ فِي الْعِلْمِ فِي الْقَرْوَنِ الْوَسْطَى عِنْدَ التَّسْرِيفَيْنِ
وَالغَرَبَيْنِ • وَفَدَ عَنِ الْعَرَبِ بِبَسْطِ اِرَائِهِ الْفَلَسِفِيَّةِ ، وَبِشَرْحِ مَا دُونَ فِي
الاخْلَاقِ ، وَطَبَاعَ النُّفُوسِ •

وَلَا رِيبٌ فِي أَنَّ الغَزَالِي اتَّفَعَ بِمَصْنَفَاتِهِ ، وَانْ جَازَاهُ جَزَاءُ سِنَمَارِ
حِيثُ حُكِمَ بِلُفْرِهِ ، مِجَارَاةً لِلْعَامَةِ ، وَطَاعَةً لِلْهَوَى • « وَسِيَّلُمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا
إِلَى مِنْقَلِبٍ يَنْقَلِبُونَ » •

ابن مسکویه

وَمِنْ الْفَلَاسِفَةِ الَّذِينَ اتَّفَعُوا بِآرَائِهِمْ فِي الْاخْلَاقِ اَبُو مَسْكُوِيَّهُ :
أَبُو عَلَى أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمُتَوْفِي سَنَةُ ٤٢١ هـ • وَهُوَ مِنْ فَلَاسِفَةِ الْمُسْلِمِينَ
وَلَهُ عَدَةُ كِتَابَاتٍ فِي الْاخْلَاقِ ، اَشْهَرُهَا كِتَابُهُ الْمُسْمَى : « تَهْذِيبُ الْاخْلَاقِ
وَتَطْهِيرُ الْاَعْرَاقِ » ، وَهُوَ يَقُولُ فِي صَفْحَةٍ ١٨٥ : « وَيَقُولُ فِي مُقْدِمَتِهِ :
(غَرَضُنَا فِي هَذَا الْكِتَابِ أَنْ نَحْصُلَ لِنَفْسِنَا خَلْقًا تَصْدُرُ بِهِ عَنِ الْأَفْعَالِ كُلُّهَا
جَمِيلَةٌ ، وَتَكُونُ مَعَ ذَلِكَ سَهْلَةٌ عَلَيْنَا لَا كُلْفَةَ فِيهَا وَلَا مَشْقَةٌ ، وَيَكُونُ ذَلِكُ
بِصَنَاعَةٍ وَتَرْتِيبٍ تَعْلِيمِيٍّ ، وَالطَّرِيقُ فِي ذَلِكَ أَنْ نَعْرِفَ أَوْلًا نَفْسَنَا مَا هِيَ »

واى شئ هى ، ولاى شئ اوجدت فىـا ، وما فواها وملكتها التى اذا استعملناها على ما يبغى بلغنا بها هذه الرتبة العلية ٠٠٠ (الخ) ٠

وابن مسلویه هذا ينقل عن الفلسفة اليونانية بطریقه صریچه ، لا لف فيها ولا مداورة ، فهو من مجده فلسفة اليونان مع الحرص بعدر ما يمكن على موافقة الشريعة الاسلامية ، وكتابه الذى نوهنا عنه ذو اثر كبير في تنوين الغزالى من الوجه العقليه وقد هممت بوضع مقارنه بين كتابه ذاك ، وبين كتاب الاحياء ، ثم رأيت ان هذا باب اذا اطلته طال ، واستند وقتا انا محتاج اليه في غيره من الابواب فلا تتف بعض فقرات نقلها الغزالى عن ابن مسلویه نقا يشبه ان يدون حرفيآ ، من غير ان ينوه بالكتاب الذى نقل عنه ، وما ادرى انان ذلك مقصودا او غير مقصود ، ولذلك على دل حال دليل على تاتر الغزالى بمواقف ابن مسلویه ، والى القارئ البیان :

(١) يقول ابن مسلویه : (ومن اتخدع عن هذه الموهبه السرمديه انشريفعه بتلك الخسasات التي لا ثبات لها فهو حقيق بالمقت من خلقه عز وجل ، خلائق بتعجیل العقوبة ، وراحة العباد والبلاد منه) ٠

ويقول الغزالى : (ومن انفك عن هذه الجمله للها ، واتصف بضدادها ، استحق ان يخرج من بين البلاد والبلاد) ٠

(٢) يقول ابن مسلویه : (ان اول ما يبني ان يفترس في الطفل ويستدل به على عقله : الحياء ، فانه يدل على انه قد احسن بالقيح ، ومع احساسه به يحذر ويتجنبه ، فإذا نظرت الى الصبي ووجدته مستحييا مطوفا بطرفه الى الارض ، غير وقاد الوجه ، ولا مصدق اليك ، فهو اول دليل نجابتة ، والشاهد لك على أن نفسه قد أحسنت بالجميل والقيح ، وهذه النفس مستعدة للتادیب ، صالحة للعنایة ، لا يجب ان تهمل ولا تترك) ٠

ويقول الغزالى : (ومهما رأى فيه مخايل التمييز ، فيبغى أن يحسن

مرافبته ، وأول ذلك ظهوراً أوائل الحياة ، فانه اذا كان يحتشم ويستحيي ويترك بعض الاعمال فليس ذلك الا لاشراق نور العقل عليه ، حتى يرى بعض الاشياء قبيحاً ومخالفاً للبعض ، فصار يستحي من شيء دون شيء والصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحائمه وتمييزه)

(٣) يقول ابن مسكويه : (ان نفس الصبي ساذجة ، لم تتنفس بعد بصورة ، وليس لها رأي ولا عزيمة تميلها من شيء الى شيء)

ويقول الغزالى : (والطفل أمانة عند والديه ، وقلبه الطهر جوهرة نفيسة ساذجة حالية من كل نقش وصورة)

(٤) يقول ابن مسكويه : (ويعلم أن أولى الناس بالملابس الملونة والمنقوشة النساء اللواتي يتزين للرجال ، ثم العبيد والخول . وأن الأحسن بأهل النبل والشرف من اللباس البياض وما أشبهه حتى يتربى على ذلك . ويسمعه من كل من يقرب منه ، ويكرر ذلك عليه)

ويقول الغزالى : (ويحب اليه من الثياب البيض دون الملون ويقرر عنده ان ذلك شأن النساء والمحظيات ، وأن الرجال يستنكفون منه ، ويكرر ذلك عليه)

(٥) يقول ابن مسكويه : (ولا يترك لمحالطة من يسمع منه ضد ما ذكرته ، لا سيما من أترابه . ومن كان في مثل سنه من يعاشره أو يلاعنه . وذلك أن الصبي في ابتداء شوئه يكون على الأكثر قبيح الاعمال . أما كلها واما أكثرها . فانه يكون كذوباً . ويخبر ويحكى ما لم يسمعه ولم يره . ويكون حسوداً سروقاً ناماً لجوجاً ذا فضول)

ويقول الغزالى : (ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا الرفاهية ، فان الصبي مهما أهمل خرج في الأغلب ردئاً الأخلاق كذا با حسوداً سروقاً ناماً لجوجاً ذا فضول)

وين العبارتين فرق صغير ، وزيارة الغزالى أدق ، لأنها تعلق فساد
الطفل على اهمال تربيته وتاديده .

(٦) يقول ابن مسکويه : (ثم يطالب بحفظ محاسن الاخبار والاشعار
التي تجرى مجرى ما تعوده بالأدب . ويحذر النظر فى الأشعار السخيفه
وما فيها ذكر العشق وأهله ، وما يوهم أصحابها انه ضرب من الطرف
ورقه الطبع . فان هذا الباب مفسدة للالحاق) .

ويقول الغزالى : (ثم يستغل فى المكتب : فيتعلم القرآن وأحاديث
الأخيار ، وحكايات الابرار ، ويحفظ من الاشعار التي فيها ذكر العشق
وأهله ، ويحفظ من مخالطة الادباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف
ورقه الطبع ، فان ذلك يغرس فى قلوب الصيام بنور الفساد) .

ولئن قال قائل ان هذه آراء فطرية ، لا تصلح مثلا للنقل والمحاكاة ،
فاني أجيبه بأن موافقة الغزالى لابن مسکويه في بعض الأبواب موافقة تقاد
 تكون تامة ، تدل على الأقل على أنه صدى لمن قبله ، وأن نصيه من الابداع
 قليل .

الفصل الثاني منبع التصوف

وما زال الغزالى يكرر من مناهل الصوفية حتى روى : ثم اندفع
 يحدث الناس بما يفهمون وما لا يفهمون من أصول السلوك وقد صرخ
 في كتاب الميزان ، والأربعين ، والاحياء ، بحدبه على الصوفية ، ورفقه
 بهم ، وشفاقه عليهم . بل اظهر تبعيته لهم ، ونسبته اليهم ، ثم اخذ يحن
 اليهم حنين الغريب الى دياره !!

وانظر قوله في منهاج العابدين :

« وأن الملة التي ظهرت منا الآن ليست إلا من بقى على منهاج
أسلافنا وشيخنا المتقدمين كالحرث المحاسبي ، ومحمد بن ادريس
الشافعى ، والمرننى ، وحرملة ، وغيرهم من أئمة الدين - رحمهم الله
أجمعين . فهم كما قال القائل :

وَمَا صَحِبُوا إِلَيْهِمُ الْأَيَّامُ إِلَّا تَعْفَفُوا
أَفَاضَلُ صَدِيقُونَ أَهْلُ وَلَايَةٍ
تَحْلُلُ عَقْدَ الصَّبْرِ مِنْ كُلِّ صَابِرٍ
وَمَا حَلَّتِ الْأَيَّامُ مِنْ عَقْدٍ هُمْ عَقَداً
وَكَتَا فِي الْأَوَّلِ مَلُوكًا فَصَرَّنَا سَبُوفَةً ، وَكَتَا فِرَسَاتًا فَصَرَّنَا
رِجَالًا ، وَلَيْتَنَا لَا نَقْطِعُ عَنِ الْطَّرِيقِ . وَاللهُ الْمُسْتَعَنُ عَلَى الْمَصَائِبِ ، وَهُوَ
الْمَسْؤُلُ أَنْ لَا يُسْلِبَنَا هَذَا الرُّمْقَ . إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ ، مَنَانٌ رَّحِيمٌ ، وَلَا حُولَ
وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ » ص ٩٦ و ٩٧
فهل رأيت تحرقاً أَمْ منْ هَذَا وَالْذَّعُ ؟

أصل التصوف

وهذا التصوف الذي يترسم الغرالي آثار أصحابه ليس في جملته
مما تدعو إليه الشريعة الإسلامية ، وإنما هو مزيج من عدة مذاهب هندية ،
وفارسية ، ويونانية ، نقلت إلى المسلمين ، وصادفت هوى في تفوس
الزاهدين منهم ، فوسموها باسم الدين ، ووضعوا لها على حسابه القواعد
والأسواع .

وي يكن الحكم بأن ما في التصوف من الدعوة إلى طهارة الباطن ،
وحب الخير ، وبغض الشر ، وما إلى ذلك مما يتعلق بخلوص النفس
البشرية من خيست الصفات ، يرجع في جوهره إلى روح الإسلام ، أما

ما يختص بقطع العلائق مع الناس ، والتزهيد في الحياة ، فهو بعيد عن روح الدين ، لأن الإسلام دين فتح وسيطرة ، وهو يُعد معتقده لأن يكونوا سادة ، بخلاف التصوف فإنه يلبس أصحابه أرواح العبيد .

أنفاس الصوفية

وإنك لترى الغزالي يحاكي الصوفية في أنفاسهم وخطرات قلوبهم ويسايرهم خطوة خطوة في ذم الناس ، وشكوى الزمان ، واظهر ما يكون هذا في ذم الأتقياء المزيفين ، وسترى أنه في كتبه الأخلاقية قد أشرب حب من يسميه علماء الآخرة ، حتى ليصف حاله بهذه الأبيات :

ظفر الطالبون واتصل الوص
وبقينا مذبذبين حيارى
نفس حال المحال للابسا
واسقنا منك شربة تذهب الفم
يا طبيب السقام يا مرهم الجر
لست أدرى بما أداوى سقامى
ويمذا أفوز يوم الحساب

ومن هنا نراه ينقل كلمات تحتاج إلى قيد من الشريعة ، ويisksك عنها لا يقيدها بشيء . وأكثر ما أنكره عليه معاصره لم يانه الا من جهة استسلامه للخطرات الوج다ية ، التي علقت بنفسه من قراءة كتب التصوف ، حين اعتزل الناس في دمشق وبنداد .

على أن النقاد لم يتركوا له هذا الأديم صحيحا ، بل رموه بجهل التصوف ، وسلوكه منه في بيداء يضل فيها النسيم ، حتى اضطر الزيدى وغيره إلى أن يثبتوا أنه لم يزد على أن حاكى ما في قوت القلوب والرسالة القشيرية من مختلف الآراء في طرائق السلوك .

قوت القلوب

وأهم الكتب التي تأثر بها الغزالى من بين نتب الصوفية كتاب «قوت القلوب»، في معاملة المحبوب» تاليف أبي طالب المدى المتوفى سنة ست وثمانين وثلاثمائة ببغداد ولا يوجد الان في الأسواق، ومنه نسخة مطبوعة بدار الكتب المصرية نمرة ٢٦٧٧٢ وهو في مجلدين، يقع الأول منها في ٢٧٠ صفحة والثاني في ٢٩٧.

ويعد هذا الكتاب - بحق - مصدراً لكتاب الاحياء، ويهدف ان تقرأ باب التوكل مثلاً في التأبين لنعرف انهم يسيرون في طريق واحد، الى غاية واحدة، حتى ليتجدهما يتلقان غالباً في الشواهد من الآيات، والأحاديث، والاخبار، ويمكن الجزم بأن الغزالى اودع كتاب الاحياء كل ما صح لديه، وحسن عنده، من نتب قوت القلوب، وإن لم يشر الى ذلك، وربما ستر هذا بتغيير العناوين، فإذا قال ابو طالب المكي: (ذكر حكم الم وكل اذا كان ذا بيت) قال هو: (بيان آداب الم وكلين اذا سرق متاعهم)، وربما وضع عنواناً لمسألة لم تعنون في قوت القلوب، وقد يضع صاحب القوت مسألة تحت عنوان، فياتى الغزالى ويدمجها في كلامه، فيخيل الى القارئ أنها له، ولو لا خشية ابطاله لضررنا بذلك الأمثال.

وقد كان قوت القلوب واحياء علوم الدين موضع رعاية الصوفية على السواء فيما سلف من الأيام، وينقلون عن أبي الحسن الشاذلى أنه قال: كتاب الاحياء يورثك العلم، وكتاب القوت يورثك النور، ولهذا القول وجه من الصواب، فأنك تجده الاسهاب والتفصيل في الاحياء، وتجده الدقة وروعه الاخلاص في القوت، ويمتاز كتاب القوت فيما نرى بحرص مؤلفه واحتياطه فيما يتعلق بمذاهب الصوفية، وبجمال لغته، بخلاف الاحياء، فإنه يقرب في التصوف، وحظ أسلوبه من الدقة قليل.

الرسالة القشيرية

هي رسالة في التصوف لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري المتوفى في ١٦٣٤ هـ . وهي تقع في صفحة ١٨٦ . ولها شرح مخطوط بدار الكتب المصرية تأليف شيخ الإسلام زكريا الأنصاري ويسمى هذا الشرح : « أحكام الدلالة في شرح الرسالة » .

وقد كتب القشيري رسالته هذه : (إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام في سنة سبع وثلاثين وأربعين) كما قال في المقدمة فهي اذن منشور عام لاصلاح المتصوفة في ذاك الحين ، وقد ابتدأها بصرحة تشبه التي نقلناها للفزالي من منهج العابدين ، فهو يقول : « اعلموا رحمة الله أن المحققين من هذه الطائفة افترضوا أكثرهم » ، ولم يبق في زماننا هذا من هذه الطائفة الا أثراً لهم ، كما قيل :

أما الخيم فانها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نسائهم

حصلت الفترة في هذه الطريقة ، بل اندرست بالحقيقة

الخ) .

وقد شرح القشيري في بداية هذه الرسالة اعتقاد طائفة الصوفية في مسائل الاصول في التوحيد ، ثم ذكر تراجم اثنين وثمانين من مشايخ الصوفية بایجاز ، ثم فسر الألفاظ التي تدور بين هذه الطائفة ، وبين ما يشكل فيها على المريدين ، كالوقت ، والمقام ، والحل ، والقبض ، والبسط ، والتواجد ، والوجود ، الى آخر ما قال .

ثم وضع عدة أبواب في المجاهدة ، والخلوة ، والعزلة ، والمرافقة ، والصبر ، والشکر ، والخوف ، والرجاء ، وما الى ذلك مما بهم السالكين .

وتميز هذه الرسالة بكثرة النقل عن المتقدمين من شيوخ الطريق .

وقد صدق الزبيدي فيما رأه من أن الغزالى اعتمد عليهما عند تأليف الاحياء . وان كانت النسبة بين الكتابين بعيدة من جهة المادة ، ومن السهل أن يثبت الانسان ان هذة الرسالة فى أكثر أبواب الاحياء ، وما أدرى لم يشد الغزالى بذلك مؤلفها وممؤلف فوت الملوب ، مع أن فضلهما عليه كبير !

الفصل الثالث

من عرف الغزالى من الصوفية

ويجمل بنا أن نذكر طائفة من الصوفية الذين عرفهم الغزالى ونزيد بذلك من قرأ لهم ، واستشهد بكلامهم فى مؤلفاته ، لأن تأثيرهم غير قليل فى تكيف أحکامه الأخلاقية ، وطبعها بذلك الطابع الصوفى المعروف .

الإمام الشافعى

ولد رضى الله عنه بغزة ، ومات بمصر سنة ٢٠٤ هـ بعد أن أقام بها أربع سنين . وكان سنه حين مات ٥٤ سنة . وليس غرضنا أن نتكلّم عنه من الوجهة التشريعية ، فان لذلك مجالاً غير هذا المجال ، غير أنه لا يفوتنا بهذه المناسبة أن نقرر أن كتاب «الأم» الذى ينسب إليه ليس له ، وإنما هو من تأليف البوطي كما نص الغزالى في الاحياء .

والذى يهمنا الآن : هو أن نصور الشافعى كما تصوّره الغزالى ، أي من الوجهة الصوفية ، فقد كان رضى الله عنه معروفاً بالتقوى ، ونسيان

الذات ، حتى ليقول : (وددت لو أن الخلق تعلموا هذا العلم على أن لا ينسى إلى منه حرف) .

نماذج من كلامه

والى القارئ نماذج من كلماته التي جرت مجرى الامثال . قال رضي الله عنه : « اظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يدرمه ورعب في مودة من لا ينفعه ، وقبل مدح من لا يعرفه - المرأة في العلم ، يقسى القلب ، ويورث الصغار - من لم تعزه القوى فلا عز له - سياسة الناس أشد من سياسة الدواب - لو علمت أن الماء البارد ينقص مروءتي ما شربته - ليس باخيك من احتجت إلى مداراته - من علامه الصادق في أخيه أن يقبل علله ، ويؤيد خللها ، ويغفر زللها - لا تشاور من ليس في بيته دقيق - لا تقصير في حق أخيت اعتمادا على مروءته ، ولا تبذل وجهك إلى من يهون عليه رذك - من نم لك نيم عليك - من نطف توبه قل همه ، ومن طاب ريحه زاد عقله » .

المزنني

هو الإمام أبو إبراهيم اسماعيل بن يحيى المزنني . ولد سنة ١٧٥ هـ وتوفي سنة ٢٦٤ هـ تلقى العلم عن الشافعى وصار من ناشري مذهبه . وكان الشافعى يقول فيه : (لو ناظر الشيطان لغلبه) ! ! ونقل السبكي عن عمرو بن عثمان المكى : (ما رأيت أحداً من المتعبدين في شرة من لقيت منهم أشد اجتهاداً من المزننى ، ولا أدول على العبادة منه ، وما رأيت أحداً أشد تعظيماً للعلم واهله منه ، وكان من أشد الناس تضيقاً على نفسه في الورع ، وأوسعهم في ذلك على الناس) .

حرملة

هو حرملة بن يحيى بن عبد الله بن حرملة ولد سنة ١٦٦ هـ ،

وتوفي سنة ٢٤٣ هـ ، وهو من تلامذة الشافعى ورواية حِكمه . قال السبكي : (وقد ينفرد حرملة فى بعض المسائل ويخرج عن المذهب تصالياً وتفریعاً ، كما قد يفعل ذلك المزني وغيره فى بعض الأحايين) .

المحاسبي

هو أبو عبد الله الحرات بن أسد المحاسبي المتوفى ببغداد سنة ٢٤٣ هـ ، وهو شيخ الجنيد ، ويقول أنه سمي المحاسبي لكثره محاسبته لنفسه وقد ألف في الفقه والتصوف والحديث والكلام نحو مائة كتاب . وكان الجنيد يقول : « كنت كثيراً ما أقول للحرث : (عَزَلْتَنِي أَنْسِي) فيقول : كم تقول أنسى وعزلتني ؟ لو أن نصف الخلق تقربوا مني ما وجدت بهم أنساً ، ولو أن نصف الخلق الآخر نأوا عنى ، ما استوحشت بعدهم . وأنشد متشد بين يدي الحرات هذه الأبيات :

أَنَا فِي الْفَرِيَةِ أَبْكَى مَا بَكَتْ عَيْنَ غَرِيبٍ
لَمْ أَكُنْ يَوْمًا خَرَوْجِي مِنْ بَلَادِي بِمَصْبِيبٍ
عَجِيْبًا لِي وَلَرْكَى وَطَنًا فِيهِ حَبِيبِي
فَقَامَ وَتَوَاجَدَ وَبَكَى حَتَّى رَحْمَهُ كُلُّ مَنْ حَضَرَهُ .

ومن كلامه : « خيار هذه الأمة هم الذين لا تشغلكم آخرتهم عن دنياهم ، ولا دنياهم عن آخرتهم - حسن الخلق احتمال الأذى وفلة الغضب ، وبسط الرحمة ، وطيب الكلام - الطاليم نادم وان مدحه الناس والمظلوم سالم وان ذمه الناس - القانع غنى وان جاع ، والحرير فقير وان ملك » .

الجنيد

هو في نظر الصوفية سيد علماء الآخرة على الاطلاق ، توفي سنة ٢٩٨ هـ ، وكانت له أحوال لا يقرها شرع ولا عقل .

ومن كلامه : « ان الله يُخلص الى القلوب من بره ، على حسب ما تخلص اليه القلوب من ذكره . فانظر ماذا خالط قلبك - الفضة عن الله تعالى أشد من دخول النار - اذا رأيت الفقير فلا تبدأ بالعلم ، وابدأ بالرفق ، فان العلم يوحشه ، والرفق يؤنسه » .

* * *

وفي كتب الغزالى عدد عظيم من الصوفية ، يؤيد بكلامهم رأيه ، وكان لأؤلئك الصوفية مصنفات معروفة ، و كلمات مأثورة يتداولها الناس لعهده ، وانه لا شك فى اتفاقه بتلك الآثار . والرغبة فى الایجاز هى التى أرضتنا عن الاكتفاء بترجمة هذا العدد القليل .

الفصل الرابع

منبع الشريعة

وأهم المتابع الذى استقى منها الغزالى هو منبع الشريعة ، ممثلة في الآيات والأحاديث والاخبار . ويرى غير واحد من علماء هذا العصر أن الأخلاق عند الغزالى هي عين الأخلاق الإسلامية ، وهذا رأى غير صواب ، ولكنهم حملوا عليه بما يرون من أكتاره فى مؤلفاته من الآيات والأحاديث ، وسترى كيف أخطأوا حين تقرأ ما فصلنا من آرائه في الأخلاق .

ويشمل هذا المنبع فقهاء المسلمين الذين تأثر الغزالى بآرائهم في المعاملات . مع أنه احتاط في النقل عنهم ، ولكن هذه الحقيقة لا تزيد عن مطالبتهم بمسايرة أصول الشرع الحنيف .

الإنجيل

أطلم الغزالى على الانجيل ، واستفاد منه ، واعتمد عليه ما شاء فى مؤلفاته . وهذا طبيعى من رجل مسلم أوصاه دينه أن لا يفرق بين أحد من الأنبياء .

ولا عبرة بما كتبه الدكتور زويمر فى هذا الموضوع . لأن الدكتور زويمر يريد أن ينسب هداية الغزالى إلى مطالعته للإنجيل ، مع ان الغزالى لم يصل الا حسين تعلق باهدايب الأدب السليمية التي دعا إليها الانجيل !!

ولتوضيح هذا نذكر أن الأدب التي وضعها الانجيل غير طبيعية ، على معنى انه لا يمكن أن يسكن اليها بطبيعته أحد من الناس . فالحكمة الانجيلية التي نقول : من ضربك على خدك اليمين فادر له خدك اليسير . حكمة غير معقوله ، لا يقرها عرف ، ولا يدعوها قانون - والحكمة المسيحية التي تقول : من سخرك ميلا فامش معه ميلين . حكمة غير ممكنة القبول . ومن المستحيل أن تجد مسيحيًا يدير لك خدك اليمين حين تصربه على خده اليسير ، اما المسيحي الذي يتبعك ميلين حين تسخره ميلا فهو نادر الوجود !!

ومن المستطرف ما لاحظه الدكتور زويمر على ما رواه الغزالى عن المسيح من أنه مكت بناجي ربه ستين صباحا لم يأكل . فقد قال : الحقيقة أنها أربعون . ولم تتعجب نفسك يا سيدي الدكتور في هذا التصحيح ؟ المسألة برمتها خيال في خيال ، لأن الذي يمكت ستين يوما أو أربعين يوما بلا طعام لا يصلح لشيء في هذا الوجود الراخرا بالجهد والجلاد . وهل يستطيع القسيسون والرهبان أن يحيوا هذه الحياة ! وهبهم استطاعوا فما عسى أن تكون منزلتهم بين الأحياء ؟

وأى خطأ أفرج من قول الغزالى في الدرة الفاخرة : « اعتبروا بعيسى عليه السلام ، فقد قيل انه لم يملك الا ثوبا واحدا لبسه عشرين

سنة ؟ ولم يأخذ معه في كل سياحاته الا كوزا وسبحة ومشطا • ورأى ذات يوم رجلاً يشرب من نهر بحقيته فطرح الكوز ولم يستعمله ثانية ، ثم رأى رجلاً يمشط لحيته بأصابعه ، فطرح المشط ولم يستعمله ثانية ، وكان يقول دائمًا : حصاني قدمي ، وبيوتي مفائر الأرض ، وطعامي خضرتها ، وشرابي من ماء أنهارها ، ومقرئي بين بنى آدم » •

وهذه من الغزالي دعوة مردودة ، لأن الإسلام لا يعرف هذا النوع من الحياة ، وكيف يدعو المسلمين إلى أن يعتبروا بما روى من أن عيسى لم يملك إلا ثوباً واحداً ليس عليه شرين سنة ، مع أنه من المستحب أن يبقى الثوب الواحد على جسم المرء عشرين سنة ، إلا أن تكون هذه أيضًا معجزة ، وعفا الله عنمن لا يفهم هذه المعجزات ! !

ان عيسى الذي يصوروه بهذه الصورة شخص خرافي لم يعرفه التاريخ • والا فلما أرضن يسمع جوهاً بأن يظل التوب على صاحبه عشرين عاماً لا يبلّي ، ولا يعرض لابسه لنفارة تلامذته وأصدقائه ؟ وكيف يقابل هذا بما روى الغزالي عن المسيح من أنه قال : « اذا كان صوم أحدكم فيلدهن رأسه ولحيته ، وليسح شفتيه ، لثلا يرى الناس أنه صائم » فان في هذا الحديث دعوة إلى كتمان الصوم ، والظهور بمظهر الترف ، تجنباً للتلمذ بمحظه الصيام •

أليس من العجيب أن يصدق الغزالي أن عيسى يقول : من أخذ ردامك فأعطه ازارك ، ومن ذا الذي يرضى من المسلمين أو النصارى أن يتأنب بهذا الأدب الغريب ؟

ويستشهد الغزالي بقول عيسى عليه السلام : لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد • مع أن هذا مناقض للآلية الكريمة : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » • ويستشهد بقول عيسى : انظروا إلى الطير

لا تزرع ولا تحصد ولا تدخل ، والله تعالى يرزقها يوماً بيوم ، فان قلت
نحن أكبـر بـطـونـا فـانـظـرـوـا إـلـى الأـعـام كـيف قـيـصـر الله تـعـالـى لـهـا هـذـا الـخـلـقـ
لـلـرـزـقـ . وـهـذـا يـنـاقـضـ الآـيـةـ الـكـرـيمـةـ « وـلـا تـسـنـ نـصـيـكـ مـنـ الدـنـيـاـ » .
وـمـنـ الـواـضـحـ أـنـ الـذـيـ لـا يـسـىـ نـصـيـهـ مـنـ دـنـيـاهـ ، يـسـعـيـ لـهـ ، وـيـجـدـ فـيـ
طـلـبـهـ .

وـنـحـنـ بـهـذـهـ الـكـلـمـاتـ لـا تـنـكـرـ نـبـوـةـ عـيـسـىـ عـلـيـهـ السـلـامـ ، وـاـنـماـ نـرـجـعـ
اـنـ اـتـيـاعـهـ جـنـوـاـ عـلـىـ تـرـيـعـتـهـ ، بـمـاـ زـوـرـوـاـ بـاسـمـهـ مـنـ الـاحـادـيـثـ ، وـهـذـهـ
جـنـايـةـ كـثـيرـةـ الـاـشـمـالـ فـيـ الشـرـائـعـ ، فـاـنـ الـاسـلـامـ مـعـ تـوـاـتـرـ سـبـنـهـ الـاـولـ
وـهـوـ الـقـرـآنـ ، لـمـ يـعـدـ مـنـ أـصـحـابـ الـغـفـلـةـ وـأـصـحـابـ الـغـرـضـ مـنـ زـوـرـوـاـ
الـاحـادـيـثـ بـاـسـمـ النـبـيـ حـتـىـ كـادـوـاـ يـقـضـوـنـ عـلـىـ مـاـ لـلـدـيـنـ مـنـ قـوـةـ الـحـقـ ،
وـرـوعـةـ الـجـمـالـ .

وـنـحـنـ كـذـلـكـ لـا تـنـكـرـ أـنـ مـسـيـحـيـةـ تـدـعـوـ إـلـىـ الزـهـدـ ، فـاـنـ الدـعـوـةـ
إـلـىـ الزـهـدـ أـصـلـ مـنـ أـصـوـلـهـ الـأـولـىـ . وـلـكـنـ ، نـرـجـعـ أـنـهـ كـانـ تـدـعـوـ إـلـىـ
الـزـهـدـ يـقـدـرـ مـاـ تـفـلـ مـنـ حـيـدـةـ النـاسـ وـتـقـلـلـ مـنـ جـشـعـهـمـ وـطـمـعـهـمـ . فـاـمـاـ
الـدـعـوـةـ إـلـىـ الـفـرـارـ مـنـ طـبـيـاتـ مـاـ أـحـلـ اللهـ فـهـيـ دـعـوـةـ بـعـيـدةـ الـوقـوعـ مـنـ
الـأـئـمـاءـ وـالـمـرـسـلـينـ .

وـكـنـاـ نـحـبـ أـنـ لـا يـصـدـقـ الغـزـالـيـ كـلـ مـاـ نـقـلـ عـنـ مـسـيـحـ ، وـلـكـنـ
الـغـزـالـيـ كـانـ طـيـبـ الـقـلـبـ أـكـثـرـ مـاـ يـجـبـ ، وـمـاـ أـحـوجـ الـلـمـاءـ إـلـىـ الـاعـتـصـامـ
بـحـلـ الشـكـ ، فـاـنـ الشـكـ وـحـدـهـ سـيـلـ الـيـقـيـنـ .

الفصل الخامس

أساتذة الغزالى وأصحابه

وبعد الذى قدمناه من ورود الغزالى للمناهل الفلسفية ، والشرعية ، والصوفية : لا نجد بـداً من التسليه الى أنه اغترف كذلك من المنهل الذى ورده أساتذته وأصحابه . وقد لاحظنا أن الذين تلمند الغزالى لهم كانوا فى الأغلب صوفية ، كما أن أكثر من صحبهم كانوا صوفية .

فمن أساتذته الامام أحمد بن محمد الراذكاني ، وكان من الفقهاء الصالحين ، وقد تلقى عنه دروسه الأولى فى طوس .

ومن أساتذته الامام أبو نصر الاسماعيلي ، وكان من الأمثلة النادرة فى الورع والتقوى ، وقد تلقى عنه الغزالى فى جرجان ، وعلق عنه التعليقة ، كما كانوا يقولون .

ومن أساتذته امام الحرمين ، وكان من أتقى أهل زمانه ، وقد تلقى عنه الغزالى فى نيسابور ، ويقال انه كان يحسد الغزالى ، بالرغم من شهادته له بالتفوق والتبوع .

ومن أساتذته الامام الزاهد أبو علي الفارمذى من أعيان تلامذة أبي القاسم الشيرى وكان أستاذه فى التصوف ، وقد عده السبكي من أصحابه .

هؤلاء وغيرهم من أساتذة الغزالى وأصحابه أثروا فى حياته العقلية تأثيراً غير قليل ، وطبعوا نظره الى الحياة بطابع خاص ، وفي مقدور القارئ أن يرجع الى تفصيل حياة هؤلاء الذين اختصرنا أخبارهم فى طبقات الشافعية . أما تلامذة الغزالى فسنعود اليهم فى غير هذا الباب .

الباب الرابع

في مؤلفات الغزالى

تمهيد

تكلم ابن السبكي في طبقاته عن مؤلفات الغزالى ، وتبعد الزيدى في شرح الاحياء ، ثم كتب جرجى زيدان في صدر الجزء السادس من السنة الخامسة عشرة للهلال كلمة مفصلة عن مصنفات الغزالى ، وتمتاز هذه الكلمة بشيئين : الأول ترتيب تلك الكتب بحسب موضوعاتها ، والثانى الاشارة الى أماكن وجود النسخ النادرة ، مخطوطة كانت او مطبوعة . الا أنه لحسن حظ العلم نجد أكثر ما نوه جرجى زيدان بندرته أصبح اليوم في المكاتب والأسواق .

وأهم كتب الغزالى فيما نحن بصدده من درس الأخلاق ، « كتاب الاحياء » ، وسنكتب عنه كلمة مفصلة ، وكتاب « ميزان العمل » وهو يقع في ٢١٥ صفحة ، ونحسبه يفضل في دقه كتاب الاحياء ، بل يشبه أن يكون خلاصة له ، وميزان العمل هذا مقابل لكتابه « معيار العلم » . وقد قال في مقدمته : (لما كانت السعادة التي هي مطلوب الأولين والآخرين لا تناول الا بالعلم والعمل ، وافتقر كل واحد منها الى الاحتاطة بحقيقة مقداره ، ووجب معرفة العلم والتمييز بينه وبين غيره بمعيار ، وفرغتنا منه ، وجب معرفة العمل المسعد ، والتمييز بينه وبين العمل المشقى ، فافتقر ذلك أيضا الى ميزان ، فأردنا أن نخوض فيه .. الخ) وقد نص على أنه وضع أكثر هذا الكتاب على طريقة التصوف .

وily هذين الكتابين في الأهمية كتاب « الأربعين » ٠ وهو جزء من كتاب « جواهر القرآن » ، كما ذكر صاحب كشف الظنون ، وقد وضع بعد الابحاث ، وهو قريب منه في الموضوعات وفي التبويب ٠

ومن مؤلفاته الهامة في الاخلاق كتاب « منهاج العابدين » وهو آخر مصنفاته ، ولعل هذا هو السر فيما احتواه هذا الكتاب من مظاهر الصعوب والاضطراب ، وقد رأيت كيف اعتلت صحته بسبب المزلة ٠ ونقل الزبيدي عن المسامرة لابن عربى أنه ليس له ، وإنما هو لأبي الحسن على ابن خليل السبتي ، وسترى بعد قليل ما زور باسم الغزالى من التأليف ٠

وهناك « التبر المسبوك في نصيحة الملوك » ، تنبه للسلطان محمد ابن ملكشاه ، وعن هذا الكتاب أخذنا رأى الغزالى في أداب الكتاب راجبته الملوك ، وحقوق الوزراء ٠ وسترى بعد ، دلمه في نسبة هذا الكتاب إلى الغزالى ، وهو يقع في ١٢٤ صفحة وتجده مشحوناً بالأفاصيص ، وهي فترة حسنة في الترغيب والترهيب ، ولم يختص بها تابة هذا ، ولكنها فيه أظهر من سواه ٠

ولا تنس كتابه « المنقد من الضلال » ، فيه صورة صادقة لحياته العقلية ، وهو يمثل وجهه نظره فيما شهد من الحركة العلمية في عصره ذلك ، وقد كتبه بسذاجة ظاهرة تكشفت لنا عن قلب أبيض ، ونفس تجيئ بالاخلاص ٠

وكتابه « المستصفى في الأصول » كان المرجع فيما كتبنا عن الحسن والقبيح ، وهو كتاب قيم يدل على مبلغه من دقة الفهم ، وحسن الأداء ٠ ورسالته « مشكاة الأنوار » تمثل لنا رأيه في منازل الناس بحسب قربهم أو بعدهم من فهم ما بنى عليه العالم من دفائق الجمال ، وقد توسع في شرح قوله تعالى : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » إلى آخر الآية ٠

ويعد الغزال من أكبر المؤلفين حتى زعموا أن مؤلفاته قسمت على أيام حياته فشخص كل يوم أربعة كراسيس (!) وأهمها جميعاً كما قدمنا هو كتاب الأحياء وهو سبب ما رزق من الخلود ٠

الفصل الأول

طريقته في التأليف

وللغزال في التأليف منهج جميل ، فهو يشرح أولاً المذهب الذي يريد نقده ، وقد بلغ من حرصه على هذا المنهج أن ألف كتاباً في مقاصد الفلسفة ، حين هم بتأليف كتاب في تهافتهم ، ويقول في كتابه ذلك (ولنفهم الآن ما نورده على سبيل الحكاية مهملة مرسلة ، من غير بحث عن الصحيح وال fasid ، حتى إذا فرغنا منه استأنفنا له جداً وتشميرآ في كتاب مفرد نسميه تهافت الفلسفة) ٠

وصنع مثل هذا الصنيع حين رد على الباطنية ، وقد ذكر في «المنقد من الصلال» ص ٢٠ ، ٢١ أن بعض أهل الحق أنكروا عليه مبالغته في تقرير حجتهم ، وقالوا : هذا سعي لهم ، فإنهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم بمثل هذه الشبهات ، لو لا تحقiqه لها ، وترتيله إليها ، وأجاب بأنه استحسن أن يقرر شبهتهم إلى حد الامكان ثم يظهر فسادها ، وهذا منهج لا نسرف ان كررنا أنه جميل ٠

ومما تمتاز به خطة الغزالى في التأليف ، الاعتماد على الخطابيات في اصلاح القلوب ، فهو حين يتكلم عن فضيلة من الفضائل ، يبدأ بذكر ما ورد في حمدتها من الآيات ، ويعقب بسرد ما جاء عنها من الأحاديث ، ثم الأخبار ، ثم الآثار . وينطلق بعد ذلك في ذكر القصص والحكايات التي تستولي على قلب القارئ ، وترسم في نفسه أثر تلك الفضيلة ، ومالها من مقام محمود . والأمر كذلك اذا تكلم عن رذيلة من الرذائل ،

وهو في هذا الباب لا يعتبر مبتكرًا ، فقد سبقه القصّاص ، ولكنه آخر عفى على الاولين ؟ وقد رأيت من الأدباء من يستكر هذه الخطة ، وهو استكار على غير أساس ؟ ويكتفى أن تقرأ كتب سمبلز الانجليزي المتوفى في ١٦ أبريل سنة ١٩٠٤ لتعرف حسن هذا التهجي في رأى المعاصرين ، فاني لم أر أحدا يستكر منهجم سمبلز في الآثار من الأفاصيص للترغيب في مكارم الأخلاق .

وتمتاز كتاب الفزالي الأخلاقية بأنها صالحة لكل فارئ ، فلم يقصد المؤلف وضعها لطائفة معينة ، او فريق خاص ، وإنما وضعها لجمهور المسلمين .

وهناك ميزة خطيرة لمؤلفات الفزالي : وهي اقباله على الخيال فهو يحسن ويصبح بطريقة فنية بدعة ، تخلب العقول ، وتمتنع القلوب . وانظر كيف يشبه من يحسب المحسن انما يحسن باختياره انه يشبهه بالنميمة ترى سواد الخط على البياض يحصل من حركة القلم فتضفي ذلك الى القلم : اذ حدقتها الصغيرة الضعيفة ، لا تمتد الى الاصبع ، ومنها الى اليد ، ومنها الى القدرة المحركة لليد ، ومنها الى الارادة التي القدرة مسخرة لها ، ومنها الى المعرفة التي يتوقف انباع الارادة عليها ، ومنها الى صاحب القدرة والعلم والارادة ^(١) .

ويشبهه الضعيف القلب ، بالحمار في معلقه ، والدجاج في قفصه يرمي ما تعود من صاحبه ، لا يكاد ينفك عن ذلك ، وتقاعدت نفسه عن معالى الامور ، وانقطعت همته ، فلا يكاد يقصد أمرا شريفا ^(٢) .

والذى يعبر بنظره كتاب الاحياء وكتاب الأربعين وكتاب المنهاج ، يرى البدائع الفنية ، وألوان البيان ، في طرق الترغيب والترهيب ، وهو يجيد في التخييل حتى يغلب القارئ على أمره ، ويشككه في نفسه ،

(١) ٣٧٩ الاربعين .

(٢) ٧٦ منهاج .

ويحمله قهرا على أن يدرس نفسه من جديد ، وهذا وجه الخطر في مؤلفات الغزالى ، اذ كانت في الأغلب وساوس صوفية غششت بالوان السحر والفتون ، فلا يسلم منها الا العالمون والأقوياء .

الفصل الثاني

الصوت المردد في مؤلفات الغزالى

ومع محاولة الغزالى لمن تقدمه من المؤلفين ، فانا نراه يدرر كثيرا الأفكار ، والعبارات ، والأمثلة ، حتى لظن بضاعته واحدة ، في جميع مؤلفاته ، ويinden الحكم بان الاحياء ، والاربعين ، والميزان ، والنهاج ، والتبر المسبوك ، والأدب في الدين ، وبداية الهدایة ، وجزءا كبيرا من مؤلفاته في الفقه والتوحید ، اقول يمكن الحكم بان جميع هذه المؤلفات يندر ان تكون بينها فروق جوهرية . ولو أتنا وازنا بين كتبه في باب كتاب الاخلاص لوجدنا الأمثلة واحدة ، والعبارات واحدة ، وانما تختلف بالاطناب والايجاز .

واذ كان الرجل مفتونا بآراء الصوفية . فانا نجد تأثره بهم يختلف اختلافا قليلا بحسب الظروف ، فهو في النهاج ، أقرب اليهم منه في الاحياء ، فما يحترز منه هنا قد لا يحترز منه هناك .

ونلاحظ أنه ليست هناك غاية موحدة يسعى لنصرتها الغزالى بمصنفاتة العديدة : فهو تارة يلوذ بأكتاف الشرعية ، فيمنع ما تمنع ويبيح ما تبيح . وتارة يساير الصوفية ، فينصرهم فيما يسمون اليه من الانفراد بهم أسرار الوجود ، وهو مع ذلك يصرح بأن علم المكافحة لا يودع الكتب ، ولا يصح أن يلقى لنير الخواص !

ويتتج مما سلف أن الغزالى ليس من المبتكرین المبدعين ، وانما

يمتاز بصره على قرع ذلك الناقوس الذى أراد أن يوقف به الناس من سباتهم ، وان لم يكن ذلك الناقوس من صنع يديه ، وفدى أفاق الناس ولم يروا غير الغزالى ، ثم هرعوا اليه ، فوجدوا كتاب الاحياء فى يمناه ، وما زالوا به يحلمون .

الفصل الثالث

كتاب الاحياء

هو أهم ما كتب الغزالى فى الأخلاق ، ألفه فى آخريات حياته حين جنح الى اعتزال الناس ، ثم قرأه فى دمشق وبغداد ، ووضع له مختصرات عديدة ، منها الوجيز ، ومنها المبسوط .

وقد أنسسه على أربعة أرباع : رباع العادات ، ويشتمل على كتاب العلم ، وكتاب قواعد العقائد ، وكتاب أسرار الطهارة ، وكتاب أسرار الصلاة ، وكتاب أسرار الزكاة ، وكتاب أسرار الصيام ، وكتاب أسرار الحج ، وكتاب آداب تلاوة القرآن ، وكتاب الأذكار والدعوات ، وكتاب ترتيب الأولاد في الأوقات .

ورباع العادات ، ويشتمل على كتاب الأكل ، وكتاب آداب النكاح، وكتاب أحكام الكسب ، وكتاب الحلال والحرام ، وكتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلقي ، وكتاب العزلة ، وكتاب آداب السفر ، وكتاب السماع والوجود ، وكتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة .

ورباع المهلكات : ويشتمل على كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب رياضة النفس ، وكتاب آفات الشهوتين: شهوة البطن وشهوة الفرج ، وكتاب آفات اللسان ، وكتاب آفات الفضب والمحقد والحسد ، وكتاب ذم الدنيا ،

وكتاب ذم المال والبخل ، وكتاب ذم الجاه والرياء ، وكتاب ذم الكبر
والعجب ، وكتاب ذم الغرور ٠

وربع المنتجات: ويشتمل على كتاب التوبه، وكتاب الصبر والشكرا،
وكتاب الخسوف والرجاء ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوحيد
والتوكل ، وكتاب المحبة والشوق والأنس والرضا ، وكتاب النية
والصدق والاخلاص، وكتاب المراقبة والمحاسبة، وكتاب التفكير ، وكتاب
ذكر الموت ٠

ونظرة الى هذا البرنامج تريك مبلغ عناية الفزالي بكتاب الاحياء ،
وليس كثيراً أن ذكرنا هذا البرنامج ، فان الاحياء عمدتنا فيما قصدنا اليه
من تحرير ما وضع الفزالي في الأخلاق ، ومن الخير أن نذكر رأى
الفزالي نفسه في ذلك الكتاب المترجع الجامع فقد قال بعد أن بين ما اخذه
في شرح العبادات ، والعادات ، والمهلكات ، والمنتجات : « ولقد صنف
الناس في بعض هذه المعاني كتبها ، ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة
أمور :

الأول - حل ما عقدوه ، وكشف ما أجملوه ٠

الثاني - ترتيب ما بددوه ، ونظم ما فرقوه ٠

الثالث - ايجاز ما طلولوه ، وضبط ما قرروه ٠

الرابع - حذف ما كرروه ، وابات ما حرروه ٠

الخامس - تحقيق أمور غامضة اعتمدت على الأفهام لم يتعرض لها
في الكتب أصلاً ، اذ الكل وان تواردوا على منهج واحد فلا مستدركون اذ
ينفرد كل واحد من السالكين بالتنيه لأمر يخصه ويفصل عنه رفقاؤه ٠

الفصل الرابع

أغلاط الأحياء

نذكر هنا شيئاً من المآخذ التي أخذها المقدموں على الفرزالي فيما يخص كتاب الأحياء . لأن في ذلك بياناً لقيمة هذا الكتاب في نظر المتقدمين ، و لأن فيه تمهيداً لما نحن بسيله من نقد آراء الفرزالي في اخلاق .

١ - نقل السبکی فی طبقات الشافعیة أن أبا عبد الله المازری قال وقد سئل عن الاحیاء : « ان الفرزالی يستحسن اشیاء منها على ما لا حقيقة له » مثل قوله فی قص الأظفار : تبدأ بالسبابة لأن لها الفضل على بقیة الأصابع لكونها المسبحۃ !

٢ - وأنكروا عليه كما نقل الزبیدی ، قوله فی الاحیاء : ليس في الامكان ابدع مما كان ، واستندوا في انكارهم إلى أن هذا يوهم عجز الجناب الالهي ، وهو كفر صريح ، وإنما انحصر انكارهم في هذه الوجهة لاغراقها في المباحث الدينية ، ولو كان لهم نصيب من العلم والفن لعدوا هذا عقبة في سبيل الاختراع .

٣ - ونقل الزبیدی عن الأجوبة المرضیة للشیرانی أن مما أنكر على الفرزالی قوله : يباح للصوفیة تمزیق ثيابهم عند غلبة الحال ، ان قطعت فطعا مربعة تصلح لترقیع الثياب والسجادات ، كما يجوز تمزیق الثوب ليقع به ثوب آخر ! وقد اجاب الزبیدی على هذا بجواب مضحك جاء فيه : (وبالجملة فلو كان جميع أموال الدنيا وامتعتها بيد الفقیر ورأى حضور قلبه مع الله تعالى لحظة باتفاقها كلها ، بحرقها أو رميها في بحر نکان له ذلك بطريق الاجتہاد ، ولا لوم الا على من يمزق ثيابه ويتلف ماله اسرافا وسفها) وقد فات الزبیدی أن غرض المنکر ليس منصبًا على

التبديد والاسراف ، وانما هو موجه الى الخروج من الوقار ، فانه لا مرية في أن غرض الشرع من التجمل انما يرجع الى الرغبة في أن يسبغ على المؤمن رداء الجلال ٠

٤ - وما أنكروا عليه قوله في الاحياء : المقصود بالرياضة تفريح القلب ، وليس ذلك الا بالخلوة ، والجلوس في مكان مظلم ، فان لم يدن مظلما لف راسه في جيده ، او تدثر بكساه او رداء فانه في مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق تعالى ويشاهد جلال الربوبية (!؟) ٠

وقد تنبه ناقدوه الى أن التقليل من الطعام قد يورث الجنون ! فمن يدرينا ان ما يسمعه المريض هو نداء الحق ، او أن الذى يشاهدوه هو جلال الربوبية ، ومن يضمن ان لا يكون ما يجده هو من الوساوس والخيالات الفاسدة !

٥ - وأنكروا عليه كذلك تقريره قول الجنيد : اذا كان الاولاد عفوبة شهوة الحال ، فما ظنك بعقوبة شهوة الحرام (!)

٦ - وأنكروا عليه كذلك تقريره ما حكاه عن بعضهم أنه بات عند السابع في بريه ليتحن توكله على الله هل صح ام لا (!؟) فالوا وكيف جاز له أن يسكت على ما فعله هذا الرجل مع تعرضه لأسباب الها لا ؟

٧ - وما أنكروا عليه قوله : كان بعض الشيوخ في بدايته يكسبل عن قيام الليل ، فالزم نفسه القيام على رأسه طول الليل لتصير نفس بحيث تجيئ الى قيام الليل اختيارا ، وكذلك عالج بعضهم حب المال فباع جميع أمتعته ورمى ثمنها في البحر خوفا من أن يقع في حب ترك الناس له ، ووصفه بالجحود ، او الرياء في فعلها ، ولذلك كان بعضه يستاجر من يشتمه على رعوس الاشهاد ليعود نفسه الحلم ، وكان آخر يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الموج ليعود نفسه الشجاعة ، وكار

بعضهم اذا خاف النوم يقف على رأس حائط عال حتى لا ياخذه النوم (:)
قال ابن القيم : وانى دعجت من ابى حامد هذا تيف يامر بهذه الامور
التي تختلف ظاهر الشريعة ، ونيف يحل لاحد ان يقوم على راسه
طول الليل ، ونيف يحل رمى اهل فى البحر ، ونيف يحل سب المسلم
بلا سبب ، وهل يجوز لمسلم ان يستاجر من يشتمه ، وهل يجوز لاحد
ان يقوم على راس جدار عال ويعرض نفسه للهفوة بالنوم فتنسر
رفته فيموت !!

٨ - وما اندروا عليه حذاته عن ابن المريتى شيخ الجنيد انه
قال : نزلت في محله عرفت فيها بالصلاح ، فشت بلبي ، ونفر مني ،
قدخلت الحمام ، وسرفت تيابا فاخرة وبسنتها ، ثم لبست مرفعتي فوقها
وخرجت فجعلت أمشي قليلا فليلا ، فلحفونى واخذوا مني الثياب ،
وسفعوني وسموني بص الحمام ، فسدلت نفسى (:) قال الغزالى : فهكذا
كانوا يروضون انفسهم حتى يخلصهم الله تعالى من فتنة النظر الى الحقائق
ومراعاتهم لهم ، واهل النظر الى النفس وارباب الاحوال ربما عاجزوا
أنفسهم بما لا يفتقى به الفقيه ، اذا رأوا صلاح قلوبهم في ذلك ، ثم
يتداركون ما فرط منهم من صورة التقصير لما فعل هذا في الحمام (!!)
قال ابن القيم : سبحان من أخرج أبا حامد من دائرة الفقه بتصنيفه كتاب
الاحياء ! فليته لم يحك فيه مثل هذه الامور التي لا يحل لاحد السكوت
عليها ؟ ثم نقل نص الامام أحمد والشافعى في ان من سرق من الحمام
تيابا عليها حافظ وجب قطع يده . ثم قال : وتعجبى من هذا الفقيه الذى
استلب التصوف علمه وعقله ، أكثر من تعجبى من هذا المستلب الثياب
من الحمام ! فياليت أبا حامد يقى مع قواعد الفقه واستنى عن هذه
الهذيات .

٩ - وانكروا عليه تقرير ما حكاه عن أبي الحسن الدينورى أنه
حجج اثنى عشرة حجة ، وهو حف مكتشوف الرأس ! قال ابن القيم :

وهذا من أعظم الجهل لما في ذلك من الأذى للرأس والرجلين ، ولا تسلم الأرض من الشوك والوعر ، وكان هؤلاء الصوفية ابتكروا من عند أنفسهم شريعة سموها بالتصوف ، وتركوا شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فنحوذ بالله من تليس ابليس . فإن مثل هذه الحكایات تفسد عقائد العوام ، اذ يظنون أن فعل مثل هذا من الصواب .

١٠ - وأنكروا عليه تقريره عن أبي الخير الأقطع التيتاني قوله :
أني عقدت مع الله عهدا ان لا أكل شيئاً من الشهوات ، فمددت يدي الى تمرة في شجرة فقطعتها ، في بينما أنا امضغها اذ ذكرت العهد فرمي بها من فمِي ، فدار بي فرسان وقالوا قم ! وأخرجوني إلى ساحل بحر اسكندرية ، وإذا أمير وحوله خيل وجند ، فقالوا انت من اللصوص ، وإذا معهم جماعة من لصوص السودان ، فسألوهم عنِي ، فقالوا لا نعرفه ، فلذبهم الأمير وشرع يقدم يدا ويقطعها الى ان وصل الى ، وقال لي : تقدم ومد يدك ، فمدتها فقطعت الى آخرها !! قالوا : فانتظروا ما يفعل الجهل العظيم بصاحبِه ، فلو أن عند التيتاني رائحة علم ، لعلم أن ما فعله حرام عليه ، وليس لا بليس عون على الزهاد والعباد أكثر من الجهل ، وما أظن غالب ما يقع لهؤلاء الا من الجنون .

١١ - وأنكروا عليه قوله : إن الاشتغال بعلم الظاهر بطلة (!)
قال ابن القيم : هذا جهل مفرط منه . وأصل ذم الصوفية للعلم أنهم رأوا طريق الاشتغال به لا يوصلهم الى الرئاسة الا بعد طول زمان ، بخلاف طريقتهم المبدعة من لبسهم الزى ، وصلاتهم بالليل ، وصومهم بالنهار ، وتقصير النیاب والأكمام .

١٢ - وأنكروا عليه حكایته عن أبي تراب التخسيبي أنه قال لمريد له : لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة ، كان أفعى لك من رؤية الله عز وجل سبعين مرة (!) قال ابن القيم : وهذا الكلام فوق الجنون بدرجات .

١٣ - وأنكروا عليه تقريره لرمي الشبلي ما كان معه من الدنانير في دجلة ، وقوله : ما أعزك عبد الا أذله الله تعالى . قال ابن القيم : وأنا أتعجب من أبي حامد أكثر من تعجبني من هؤلاء الجهلة بالشريعة ، كيف يبحى ذلك عنهم على وجه المدح لهم ، لا على وجه الانتقاد ، وأى رائحة بقيت من الفقه عند أبي حامد حتى يكتب عنه شيء من العلم ؟ فان الفقهاء كلهم يقولون ان رمي المال في البحر لا يجوز .

١٤ - وأنكروا عليه تقريره قول أبي سليمان الداراني : اذا طلب الرجل الحديث ، أو سافر في طلب المعاش ، أو تزوج ، فقد ركن الى الدنيا (!) قالوا : هذه الأشياء الثلاثة مخالفة لقواعد الشريعة . وكيف لا يطلب الحديث وقد ورد : « ان الملائكة لنضع أجنحتها على طلب العلم » ؟ وكيف لا يطلب المعاش ؟ وقد قال عمر رضي الله عنه : « لأن اموات من سعى رجلى أطلب كفاف وجهى أحب الى من أن اموات غازيا فى سيل الله » ؟ وكيف لا يطلب التزويج ، وصاحب الشرع صلى الله عليه وسلم يقول : « تناكحوا تناسلا فانى مباه بكم الأمم يوم القيمة » ؟

١٥ - وأنكروا عليه تقريره قول أبي حمزة البغدادي : انى لاستحي من الله أن أدخل الbadية وأنا شبعان ، وقد اعتقدت التوكل ، لئلا يكون شبعى زادا تزودت به (!) قالوا : ومن العجب اعتناره عن أبي حمزة بقوله : كلام أبي حمزة صحيح ، ولكن يحتاج الى شرطين : أحدهما أن تكون للإنسان قدرة من نفسه بحيث يمكنه الصير عن الطعام أسبوعا ونحوه . الثاني أن يمكنه التقوت بالخشيش ، ولا تخلو الbadية من أن يلقاه الذى معه طعام بعد أسبوع ، أو يتنهى الى محللة أو حشيش يوجد به ما يقوته . قال ابن القيم : أقبح ما فى هذا القول صدوره من فقيه فإنه قد لا يلقى أحدا . وقد يضل ، وقد يمرض فلا يصلح له الخشيش ، وقد يلقاه من لا يطعمه ، وقد يموت فلا يدفنه أحد .

١٦ - وأنكروا عليه ما أجاب به من سأله عن رجل يدخل الbadية

بلا زاد حيث قال : هذا من فعل رجال الله - قيل له فان مات؟ قال : الديمة على العاقلة (!) قالوا : هذه فتوى جاهل بقواعد الشريعة ، اذ لا خلاف بين فقهاء الاسلام أنه لا يجوز لاحد دخول الباديء بغير زاد ، وان فعل ذلك ومات بالجوع فهو عاصٌ مستحق للعقوبة في الآخرة .

١٧ - وأنكروا عليه أيضاً ما حكاه عن تسيق البلخي أنه رأى مع شخص رغيفاً ليفطر عليه من صومه فهجره ، وقال : تمسك رغيفاً إلى الليل !

١٨ - وكذلك أنكروا عليه قوله : أعلم أن ميل قلوب أهل التصوف إنما هو إلى تحصيل العلوم الالهية ، دون العلوم التقليدية ، ولذلك لم يحضوا على دراسة العلم ، ولا تحصيل ما صنفه المصنفون ، وإنما حضوا على الاشتغال بالله تعالى وحده ، والاشتغال بذكر الله فقط (!؟)

١٩ - وأنكروا عليه تفسير قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام : « واجبني وبنِي ان نعبد الاصنام » . فقد قال : الاصنام الذهب والفضة . وعبادتها جهمها والاغترار بهما . وواضح أن هذا التفسير بعيد عن المعنى المراد .

٢٠ - وأنكروا عليه أيضاً نميريه قول سهل التستري : إن للربوبية سراً لو ظهر بطلت النبوة ، وان للنبوة سراً لو ظهر بطر العلم ، وان للعلماء بالله سراً لو ظهر بطلت الاحكام والشريائع (!?)

وأنا أكتفي بهذا القدر من أغلاط الاحياء ، فيه صورة واضحة لآراء العلماء في ذلك الكتاب ، وسترى في باب غير هذا أن هذه الحركة العنيفة لم تخدم بموت الفزالي ، بل ظلت تأثيره عدة أجيال . وما عجبت لشيء عجبي للزبيدي ، فقد تولى تفنيد هذه المأخذ ، واحداً واحداً ، وهو نصف مقوت ، يكفي أن تعلم أنه لا يرتكز على قاعدة مسلمة ، من عرف ، أو تشريع ، وإنما يستند على قواعد من التصوف بنيت على الماء .

ومن أراد التحقق من صحة هذا الحكم فليرجع الى الجزء الأول من
شرح الاحياء ، من ص ٢٧ الى ص ٤٠

ومن الأجبوبة السخيفة ما أجاب به السبكي عن الغزالى فى قص
الأظفار فقد قال : وأما ما ذكروه فى قص الااظفر فالامر المشار اليه يرى
عن على كرم الله وجهه غير أنه لم يثبت وليس فى ذلك كبير أمر ولا
مخالفة شرع ، وقد سمعت جماعة من الفقراء يذكرون أنهم جربوا
فوجدوه لا يخطىء و من داوم عليه أمن من وجع العين . ويررون من
شعر على كرم الله وجهه هذا :

ابداً يعناك وبالختصر فى قص أظفارك واستبصر
واختم بسبابتها هكذا فافعله فى الرجل ولا تمر
وابداً ليسراك بابهامها والأصبح الوسطى وبالختصر
ويتبع الخنصر سبابة بنصرها خاتمة الآيسر
هذا أمان لك قد حزته من رمد العين كما قد قرى
والسخف ظاهر كل الظهور فى هذا الجواب ، والا فما هي الصلة
بين قص الأظفار بهذه الكيفية ، وبين الأمان من وجع العين ؟ وكيف قال
على بن أبي طالب هذا الشعر السخيف وقد كان من أفعى الناس ؟
الواقع أن الغزالى كان فتنة من فتن المصور القديمة ، وقد نسى
العلماء فى الدفاع عنه أن هناك عقلاً يجب أن يحكم ، وأنه لن يخلو
العالم من أصحاب العقول ، ولو كره الجامدون !

الفصل الخامس غفلة الغزالى وعناده

- ١ -

أما غفلته فدليلها بما في كتبه من الأحاديث الضعيفة والموضوعة
وهي تقرب من ستمائة حديث

وأنا لا أشك في نزاهة الفزالي وبعده من الكذب على رسول الله ،
فمحال على مثله في ورمه وتقواه أن يزور على النبي حديثا ، أو يضع
في كتبه أحاديث يعلم أنها من الموضوعات . وحقيقة الأمر أن الرجل
كان « يمتاز » بقسط كبير من الغفلة والبساطة ، والا فكيف صدق أن
النبي يقول : « ان الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ » .
وأقل الناس علما بالبلاغة يدرك أن رسول الله لا ينطق بمثل هذا الحديث
وكيف يصدق ما روى من أن جبريل نزل فقال : « ان الله يقرئك
السلام . ويقول : أتحب أن أجعل هذه العجائب من ذهب فتكون معك
أينما كنت ؟ » .

ومالى أطيل في نقد ما جاء في الاحياء منها لا استناد له من الأحاديث
وهي مسطورة في طبقات الشافعية ، في ثمان وثلاثين صفحة من الجزء
الرابع . والضعف فيها ظاهر لا يحتاج إلى دليل .

- ٢ -

وأما عنده فدليله اصراره على ابقاء ما جاء في كتبه من الأغلاط
ورميء ناقديه بالغباء ، والحسد ، والكذب ، مع أنه كان يجعل به أن
يتأمل نقدمهم برفق ، ويميز بين الفت منه وبين السمين ، ولكنها اندفع
كالصخر حطه السيل من شاهق ، وأخذ يرميهم بالزبغ والفسوق .

وببيان ذلك أنه ما زال يغرب معاصروه في الانكار عليه حتى ضاق
لامذته ذرعا بذلك ، فكتب اليه أحدهم يرجوه دحض تلك المزاعم
فصصف كتابا سماه : « الاملاء في اشكالات الاحياء » . وما نريد الآن
تلخيص هذا الكتاب ، فهو في أيدي الناس ، وإنما نذكر مقدمته لنرى
كيف اتى بما فعل أولئك المنكرون ، فان في هذا صورة لجانب من
جوابه الأخلاقية ، وهو يدلنا على الأقل على مبلغ ثقته بنفسه ، وایمانه
بصحة ما جاء في الاحياء ، وعدم اكتراثه بآراء الناس .

قال : (سألت يسرك الله لم راتب العلم تتصد مراقيها ، وقرب لك
 مقامات الولاية تحل مغانيها ، عن بعض ما وقع في الاملاء الملقب بالاحياء
 مما اشکل على من حجب فهمه ، وقصر علمه ، ولم يفر بشيء من
 الحظوظ الملكية قدحه وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شوّش به شركاء
 الطفان ، وأمثال الانعام ، وأجماع العوام ، وسفهاء الأحلام ، وعار أهل
 الاسلام ، حتى طعنوا عليه ، ونهوا عن قراءته ، وأفتو بمجرد الهوى
 على غير بصيرة باطراحه ومنابذته ، ونسبوا مملمه إلى ضلال وأضلال
 وتبدوا قراءه ومتاحيله بزيف في الشريعة واحتلال ، فالله انصرافهم
 وما بهم . وعليه في العرض الأكبر ايقافهم وحسابهم ، فستكتب شهادتهم
 ويسألون ، « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » . بل كذبوا بما
 لم يحيطوا بعلمه ، واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم ، ولو
 ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستبطونه منهم .
 ولكن الظالمون في شفاق بعيد . ولا عجب فقد ثوى^(١) أدلاء الطريق
 وذهب آرباب التحقيق ، فلم يبق في الغالب الا أهل الزور والفسوق
 متشبيئين بدعاوي كاذبة ، متصفين بحكايات موضوعة ، متزيئين بصفات
 منمقة ، متظاهرين بظواهر من العلم فاسدة ، ومتقاطعين بحجج غير
 صادقة ، كل ذلك لطلب دنيا أو مجنة ثناء ، أو مقابلة نظراء . قد ذهبت
 المواصلة بينهم بالبر . وتألقوا جميعا على الفعل المنكر . وعدمت النصائح
 منهم في الأمر ، وتصافوا بأسرهم على الخديعة والمكر ، إن نصتهم
 العلماء أغروا بهم ، وان صمت عنهم العقلاء أزرعوا عليهم ، أولئك الجهل
 في علمهم ، القراء في طولهم ، البخلاء عن الله عز وجل بأنفسهم
 لا يفلحون ولا ينجح تابعهم ، ولذلك لا تظهر عليهم موارثة الصدق ، ولا
 تستطع حولهم أنوار الولاية ، ولا تتحقق لديهم أعلام المعرفة ، ولا يستر
 عوراتهم لباس الخشية . لأنهم لم ينالوا أحوال النباء ، ومراتب النجاء

^(١) هلك .

وخصوصية البداء ، وكرامات الأوتاد ، ولو عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق . وعلموا علم أهل الباطن) ٠٠٠ الى آخر ما قال .

وبقليل من التأمل نعرف من هذه المقدمة أن الغزال يصر بعد أن نقدمه معاصروه على التشكيك بأذىال الصوفية . وييمكنا أن تتوقع ما سيجيء به في كل ما أخذ عليه من الوجهة الشرعية ، ويجب أن نفهم ذلك منذ الآن ، لتخرج كل ما نقلناه في آرائه الأخلاقية من الشذوذ هذا التخريج ولنرجع اسرافه في بعض المواطن الى هذا الأصل الذي اختاره وارتضاه وهو التصوف والا فمن هم النباء ، والتجاء ، والبداء ، والأوتاد ، ان لم يكونوا جماعة من المتصوفة الذين يستريحون ما لا يباح ؟!

ومن أظرف ما أجاب به الغزال فيما أخذ عليه من الأغلاط التحويية ، أنه قليل الخبرة بال نحو ، ثم ما أجمل نصيحة للامته بأن يصلحوا ما يعثرون عليه من أشباه هذه الأغلاط ! ويا ليته نصح بمثل هذا في اصلاح ما ضل فيه من الأحكام :

الكتاب على الغزال

ومما يجب التبه له أن الغزال لم يسلم من الكذب عليه فقد وضع المؤلفات باسمه ، واتجر به المضللون . ويدرك الزبيدي من هذه الكتب : (السر المكتوم في أسرار التجوم) وينص على أن هذا الكتاب نسب أيضا إلى الفخر الرازي ، وأنه سئل عنه فأنكره . ومما دس على الغزال كتاب : تحسين الظنون ، وكتاب النفح والتسوية ، وكتاب المصنون به على غير أهله . قال السبكي : ذكر ابن الصلاح أنه منسوب إليه ، ثم قال : معاذ الله أن يكون له . وبين سبب كونه مختلقاً موضوعاً عليه . قال الزبيدي : والأمر كما قال : فقد اشتمل على التصريح بقدم العالم ، ونفي علم القديم بالجزئيات ، وكل واحد من هذه يكفر الغزال قائلها هو وأهل السنة أجمعون ، فكيف يتصور أنه يقولها ؟

وقد ذكر الأستاذ الدكتور على العناني في محاضراته بالجامعة المصرية أنه يبعد أن يكون «المضنون به على غير أهله» هو ما بأيدي الناس، لأن هذا الكتيب الضعيف لا يدل على المعنى الذي قصده الفزالي من «المضنون به على غير أهله» ويرجح الدكتور العناني أن يكون «المضنون به على غير أهله» كتابا ضخما يشمل آراء الفرزالي الفلسفية التي يصنف بشرها على الجمهور.

وعندى أن رأى الدكتور العناني صواب لأمرتين: الأولى أن الفرزالي كان ينصح دائما بأن لا يلقى لل العامة غير الكلام البسيط فمن المعقول أن تكون له آراء خاصة تختلف ما في كتاب الاحياء وأمثال كتاب الاحياء الثاني ما ذكره الزبيدي من أن كتاب «المضنون به على غير أهله» يشتمل على التصریح بقدم العالم ونفي علم القديم بالجزئيات، فان هذه المسائل لا توجد في النسخة التي يتداولها الناس.

وقد رجح جرجى زيدان فى فهرس تاريخ «الآداب العربية»، أن كتاب : «الثبر المسبوك» مدسوس على الفرزالي، وقد حاولت تحقيق ذلك، فوجدت ما يقرب رأى جرجى زيدان وما يبعده. أما ما يقربه فهو اسقاط اسم من ترجمته من الفارسية. وظهور الكتاب بمظاهر الصحف فى كثير من الموضوعات، وأما ما يبعده فهو تقارب مادته من مؤلفات الفرزالى الأخلاقية، وحالته على الاحياء فى كلامه عن رذيلة الغضب الا أن يكون من دسه عليه غنى فعلته تلك بهذه القرائن الصناعية، التى توهם القارىء أن لا وضع ولا اختلاف. وما لا مرية فيه أن مصنفات وضعت باسم الفرزالى، فاما عددها فلا يزال مقلنة الارتياب.

ولا يفوتنا في ختام هذا الباب أن نذكر القارئ بما لاحظناه فيما سلف من اختلاف آراء الغزالي في كتبه ، باختلاف سنّه ، وصحته .
فقد وضع مؤلفاته في ظروف مختلفة ، كان في بعضها يحكم العقل والشرع ، وكان في بعضها يساير الصوفية في أوهامهم ووساوسهم .
والرجل في الواقع معدور ، فقد كان يؤلف في أوقات لا تصلح مطلقا للتأليف ، لأنّه يشترط في المؤلف ما يشترط في القاضي من الصحة وهدوء البال .

الباب الخامس

في مباحث تمس الأخلاق

نبين في هذا الباب قيمة العمل في ذاته ، شر هو ألم خير ، حسن ألم قبيح ، ضار ألم نافع . ثم تكلم عن الارادة ، وعن الضمير ، وعن الأغراض والنتائج ، والوسائل والغايات . وسألينا في هذا الباب أن نجمل الآراء الفلسفية اجمالاً لتبين بازائتها آراء الغزالي نوعاً من البيان .

الفصل الأول

الخير والشر

العمل الذي يجب أن يعمل ، أو يحسن أن يعمل ، هو الخير والعمل الذي يجب أن لا يعمل ، أو ينبغي أن لا يعمل ، هو الشر . فللخير درجات ، وللشر درجات .

هذه لغة اليوم . أما الغزالي فكان تارة يسمى ما يجب أن يعمل واجباً ، وما يحسن أن يعمل مستحبـاً ، وما يجب أن لا يعمل حرامـاً وما ينبغي أن لا يعمل مكروهاً وما عدا أولئك فهو مباح .

وكان تارة أخرى يقسم الأفعال إلى : حرام ، وواجب ، ومحظوظ . أما الحرام فهو المقول فيه : اتركتوه ولا تفعلوه . وأما الواجب فهو المقول فيه : افعلوه ولا تتركوه . وأما المحظوظ فهو المقول فيه : ان شتم فاعلوه وإن شتم فاتركوه .

الحسن والقبح

وربما قسم العمل الى : حسن ، وقبح ، ومحاج - واليك اجمال ما فصله في كتابه « المستصفى في الأصول » :

هناك اصطلاحات ثلاثة مختلفة في اطلاق لفظ الحسن والقبح :

الأول - أن الأفعال تقسم الى ما يوافق غرض الفاعل ، والى ما يخالفه ، فالمواافق يسمى حسنا ، والمخالف يسمى قبيحا ، والثالث يسمى عثما .

الثاني - الحسن ما حسن الشرع بالثناء على فاعله . ويقول الفزالي : ويكون المأمور به شرعا ، ندبا كان أو ايجابا ، حسنا ؟ والماجح لا يكون حسنا .

الثالث - الحسن ما لفاعله أن يفعله ، فيكون المباح حسنا مع المأمورات .

والمقصود من هذه الاصطلاحات الثلاثة هو ما حسن الشرع أو قبحه . وهنا يجزم الفزالي بأن العمل لا يكون حسنا لذاته ، ولا قبيحا لذاته ، فيخالف المعتزلة الذين يقولون بأن من الأعمال ما يدرك حسنها بضرورة العقل ، كأنقاذ الغرقى والهلكى . ومعرفة حسن الصدق ، ومنها ما يدرك قبحه بضرورة العقل : كالكفران وايلام البرى ، والكذب الذى لا غرض فيه .

ويحتاج المعتزلة لذلك : بأننا نعلم قطعا أن من استوى عنده الصدق والكذب آثر الصدق ، ومال اليه ان كان عاقلا ، وليس ذلك الا لحسنها وأن القوى اذا رأى ضعيفا مشرفا على الهلاك يميل الى انقاذه ، وان كان لا يعتقد أصل الدين ليتضرر ثوابا ، ولا يوافق ذلك غرضه ، فقد يتبع به ، بل يحكم العقلاء بحسن الصبر على السيف اذا أكره المرء على افساء السر أو نقض المهد .

ويجب الفرزالى : بأنه لا ينكر اشتهر هذه القضايا بين المخلق وكونها محمودة ، ولكنه يصر على أن مستدتها : اما التدين بالشريائع واما الأغراض .

مثارات الغلط

ولكن الأغراض قد تدق ، فلا يتبه لها الا المحققون ، من أجل ذلك نبه على مثارات الغلط ، وهي ثلاثة :

الأول : أن الإنسان يطلق اسم القبح على ما يخالف غرضه ، وان كان يواافق غرض غيره . فان كل طبع مشغوف بنفسه ، فيقضي بالقبح مطلقا ، وربما يضيّف القبح الى ذات الشيء ، فيكون قد قضى بأمور ثلاثة ، هو مصيبة في واحد منها ، وهو أصل الاستباح ، ومخطيء في أمرين : أحدهما اضافة القبح الى ذاته ، اذ غفل عن كونه قبيحا لمخالفته غرضه ، والثانى حكمه بالقبح مطلقا ، ومنشؤه عدم الالتفات الى غيره بل عدم الالتفات الى أحوال نفسه ، فانه قد يستحسن في بعض الأحوال عين ما يستتبعه اذا اختلف الفرض .

الثانى : ما هو مخالف للغرض في جميع الأحوال ، الا في حالة واحدة نادرة ، قد لا يلتفت اليها الوهم ، بل لا تخطر بالبال ، فيراه مخالفًا في جميع الأحوال ، فيقضي بالقبح مطلقا ، لاستيلاء أحوال قبحة على قلبه ، وذهاب الحالة النادرة عن ذكره .

الثالث : سبق الوهم الى العكس ، فان ما يرى مقررونا بالشيء يظن أن الشيء أيضًا مقررون به مطلقا لا محالة ، ومثاله نفرة من نهشته الحية من الجبل البرقش اللون ، لأنها وجد الأذى مقررونا بهذه الصورة فتوهم أن هذه الصورة مقرونة بالأذى ، فان الوهم عظيم الاستيلاء على النفس ، ولذلك ينفر طبع الانسان من الميت في بيت فيه ميت ، مع قطعه بأنه لا يتحرك ، ولكنه يتوهم في كل ساعة حركته ونطقه .

نفط حجة المعتزلة

وبعد أن بين الغزال هذه المثارات أخذ ينافس ما احتج به المعتزلة وهو يرى أن الانقاذ إنما يترجع على الاهتمام في حق من لا يعتقد الشرائع ، لدفع الأذى الذي يلحق الإنسان من رقة الجنسية ، وهو طبع يستحيل الانفكاك عنه ، وسيبيه أن الإنسان يقدر نفسه في تلك البالية ويقدر غيره معرضًا عنه وعن انقاذه ، فيستحبه منه بمخالفة غرضه ويعود فيقدر ذلك الاستقباح من المشرف على الهلاك في حق نفسه فيدفع عن نفسه ذلك القبح التوهم ، فان فرض في بهيمة أو في شخص لا رقة فيه ، فهو بعيد تصوره . ويبقى أمر آخر : هو طلب النساء على احسانه . فان فرض حيث لا يعلم أنه المنفذ ، فقد يتوقع أن يعلم فيكون ذلك التوقع باعثا . فان فرض في موضع يستحيل أن يعلم ، فقد يبقى في النفس ميل يضاهي نفرة طبع المدودغ من الجبل المبرقش وذلك أنه رأى هذه الصورة مقرونة بالثناء فظن أن النساء مقرنون بها على كل حال ، والمرءون باللذيد لذيد ، كما أن المقرنون بالمكروره مكروره .

بل الإنسان اذا جالس من عشقه في مكان . فانه يحسن من نفسه بتفرقة بين ذلك المكان وغيره ، اذا انتهى اليه . ولذلك قال الشاعر :

أمر على الديار ديار نيلي أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

وقال ابن الرومي :

وحب أوطان الرجل اليهم مأرب قضاها الشباب هنالكا
اذا ذكروا أوطانهم ذكرت لهم عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

وكذلك اخفاء السر ، وحفظ العهد . انما تواصي بهما الناس لما فيهما من المصالح . فمن يحتمل في سيلهما الضرر ، فانما يحتمله لأجل

الثناء ، فان فرض حيث لا ثناء ، فقد وجد مقرورنا بالثناء . فيميل الوهم
إلى المقرور باللذيد وإن كان خاليا عنه .

تحرير هذا البحث

هذه خلاصة ما يراه الغزالي في تأييد أهل السنة، وتحطيمه المعتلة.
وتكون النتيجة على رأى أهل السنة أنه لا حسن ولا قبح قبل ورود
الشرع ، وأنه لا ثواب ولا عقاب قبل ورود الشرع وهذا الرأى خطأ من
وجهين :

الأول - مخالفته لجواهر الشريعة ، فان الشريعة انما جاءت لهدایة
الناس ، ولا معنى للهدایة غير ارشادهم إلى ما حسن أو قبح من الأفعال
ليفعلوا الحسن ، ويتجنبو القبيح . ولو كانت الأعمال خالصة في ذاتها
من صفة الحسن والقبح ، لما كانت هناك حاجة إلى الشرائع ، ولكن خيرا
للناس أن لا يحملوا أعباء التكاليف .

الثاني - استهانه بالشخصية الإنسانية ، فإنه اذا صح أن لا حكم
للعقل قبل ورود الشرع ، فان معنى ذلك أن الشخصية الإنسانية لا تصلح
لفهم حقائق الأشياء ، وما أدرى كيف صاحت بعد ذلك لحمل أمانة الدين
الحنيف ؟

والواقع أن الأشاعرة يجرون على العقل حين يحكمون بأن التحسين
والتبسيح لا يكون الا بالشرع . فالزنا عندهم قبيح ، لا لضرره كما يحكم
 بذلك العقل ، بل لأن الشرع حكم بقبحه ، وعلى ذلك لو حكم الشرع
 بحسن الزنا لكان حسنا ، ولو جد الأشاعرة من أوجه المغالطة ما يثبتون
 به أنه حسن ، ولهذا الرأى نتيجة من أسوأ النتائج : وهي الركون إلى
 ما وقع في الشرائع من الأغلاط ، فقد يندر أن تجد شريعة لم تمتد إليها
 يد التحرير ، فإذا شئت أن تحاكم إلى العقل لتقوى الشرائع من أوشاب

يظهر من تأمل مؤلفاته : أنه يفرق بين الخير في العمل ، والخير في الاعتقاد ، اذ يراه يقول في ص ٤٧ من الجزء الثالث من الاحياء :

« اذا حكم قلب المفتقى بايجاب شيء ، وكان مخطئا فيه ، صار متابا عليه . بل من ظن أنه تطهر ، فعليه أن يصل . فان صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأ كان له ثواب بفعله ، فان تذكر ثم تركه كان معاقبا عليه ، ومن وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته ، لم يعص بوطئها ، وان كانت أجنبية فان ظن أنها أجنبية ، ثم وطئها ، عصى بوطئها وان كانت زوجته» .

ويراه يقول في ص ١١ من كتابه «المتقد من الضلال » :

«والطبيعون قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات . وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوان فرأوا فيها من عجائب صنع الله وبدائع حكمته ما اضطروا معه إلى الاعتراف بقاطر حكيم مطلع على غيات الأمور ومقاصدها . ولا يطالع التشريح ونافع الأعضاء مطالع الا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان ، ولا سيما الإنسان . الا أن هؤلاء لكترة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم في قوى الحيوان ، فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضا ، وأنها تبطل بطلاق مزاجه ، فتendum . ثم اذا انعدمت فلا يعقل اعادة المدوم كما زعموا فذهبوا الى أن النفس تموت ولا تعود ، فجحدوا الآخرة . وهؤلاء أيضا زادتهم جحودا أصل الايمان هو الايمان بالله وبالرسول واليوم الآخر وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر وان آمنوا بالله وبصفاته » .

وتهافت الغرالي في هذا الحكم واضح . فقد قرر أن من يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء يحصل له العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان والانسان ، فهو اذن أقوى ايمانا وأرسخ عقيدة من لم يطالع التشريح . ولكن الباحث في منافع الأعضاء مضطر الى أن يؤمن بأثر المزاج فيما يعتور النفس من قوة وضعف ، وهو بالتالي مضطر الى

يظهر من تأمل مؤلفاته : أنه يفرق بين المخır في العمل ، والمخır في الاعتقاد ، اذ يراه يقول في ص ٤٧ من الجزء الثالث من الاحياء :

« اذا حكم قلب المقتى بایجاب شيء ، وكان مخطئاً فيه ، صار مثاباً عليه . بل من ظن أنه تطهير ، فعليه أن يصل . فان صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأً كان له ثواب بفعله ، فان تذكر ثم تركه كان معاقباً عليه ، ومن وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته ، لم يعص بوطئها ، وان كانت أجنبية فان ظن أنها أجنبية ، ثم وطئها ، عصى بوطئها وان كانت زوجته».

ويراه يقول في ص ١١ من كتابه «المنقذ من الضلال» :

«والطبيعون قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والبنات . وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوان فرأوا فيها من عجائب صنع الله وبدائع حكمته ما اضطروا معه إلى الاعتراف بباطر حكيم مطلع على غيات الأمور ومقاصدها . ولا يطالع التشريح ونافع الأعضاء مطالع الا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان ، ولا سيما الإنسان . الا أن هؤلاء لكثرتهم بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم في قوى الحيوان ، فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً ، وأنها تبطل ببطلان مزاجه ، فتعدم . ثم اذا انعدمت فلا يعقل اعادة المدحوم كما زعموا فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود ، فجحدوا الآخرة . وهؤلاء أيضاً زنادقة . لأن أصل الإيمان هو الإيمان بالله وبالرسول واليوم الآخر وهو زنادقة جحدوا اليوم الآخر وان آمنوا بالله وبصفاته » .

وتهافت الغزال في هذا الحكم واضح . فقد قرر أن من يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء يحصل له العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان والانسان ، فهو اذن أقوى ايمانا وأرسخ عقيدة من لم يطالع التشريح . ولكن الباحث في منافع الأعضاء مضطر إلى أن يؤمن بأثر المزاج فيما يتعود النفس من قوة وضعف ، وهو بالتالي مضطر إلى

الإيمان بأن النفس تموت . واذن فهو زنديق فيما يرى الغزالى ! وكيف ذلك والغزالى يرى أن من وجد على فراشه امرأة فلن أنها زوجته لم يعص بوطئها وان كانت أجنبية ؟!

لقد صرخ الغزالى في عدة مواطن من كتبه ، بأن من حمل على شرب الخمر لا يجد ؟ وصرح في ميزان العمل بأن الأمزجة تشكل الأخلاق ؟ فهو يرى الاختيار شرطا للمؤاخذة ، كما أوضح ذلك حين تكلم عن حديث النفس في الجزء الثالث من الاحياء ، فكيف يحكم بکفر الرجل العالم الذى أقنعه العلم مثلا بأن النفس تموت ؟ أیرى الغزالى أن من المحرم شرعاً أن يدرس التشريع ؟ وإذا كانت الشريعة تدعو الى تحكيم العقل كما نطق بذلك القرآن ، أليس معنى ذلك أنه ليس للشريعة أن تضع بنفسها نتيجة ذلك التحكيم ، والا كان ايمانا بقوه الحديد ؟

الحق أن الغزالى مال كثيرا الى ترضية العامة حين بحث صحة الایمان ، حتى رأيناه يذكر أن المرء قد يتكلم بما هو کفر وهو لا يدرى !

وما أغرب قوله في كتابه المنقد من الصالاب : « ثم رد ارسططاليس على أفلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الالهين ، ردوا لم يقصر فيه حتى تبراً من جميعهم ، الا أنه استقى أيضا من رذائل کفرهم بقايا لم يوفق للنزوع منها . فوجب تکفیره ، وتکفیر متبعيه ، من متفلسفۃ الاسلاميين : کابن سينا والفارابي ، وأمثالهم » .

والغزالى الذى أسرف هذا الاسراف في الحكم على الإيمان وفق كل التوفيق حين دعا الى حسن الظن بالناس . وانظر ما قاله في تحريم الفية بالقلب « ليس لك أن تعتقد في غيرك سوءا الا اذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل ٠٠٠ حتى أن من استكه فوجد منه رائحة الخمر

لا يجوز أن يحد ، اذ يقال يمكن أن يكون قد تمضمض بها ومجها وما شربها ، أو حمل على الشرب قهراً . فكل ذلك لا محالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب ، واسأةطن بالمسلم بها .

وعندى أن الرجل لا يكفر الا اذا عرف الحق وعاند ، فـأى فيلسوف رأى رأياً شاداً عن حسن قصد فهو ناج ولو كان رأيه يخالف الدين مخالفة صريحة . فكان من الحق على الفرزالي أن يقيم الأدلة على ما عند ابن سينا والفارابي من العناد ، وسنعود الى تفصيل هذا الرأى فى غير هذا الباب .

مقاييس الخير والشر

ومع أن الفرزالي قرر أن لا دخل للعقل فى حسن العمل وقبحه وإنما الأمر فى ذلك للشرع ، فقد رأيناه يقيس العمل بمقاييس العقل والشرع معاً ، حين يريد أن يحكم : أخير هو أَمْ شر . فالعمل خير اذا وافق العقل والشرع ، وشر اذا خالف العقل والشرع .

ولم يفرد الفرزالي باباً لهذا البحث ، ولكنـه نوه بمدلوله فى مواطن كثيرة ، فقد جاء فى ص ٨١ من ميزان العمل فى تعريف السخاء ما نصه : « هو أن يتيسر عليك بذلك ما يقتضى الشرع والعقل بذلك عن طوع ورغبة ويتيسر عليك امساك ما يقتضى الشرع والعقل امساكه عن طوع ورغبة وجاء فى ص ١٣٦ من هذا الكتاب ما نصه : « وعماد عفة الجوارح كلها أن لا يطلقها فى شيء مما يختص بها إلا فيما يسوغه العقل والشرع وعلى الحد الذى يسوغه » . وقال فى ص ٥٧ من الجزء الثالث من الاحياء « وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت اشارة العقل والشرع » . وقال فى وصف العمل الصالح : « وذلك بأن يكون موزونا بميزان العقل والشرع » . ص ٢٢ ج ٣ احياء .

اغفال الفرزالي لهذا المقياس

هكذا يقاس الخير والشر بمقاييس العقل والشرع فيما يرى الفرزالي .
ولكن ما هو الشر ؟ وما هو العقل ؟

ان الفرزالي نفسه وضع في الأخلاق أحكاما لا نظتها تستند على عقل او دين ! ولنضرب مثلا بما وضعته لنظام الطعام . جاء في الميزان ص ١٨٤ ما نصه : « وأما المطعم فهو الأصل العظيم . اذ المعدة مفتاح الخيرات والشرور - ولهذا أيضاً ثلاث مراتب : أدنها قدر الضرورة وهو ما يسد الرمق ويبقى معه البدن ، وقوه العبادة . وذلك يمكن تقليله بالعادة تارة بتقليل الطعام شيئاً فشيئاً حتى يتعود الصبر عنه عشرة أيام وعشرين . وقد انتهى الزهاد في القدر كل يوم الى حمصة وبعدهم في الوقت الى عشرين يوماً ويقل أربعين . وهذه رتبة عظيمة يقل من يستقل بها » وقد أطال القول في فضائل الجوع في الرابع الثالث من الاحياء حتى قال : « روى أن عيسى عليه السلام مكث ينادي ربه ستين صباحاً لم يأكل فخطر بباله الخبز فانقطع عن المناجاة ، فإذا رغيف موضوع بين يديه فجلس يبكي على فقد المناجاة ، وإذا شيخ قد أظله ، فقال له عيسى : بارك الله فيك يا ولی الله ، ادع الله تعالى لي ، فانی كنت في حالة فخطر ببالي الخبر فانقطعت عنی ! فقال الشيخ : اللهم ان كنت تعلم أن الخبر خطر ببالي منذ عرفتك فلا تغفر لي ! بل كان اذا خطر لى شيء أكلته من غير فكر ولا خاطر ! » .

وقال أيضاً « الفائدة السابعة من فوائد الجوع - تيسير المواصلة على العبادة . فان الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنّه يحتاج الى زمان يشتغل فيه بالأكل ، وربما يحتاج الى زمان في شراء الطعام وطبخه ، ثم يحتاج الى غسل البدن والخلال ، ثم يكثر ترداده الى بيت الماء لكتراة شربه والأوقات المصروفة الى هذا لو صرفها الى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربيحة » .

فهي الكلمة الأولى نراه يدعو الى تقليل كمية الطعام حتى تصل الى
خمسة ، وتطويل المدة حتى تصل الى عشرين يوماً أو أربعين ، ثم بعد
هذه الرياضة رتبة عظيمة . فياليت شعرى ، أيرضى بذلك العقل ، وهو
لا يرضى بأقل من أن يكون المرء حياً فيه فضائل الحياة من قوة ونشاط؟
أم يرضى بذلك الشرع ، وهو لا يرضى بأقل من أن يكون الرجل جندياً
يضرب في الأرض ، ويحرس الثغور ، ويرهب القوم الكافرین ؟

وفي الكلمة الثانية ، يصف عيسى بما لا ينبغي أن يوصف به
الأنبياء ، والا فكيف ينبغي لنبي أن ينادي ربستين صباحاً بلا طعام
وهو مسئول عن الدعوة الى دينه ، وقلت ينجح في الدعوة ضعيف؟ هذه
جراة في وصف الأنبياء والمرسلين ، فما أحسبهم الا رجالاً اشداء تمت
لهم صفات القتوة والرجلة ، أما هذه الرهبة التي تصورها الغزالي فلا
تنتج غير الضعف والخمول ، وما كان الأنبياء كساً ولا واهنين .

وفي الكلمة الثالثة ، يستكثر على المرشد أن يضيع وقتاً في شراء
الطعام وطبخه ، ثم غسل يده ، وتخليل أسنانه ، وما أدرى كيف يسير
الناس ، اذا قاسوا الخير والشر بهذا المقياس !

الواقع أن الغزالي وضع مؤلفاته في الأخلاق مشربة بنزعة صوفية
بل صرح بأن مدار أكثر كتابه الميزان على مذهب التصوف . والتصوف
ليس مذهب الأحياء ، ولكنه مذهب الأموات . وما ظنك بمذهب يحيى
للغزالي أن يصور للنظر للمستقبل بهذه الصورة التكراة حين يقول
« وأرفع الدرجات درجة من لا يلتفت الى غشه ويقصر همته على يومه
ويومه على ساعته ، و ساعته على نفسه ، وقدر نفسه كل لحظة مرتاحلاً من
الدنيا أو مستعداً للارتحال » .

وما أظن أمة تفهم الأخلاق هذا الفهم ، ثم تقدر على الجلاد في عالم
الحياء . ولم يبعد من وصف الأخلاق في رأي الغزالي بأنها أخلاق
العيid !

الفصل الثاني الارادة

- ١ -

وردت كلمة الارادة في كتب الغزالى لأغراض متعددة : فتارة ي يريد بها السلوك في طريق الله ، ومنها المريد الذى يريد كثيرا في كلامه ويريد به السالك في ذاك الطريق ، طريق الصوفية .

وللارادة بهذا المعنى شرط يتقدمها : وهو رفع السد الذى بين المريد وبين الحق ، وهذا السد فيما يرى الغزالى أربعة أشياء : المال والجاه ، والمعصية ، والتقليد .

ويرفع حجاب المال بخروج المريد عن ملكه ، حتى لا يبقى له إلا قدر الضرورة . ويرفع حجاب الجاه بالبعد عن مواطنه مع ايثار الخمول . ويرفع حجاب التقليد بتترك التعصب للمذاهب . أما المعصية فلا يرفعها الا التوبة ، والندم ، والعزم على عدم العود والخروج من المظالم .

والتجدد من هذه الحجب هو فيما يرى الغزالى كالظهور للصلة ولا بد للمصلى من امام . فكذلك لا بد للمريد من أستاذ ، وقد وضع عدة آداب للمريد مع أستاده ، وليس ذلك مما يعنيه الآن . ويكتفى أن يعرف القارئ ما يقصد من كلمة مرید التي يكثر ذورانها في « الميزان » و « المنهاج » و « الاحياء » .

- ٢ -

وتارة يذكر الارادة ويريد بها ما ينبعث عن المعرفة ويسخر القدرة والارادة بهذا المعنى هي المقصودة عند علماء الأخلاق . ولها عند الغزالى أسماء مختلفة : فراء حينا يسميها القوة العاملة اذ يقسم قوى النفس

الإنسانية إلى قوة عالمية ، وقوة عاملة ، ويذكر أن الثانية « هي قوة ومعنى للنفس هو مبدأ حركة بدن الإنسان إلى الأفعال المعينة الجزئية المختصة بالفكرة والروية على ما تقتضيه القوة العالمية النظرية » الميزان ص ٢٦ .

ونراه حيناً آخر يسمىها النية . ويعنونها كذلك في الأربعين والاحياء . فلو أنك نظرت في الفهرست لتعرف في أي موضع تكلم عن الإرادة ، ثم نظرت في الفصل الذي شرحها فيه ، لما رأيتها الإرادة التي يتكلم عنها الأخلاقيون ، وإنما رأيتها الإرادة التي عناها الصوفية ، واشتقو منها كلمة مرید . فاما الإرادة التي هي من موضوعات الأخلاق ، فاسمها عند الغزالى النية ، وله في شرحها كلام طويل .

- ٣ -

يقول الغزالى « إن النية والإرادة والقصد ، عبارات متوازدة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب ، ويكتفيها أمران : علم وعمل . والعلم يتقدم لأنه أصل وشرط . والعمل يتبع لأنه ثمرة وفرع . وذلك لأن كل عمل ، أعني كل حركة وسكون اختياري . لا يتم إلا بثلاثة أمور : علم ، وارادة ، وقدرة . لأنه لا يريد الإنسان ما لا يعلمه ، فلا بد وأن يعلم ، ولا ي العمل ما لم يرد فلابد من ارادة ، ومعنى الإرادة ابعاث القلب إلى ما يراها موافقاً للغرض ، اما في الحال ، واما في المآل » ص ٣٨١ ج ٤ احياء .

ويقول (النية هي الإرادة الباعثة للقدرة ، المبنية عن المعرفة . وبيانه أن جميع أعمالك لا تصح الا بقدرة وارادة وعلم ، والعلم يهيج الإرادة ، والإرادة باعثة للقدرة ، والقدرة خادمة الإرادة) ص ٢٦٢ من الأربعين .

و واضح أن الإرادة كما يراها الغزالى لا تختلف عما نراه الآن فانك لا تجده فرقاً بين كلامه هذا وبين قول جول سيمون (والواقع أننا

لأجل أن نعمل يجب أن نريد ، ولأجل أن نريد يجب أن نعرف ماذا نريد ، ولماذا نريده) الواجب ص ١٩ ٠

- 5 -

ويقرر الغزالي فوق ما تقدم أنه لا يكفي أن يعلم الإنسان صواب العمل ليريده وينفذه ، بل لا بد من أن يقوى في نفسه كون الشيء موقعا له ، فإذا جزمت المعرفة بأن الشيء موفق ولا بد أن يفعل ، وسلمت عن معارضته باعث آخر صارف عنه ، انبعثت الارادة ، ونهضت القدرة لتنفيذ المراد .

ويقرر كذلك أن نهوض القدرة للعمل قد يكون بباعت واحد ، وقد يكون بباعتين اجتمعا في فعل واحد + وإذا كان بباعتين فقد يكون كل واحد من القوة بحيث لو انفرد لكان كافيا لانهاض القدرة ، وقد يكون كل واحد قاصرا عنه الا بالاجتماع ! وقد يكون أحدهما كافيا لولا الآخر ، ولكن قام الآخر بمعاونته + فالباعت الثاني اما شريك أو رفيق أو معين + ولهذا التقسيم مزية في تقدير ما في العمل من خير أو شر بتقدير الباعت ؟ فان العمل تابع للباعت عليه ، فيكتسب الحكم منه ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر + بل ربما كانت النيات أقوى في التقدير من الأفعال ، ومن هنا كانت نية المرء خيرا من عمله ، كما جاء في الحديث الشريف ، وكما ذكر الغزالى من أن أعمال الجوارح ليست مراده إلا لتاثيرها في القلب ، ليسيل الى الخير ، وينفر من الشر^(٤) .

نحوية الارادة

(١) انظر ص ٢٦٣ من الأربعين

مجاهدة الميل المذموم ٠ وفي ذلك يقول : « اذا حصل الميل بالمعرفة فانما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه ٠ فان المواظبة على مقتضى صفات القلب تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفات فالمائل الى طلب العلم او طلب الرياسة ، لا يكون ميله في الابداء اضعيفاً ٠ فان اتبع مقتضى الميل ، واشتغل بالعلم ، وتربيه الرياسة ، والأعمال المطلوبة لذلك ، تأكّد ميله ورسيخ ، وعسر عليه النزوع ٠ وان خالف مقتضى ميله ، ضعف ميله ، وانكسر ، وربما زال ٠ بل الذي ينظر الى وجه حسن مثلاً فيميل اليه طبعه ميلاً ضعيفاً ، لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر ، والمحاجسة ، والمخالطة ، والمحاورة ، تأكّد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه ٠ ولو فطم نفسه ابتداء ، وخالف مقتضى ميله ، لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل ، ويكون ذلك دفعاً في وجهه حتى يضعف ٠٠٠ لأن بين الجوارح والقلب علاقة ، حتى انه ليتأثر كل واحد منها بالآخر ٠ الا أن القلب هو الأصل المتبع ، فكأنه الأمير والراعي ٠ والجوارح كالخدم والرعايا والاباع « ٠

والغزالى لا يرى للعمل قيمة بغير النية ، وان شئت الارادة ٠ واذ كانت النية هي التي تقوم العمل ، فمن الخير أن تكون قوية ، لأنها كما تكون الرغبة في عمل طيب ، أو النفرة من عمل خبيث ، يكون جزاء العامل : فيكثر أجره إن قوى حبه للخير ، وبفضله للشر ، ويقل فيما عدا ذلك ٠ وقد نص في عدة مواطن من كتبه بأن المول على القلوب ، حتى لنجد له يذكر أن الصغيرة تقلب كبيرة بالأصرار والمواظبة ، أو بالاستهانة بما لها من الخطير ٠ وأن الكبيرة اذا وقعت بفترة ، ولم يتفق اليها عود ، واستعظامها المرء ، كانت مرجة المفو ، وفي ذلك يقول :

« فان الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغره عند الله ، وكلما استصغره كبير عند الله ، لأن استعظمه يصدر عن نفور القلب منه ، وكراهيته له ، وذلك النفور يمنع من شدة تأثيره به ٠ واستعظامه يصدر

عن الالف له ، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب ، والقلب هو المطلوب
تowire بالطاعات والمحذور تسويفه بالسيئات » ص ٣٣ ج ٣

أهمية الارادة

الارادة شرط للمسؤولية، وشرط للجزاء . فالذى يعمل وهو ناس
أو غافل لا يجازى ولا يؤاخذ . وإنما كان الأمر كذلك فيما يرى
الغزالى : لأن القلب لا يتأثر بما يجرى في الفلة ، والقلب عند الغزالى
هو كل شيء ، فليست الحسنة حسنة إلا لأنها تصلحه ، أو تزيد في
صلاحه ، وليس السيئة سيئة إلا لأنها تفسده أو تزيد في فساده .
والجريمة الهائلة إذا اقترفها المرء وهو مضطرب متعدد ، لا خطر لها
عنه ، لأن القلب لا يتتأثر بما يفعل المرء وهو كاره ، والهفوة التافهة
عظيمة الخطير إذا أتتها المرء وهو راض مسرور ، لأنه بقدر ما تحلو
السيئة يعظم أثراها في تسويد القلب وفساده . والذنب الواحد تختلف
قيمه حين يأتيه رجالان : أحدهما عارف به ، وثانيهما باجل له ، فهو
بالنسبة للأول كبيرة ، وبالنسبة للثانية صغيرة ، لأن الارادة تختلف قوتها
وضعفا باختلاف درجة العلم ، إذ كانت ثمرة له .

ويقول الغزالى بعد كلام طويل « فهكذا يجب أن تفهم تأثير الطاعات
كلها ، اذ المطلوب منها تغيير القلوب ، وتبدل صفاتها فقط دون التجوارح ،
فلا تظنن في وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث انه جمع بين الجبهة
والأرض ، بل من حيث انه بحكم العادة يؤكّد صفة التواضع في القلب .
ومن وجد في قلبه رقة على يتيم ، فإنه اذا مسح رأسه وبقائه تأكّدت الرقة
في قلبه » ص ٢٨٤ ج ٤

الجبر والاختيار

وقد اختلف العلماء ، ولا يزالون مختلفين ، في حرية الارادة ، فمنهم من يقول انها مجبورة ، ومنهم من يقول انها مختارة ، ومنهم من يحكم بانها دائرة بين الجبر والاختيار .

وأنا أرجح الرأي الأخير ، لأن الواقع أن هناك مؤشرات تحمل الارادة على الاتجاه إلى جهة معينة ، كالوراثة ، والصحة ، والبيئة ، والظروف الخاصة . والارادة فيما عدا ذلك حرة مختارة فالذى ورث عن أبيه أو أمه خلقا من الأخلاق ، يسير مضطرا إلى ما يوافق ذلك الخلق . والذى يحمله ضعف صحته على اللدد في الخصومة لا يستطيع اجتناب هذه الخصلة . والذى تقضى عليه البيئة التى يعيش فيها باحترام زى خاص ، يشعر بالاضطرار إلى التزبى بهذا الزى . فانا أستطيع تزعع العادة لألبس الطربوش ، ولكنى لا أستطيع لبس القبعة ، لأنى مقهور على مسايرة الوسط الذى أعيش فيه ، وان زعمت ثم زعمت أننى مختار و الذى يقهره ظرف من الظروف على اتياى جريمة من الجرائم غير مختار . وسيرقى القضاء يوما فيحلل الظروف التى وقعت فيها الجريمة ليتبين صحة المسئولية . فكثيرا ما يعاقب المجرم وهو غير مسئول .

فإذا انتفت موانع الاختيار فالارادة حرة فى الاقبال على الفعل ، أو الانصراف عنه . وفي هذه الحالة تصبح للخير قيمة ، وللشر قيمة ويصير الخير جديرا بالمؤبة لأنه أحسن وهو مختار ، والشرير خليقا بالعقوبة لأنه أساء وهو مختار . أما المضطر إلى فعل الخير أو الشر لسبب من الأسباب فهو فيما أرى غير أهل للثواب والعقاب .

والغزالى لا يقول بحرية الارادة حرية مطلقة ، ولا بعجزها العجز المطلق . ويقول « بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميا . وخلق الاختيار والمختار جميا ، فاما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب ، وأما

الحركة فخلق للرب ، ووصف للعبد وكسب له ، فإنها خلقت مقدورة بقدرة هي كسب وصفة . وكانت الحركة نسبة الى صفة أخرى تسمى قدرة فتسمى باعتبار تلك النسبة كسبا . وكيف تكون جبرا محضا وهو بالضرورة يدرك التفرقة بين المقدورة والرعدة الضرورية ؟ أو كيف يكون خلقا للعبد وهو لا يحيط علما بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة وأعدادها ؟ وإذا بطل الطرفان لم يبق الا الاقتصاد في الاعتقاد ، وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختيارا ، وبقدرة العبد على وجه آخر من التعلق يعبر عنه بالاكتساب » ص ١٢٠ ج ١ احياء .

والواقع أن رأى الغزالى هذا لا يفصح عن قيمة ما فى أعمال المرء من الاختيار ، فهى فى رأيه ليست جبرا لانها تفرق عن الرعدة وهى ليست اختيارا لأن المرء لا يحيط بتفاصيل ما حركاته من الأجزاء . مع أن الاختيار لا يتوقف اثنائه على معرفة الأجزاء والأعداد ، لأن العمل الاختيارى قد تكون له لوازم ضرورية ، لا يتبع لها المرء ، ولا تكون غفلته عنها قادحة فى اختياره .

ويقرر الغزالى مع هذا « أن فعل العبد وان كان كسبا له ، لا يخرج عن كونه مرادا لله سبحانه ، فلا يجري فى الملك والملائكة طرقه عن ، ولا لفترة خاطر ، ولا فلتة ناظر ، الا بقضاء الله وقدرته ، وبارادته ومشيئته ، ومنه الشر والخير ، والنفع والضر ، والاسلام والكفر ، والعرف والتكر ، والفوز والخسر ، والغواية والرشد ، والطاعة ، والعصيان ، والشرك والايمان » ص ١٢٠ ج ١^(١) .

وأنا لا أفهم ما هو هذا الكسب الذى يقره أهل السنة ، ويتابعهم الغزالى فى اقراره . فهم لا يقولون بأن العبد مضطر ، والا كانوا جبرية ، والجبرية فى رأيهم خاطئون . ولا يقولون بأنه مختار ، والا كانوا معزولة ،

(١) ٢٢١ ، ص ١٢٠ ج ١ احياء .

وهم قد سلقو المعتزلة بالسنة حداد ٠ فلم يبق الا أن العبد لا هو حر ولا هو مختار ، وإنما هو مكتسب : وهذا الكسب أيضا مراد الله ٠ اذن فيما الذي بقى للعبد المسكين !

الحق أن هذه وسوسه أوقعهم فيها الخلاف !

وأساس هذه الوسوسه أنهم يحسبون حرية الارادة خروجا على الله في ملكوته ، والغزال يضرب المثل بزعيم الضيعة يستكشف أن يكون لأحد العمال رأي معه ، وما كان أغناه عن ضرب هذه الأمثال !

ان حرية الارادة الانسانية لا تضر الله شيئا ، فما بال أهل السنة يأبون الا أن تكون طرفة العين ، وهي حركة طبيعية ، أترا لارادة الله ؟

ولا قيمة لما يحجب به المعسفون من أن اختراع الله للقدرة كافٍ في اقرار الكسب للمرء ، فانه لا خلاف في أن الله واهب القدرة ، ولكن ليس معنى ذلك أنه يسيرها أنني شاء ، ومتى شاء ، والا كان التكليف ضربا من العبث ، ولو كره المتكلفون ٠ فلم يبق الا أن الارادة حررة ، وذلك هو ما وضع الله من قانون ، فلا يبتسلوا بما نقول !

على أن العهد قريب بما قال الغزال في تربية الارادة ، فإذا كان ما أريده هو ما يريد الله ، فأى الارادتين تربى ؟ ان هذا الا تناقض ٠

ونعود فنذكر أنه قرر في مكان آخر من الاحياء « أن النية غير داخلة تحت الاختيار » وقد عرفت أنه يريد بالنسبة الارادة ، وأن رأيه وسط بين الجبر والاختيار ، أفالا يكون متناقضا في حكمه : تارة بأن النية حررة ، وتارة بأنها مجبورة ؟

الحقيقة أن الارادة التي يقرر الغزال أنها غير مختاره ليست هي الارادة بمعنى القصد ، وإنما ذلك ما يسمى ارادة صادقة ، وهي التي

يعقبها التنفيذ ٠ فمن الجائز أن أقصد إلى أي عمل في أي وقت ، ولكن ليس في مقدوري أن أرحب رغبة صادقة في كل ما يعن لي من الأعمال ، في جميع الأحيان ٠ وفي ذلك يقول الفرزالي « فقد تيسر في بعض الأوقات ، وقد تتذر في بعضها ٠ نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الأحوال احضار النية للخيرات ، فان قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبع إلى التفاصيل غالباً ، ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك ٠ بل لا يتيسر له في الفرائض إلا بجهد جهيد ، وغايته أن يتذكر عذاب النار أو نعيم الجنة ، فربما تبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته » ٠

وخلاصة رأى الفرزالي أن المرء حر في الاقبال على ما شاء من الأعمال ، وإن كان في أقباله إنما ينفذ إرادة الله ، ولكنه ليس صادق النية في كل حين ، وإنما تصدق النية بالترغيب في الجنة والتخويف من النار ٠

ولا يفوتنا أن نبه على ما دعا إليه في تربية الخلق من مخالطة الآخيار ، فإن في ذلك اعترافاً ضمنياً بتغيير الوسط في الإرادة الإنسانية، ونقله إليها من حال إلى حال ٠ وهذا نوع من العبر ، ولكنه جبر معقول ٠

الفصل الثالث

الضمير

هو صوت ينبع من أعماق الصدور ، آمراً بالخير ، أو ناهياً عن الشر ، وإن لم ترج مثوبته ، أو تخشن عقوبة ٠
والفرزالي كما رأيت لا يرى شيئاً حسناً لذاته ، أو قيحاً لذاته ، فالشرع هو المكيف للأعمال حسناً وقيحاً ، فلا مجال بالطبع لأن يفرد ببابا

للتضليل ، اذ كان التكليف انما ينزل من السماء ٠ والضمائر التي ترد في كلامه انما يريد بها مكتونات الصدور ، وهي والسرائر من باب واحد ٠ والانسان فيما يرى ليس مسؤولا عن مراقبة ضميره ، اذ هو لا يعرف الضمير ٠ وانما يسأل عن مراقبة ربه ، وخشتيه ، في السر والعلانية فليس هناك جارحة باطنية تدرك الخير والشر ، وان لم ت تعرض لهما الشرائع ، وانما هناك رب يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور ، والمرء عن خشتيه مسؤول ٠

غير أنه لا يصح لنا أن ننسى أن هناك أسبابا لنشوء الضمير ، فالفلسفة توجد لدارسها نوعا من الشعور بالمسؤولية ازاء بعض الجوانب ، والأخلاق توجد للباحث فيها نوعا من ادراك الواجب ، والشريعة كذلك تورث الم الدين بها نوعا من الوجдан ٠

ولا بعد عن الصواب اذا قررنا أن الفرزالي يؤمن بال النوع الأخير من الضمير ، وان لم ينسوه به ، ولم يختصه باليان ٠ واليئ قوله في ص ٨٥ ج ١ من الاحياء « ومنها أن يكون اعتماده في علومه على بصيرته ، وادراته بصفاء قلبه ، لا على الصحف والكتب ولا على تقليد ما يسمعه من غيره » وقد رد في كتبه هذا الحديث « الامر ما حاك في صدرك ، وان أفتوك وأفتك » وليس ذلك الا اشادة بهذه الحاسته الباطنية التي يفرغ المرء اليها عند ما يتلبس عليه وجه الصواب ٠ الا أنه يجب ان نعرف ان نص الشريعة من كتاب أو سنة هو عنده فوق الفتوى وفوق الضمير ٠

والحق أن الضمير لا وجود له في ذاته ، حتى تؤخذ الفرزالي بأغالله ، وانما ينشأ من الشرائع الوضعية ، والسماوية ٠ حتى انك لتجد لكل شعب ضمائر تخصه بالذات ، حسبما توحي التقليد ٠ فمثلا جريمة السرقة كانت فضيلة عند بعض الشعوب ، وكان من تقاصه فيها المهارة عرضة لاحتقار الرأي العام ، ولذع الضمير !! ونهب مال الغريب لا جرج فيه عند فريق من القبائل البربرية ، فمن الواضح أنهم لا يقايسون عند

نفيه تأييب الضمير ٠ بل الشخص الواحد يختلف ضميره باختلاف سنّه ،
فيكون ضميره في سن العشرين ، أضعف أو أقوى منه في سن الثلاثين ،
حسبما توجب الظروف ٠ ومن هنا صح لشاعر أن يقول :

يقولون هل بعد الثلاثين ملعب . فقلت وهل قبل الثلاثين ملعب ؟
كم صح لغيره أن يقول :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه فلما علاه قال للباطل ابعد
وعندى أن فكرة الضمير اذا صح أن تكون عامة ، فيجب أن تقتصر
على المنافع البشرية ٠ على معنى أن الضمير هو الحاسة التي تتالم لما يتوجه
له الإنسان من حيث هو إنسان ، بغض النظر عن دينه ، ووطنه ، ومذهبـه .
فإن للإنسانية وشائج لا ينال منها اختلاف المذاهب ، ولا تباين اللغات ،
ولا تبعد الأقطار ٠

الفصل الرابع

الأغراض والنتائج

هل يكون العمل خيرا باعتبار نتيجته ، أو باعتبار المقصود منه ؟
وبعبارة أوضح : هل يكون خيرا لأنني أردت به الخير ، أو لأنه أتى
الخير ، وإن لم أرد ذلك ؟

ويظهر أنه لاستخلاص رأى الفزالي في الجواب على هذا السؤال ،
ينبغي أن نسايره في الأعمال المختلفة ، لنعرف رأيه في كل نوع منها
على انفراد ٠

وقد رأينا يقسم أعمال الإنسان إلى طاعات ومعاصٍ ومباحات . أما
الطاعات فلا تكون خيرا إلا بالنية ، وهي الغرض في التعبير الحديث .
ويقول في ذلك (إن العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه) ولذلك

قيل : « إنما الأعمال بالنيات » لأنها تابعة لا حكم لها في نفسها وإنما الحكم للمتبوع) وهو يستتبع بناء على هذا الأساس أنه لا قيمة للصوم اذا أراد الصائم الانتفاع بالحمية ، ولا للعقق اذا أراد السيد أن يتخلص من مثونه عبده ، ولا للحج اذا أراد المرء أن يصبح مزاجه بالحركة والانتقال ، ولا للغزو اذا أحب الشخص أن يتعلم أسباب الحروب : لأن النية لا تصح عند الفرزالي الا اذا خلصت من الشوائب ، وتقرب العبد بها الى الله . ولا مانع عنده من وجود باعث آخر ، ويسميه البعث النفسي ، على شرط أن يكون أضعف من البعث الأصلي . فان كان مساوياً له ، صار العمل لا له ولا عليه ، كما يقول . وان كان أقوى منه فهو مضر ومفض للعقاب .

والفرزالي ينصح بالتدبّر قبل الشروع في الطاعة ليعرف المرء أى البعثين أقوى : باعث النفس أو باعث القرية ، وأى التصيّين أوفي : نصيب الله أم نصيب الشيطان . ولكنه يقول : « ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فان ذلك متّهي ببنية الشيطان منه ، اذ المقصود أن لا يفوت الاخلاص . ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعاً . »

ويلاحظ أن في هذا تناقضاً مع حكمه على العمل الذي غالب فيه البعث النفسي بأنه مضر ومفض للعقاب ، والعمل الذي يضر ويفضي للعقاب ، لا يكون تركه متّهي بنية الشيطان ، فكان على الفرزالي أن يفرق بين العمل في ذاته وبين غرض العامل منه ، لأن العمل الطيب غير ضار في ذاته ، وان ساء الغرض منه . والمفروض أننا نتكلم عن أعمال هي في نظر الشرع طاعات ، وهي في ذاتها خير ونافعة ، فكيف تقلب بسبب النية ضارة ؟

ولم يفرق الفرزالي بين الأعمال الاجتماعية والأعمال الفردية فمن الواضح أن بعض الأعمال يرجع الى فائدة المرء وحده كالبيادات وبعضها

يرجع نفعه الى جمهور الناس ٠ وما أحسب الفزالي ينهى عن الاعمال الاجتماعية ، مهما ساء القصد ، اذا لا أقل من أن تكون تمرينا للنفس على عمل الخير ٠ وقد صرخ في غير موطن بان التخلق منفصل الى الخلق ومتى كان العمل نافعا للناس ، فالدعوة اليه واجبة ؟ والعامل حر في الاستفادة من حسن نيته ان شاء ٠

واما المعاishi فهى شر على كل حال ٠ والغزالى هنا يقدر النتائج ، فمن عمل شرا عن جهل فهو اثم ، ولا عذر له من جهله لأن الجاهل غير معدور الا اذا كان قريب عهد بالاسلام ، وهذا عذر محدود ٠ وقد علمت أنه يرى ان المعصية شر لانها ضارة ورأيت كذلك أن فاعل المعصية اثم وإن لم يعلم وجه اثمه ، فتحتى أن تكون العبرة هنا بالنتائج لا الاغراض بخلاف الطاعات فقد تقلب معاishi صرفة اذا خبأته النية ، كمن يتعلم العلم ليستميل الناس ٠

الفصل الخامس الوسائل والغايات

اذا كانت الغاية شريفة ، فلا يجب فيما يرى الفرزالي أن تكون الوسيلة دائما شريفة ، فالغاية عنده قد تبرر الوسيلة ٠ وقد أوضح هذا حين تكلم عن المواطن التي يجوز فيها الكذب فقال : « الكلام وسيلة الى المقاصد ، فكل مقصود م محمود يمكن الوصول اليه بالصدق والكذب جميعا ، فالكذب فيه حرام ان أمكن التوصل اليه بالصدق وإن أمكن التوصل اليه بالكذب دون الصدق ، فالكذب فيه مباح ، إن كان تحصيل ذلك القصد مباحا ، وواجب ان كان المقصود واجبا ٠ وكما أن عصمة دم المسلم واجبة ، فمهما كان في الصدق سفك دم امرىء مسلم قد احتفى من ظالم ، فالكذب فيه واجب ٠ ومهما كان لا يتم مقصود الحرب ، أو

صلاح ذات البين ، أو استمالة قلب المجنى عليه ، الا بكذب فالكذب مباح^(١) » وبعد أن بين الحالات الثلاث التي يجوز فيها الكذب كما نص الحديث ، وهي الصلح وال الحرب ومحادثة المرأة ، قال : « فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفي معناها ماعداها اذا ارتبط به غرض مقصود صحيح له أو لغيره^(٢) » ثم ضرب لذلك الأمثل الآية :

(١) أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله . فله أن ينكره .

(٢) أن يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة ارتكبها بينه وبين الله ، فله أن ينكر ذلك ، اذ للرجل أن يحفظ دمه ، وماليه وعرضه ، بسانه ، وان كان كاذبا .

(٣) أن يسأل عن سر أخيه ، فله أن ينكره .

(٤) أن يصلح بين الصراير من نسائه ، بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه .

وقد تبه الفزالي الى خطر هذا الباب ، فین أن الكذب لا ينبغي أن يقترف كلما كانت له فائدة ، بل يجب أن تكون فائدته أقوى وأظهر من فائدة الصدق ، والا وجب أن يكون الرجل من الصادقين . وانظر قوله « ولكن الحد فيه أن الكذب محظور ، ولو صدق في هذه الموضع تولد منه محظوظ ، فيبني أن يقابل أحدهما بالأخر ويزن بالميزان القسط ، فإذا علم أن المحظوظ الذي يحصل بالصدق أشد وقعاً في الشرع من الكذب . فله الكذب . وان كان ذلك المقصود أهون من مقصود الشرع ، فيجب الصدق . وقد يتقابل الأمران بحيث يتعدد فيهما ، وعند ذلك يميل الى الصدق أولى . لأن الكذب يباح لضرورة ، ولجاجة مهمة . فان شك في كون الحاجة مهمة ، فالاصل التحريرم » ص ١٤١ ج ٣

(١) ص ١٣٩ ج ٣ احياء .

(٢) ج ١٤١ ج ٣

غير أن هذه الحيطة لا تلزم الرجل فيما يرى الغزال الا اذا كان يترك الكذب لغرض من أغراضه . أما اذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز المسامحة بحق الغير ، والاضرار به . وهذا من الغزالى نظر بعيد .

وقد استثنى من الكذب للمصلحة ، الكذب على رسول الله بوضع الأحاديث في فضائل الأعمال ، وفي التشديد في المعاصي ، فليس هذا من الأغراض التي تقاوم محظوظ الكذب على رسول الله ، فان الكذب عليه من الكبائر التي لا يقاومها شيء .

وضع القصص

وبهذه المناسبة ، نذكر أن الغزالى صرخ في الجزء الأول من الاحياء ص ٣٧ « من الناس من يستجيز وضع الحكايات المرغبة في الطاعات ، ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق » وهو يرى أن « هذه من نزعات الشيطان ، فإن في الصدق مندوحة عن الكذب » وهذا منه اسراف . بل هو نفسه أول من يؤاخذ على وضع القصص ان كان في وضعها مؤاخذة . ويكتفى أن نعرف أنه يذكر في كتبه من قصص الآباء والصالحين ، مالم يقم على صحته أى دليل . والرواية الكاذبة ليست أقل خطرا من التأليف !

وكما جاز الكذب في سبيل الغاية ، كذلك تجوز في سبيلها الغيبة . وقد صرخ الغزالى بتجاوز الغيبة في المواطن الآتية :

(١) التظلم . فان من ذكر قاضيا بالظلم ، والخيانة ، وأخذ الرشوة ، كان مقتببا عاصيا . أما المظلوم من جهة القاضي فله أن يتظلم الى السلطان وينسبه الى الظلم ، اذ لا يمكنه استيفاء حقه الا به . ولا أدرى لم لا تستباح اعراض الفطالين ؟

(٢) الاستعانتة على تفير المكروه ، ورد العاصي الى منهج الطاعة .

(٣) الاستفباء كـما يقول للمفتى : ظلمـنى أبـى أو زوجـى أو أخـى ، وكـيف طرـيقـى إلـى الخـلاص ، والـاسـلم التـعرـيض ، ولكن التـعـين مـباح بـهـذا العـذر .

(٤) تحـذير المـسـلم من الشـر . فـاـذـا رـأـيـتـ فـقـيـها يـتـرـدـدـ إـلـى مـبـتـدـعـ أو فـاسـقـ ، وـخـفـتـ أـنـ تـعـدـىـ إـلـيـهـ بـدـعـتـهـ وـفـسـقـهـ . فـلـكـ أـنـ تـكـشـفـ لـهـ بـدـعـتـهـ وـفـسـقـهـ ، مـتـىـ كـانـ الـبـاعـثـ لـكـ الـخـوفـ عـلـيـهـ مـنـ سـرـاـيـةـ الـبـدـعـ لـأـغـيـرـ . وـاحـذـرـ أـنـ يـكـونـ الـحـسـدـ هـوـ الـبـاعـثـ !

(٥) أـنـ يـكـونـ الـمـقـاتـبـ مـجـاهـرـاـ بـالـفـسـقـ ، بـحـيـثـ لـاـ يـسـتـكـفـ مـنـ أـنـ يـذـكـرـ لـهـ ، وـلـاـ يـكـرـهـ أـنـ يـذـكـرـ بـهـ .

وـهـنـاـ يـحـتـاطـ الـغـزـالـ : فـيـنـ أـنـ لـيـسـ لـكـ أـنـ تـقـاتـبـ الـمـجـاهـرـ بـفـسـقـهـ إـلـاـ بـمـاـ يـتـجـاهـرـ بـهـ . فـمـنـ كـانـ يـتـجـاهـرـ بـشـرـبـ الـخـمـرـ فـلـيـسـ لـكـ أـنـ تـذـكـرـ زـنـاهـ ، إـذـاـ كـانـ يـسـترـهـ ، وـهـذـاـ مـنـ نـظـرـ دـقـيقـ .

وـالـفـاـيـةـ الـشـرـيفـةـ ، تـبـعـ النـيمـيـةـ ، كـماـ أـبـاحـتـ الـكـذـبـ وـالـغـيـةـ . فـلـلـاـنـسـانـ أـنـ يـنـمـ ، إـذـاـ كـانـ فـيـ النـيمـيـةـ فـائـدـةـ لـسـلـمـ ، أـوـ دـفـعـ لـمـعـصـيـةـ . كـماـ إـذـاـ رـأـيـ مـنـ يـتـنـاـولـ مـالـغـيـرـ ، فـعـلـيـهـ أـنـ يـشـهـدـ بـهـ ، دـفـعاـ لـلـجـانـيـ عنـ الـمـعـصـيـةـ ، وـرـدـآـ لـحـقـ الـمـاخـوذـ مـالـهـ . وـالـنـيمـيـةـ فـيـ هـذـاـ الـمـثالـ إـذـاـ كـذـنـتـ ضـرـاـ فـيـ جـانـبـ الـظـالـمـ ، فـهـىـ نـفـعـ فـيـ جـانـبـ الـمـظـلـومـ ، وـهـوـ أـوـلـىـ بـالـاسـعـافـ . بـلـ دـفـعـ الـظـالـمـ عـنـ الـفـلـمـ خـيـرـ لـهـ فـيـ حـاضـرـهـ ، وـابـعادـ لـهـ عـنـ الـضـرـ فـيـ مـسـتـقـبـلـهـ ، إـذـاـ كـانـ مـسـتـعـداـ لـلـاقـلاـعـ عـنـ الـفـسـادـ .

الباب السادس

في الأخلاق

تهييد

كلمة أخلاق وجدت قبل الفرزالي ، ففى الحديث « بعثت لأنتم مكارم الأخلاق » وقد عرف العرب فيما عرروا عن اليونان كتاباً لأرسسطو فى الأخلاق ، ووضع ابن مسكويه كتاباً فى صناعة تهذيب الأخلاق ، ويوشك كتابه ذاك أن يكون كتاباً فى علم الأخلاق ، على نحو ما كان يفهم اليونان ، ومن اتفقى أثرهم من فلاسفة المسلمين ٠

والذى يعنينى الآن هو تحديد علم الأخلاق كما فهمه الفرزالي ٠ وأقررت أنى بعد مراجعة كتبه لم أجده يساير من تقدمه من مجددى الفلسفة اليونانية ، وإنما يفهم من علم الأخلاق شرح طرائق السلوك ، وفقاً لما سنته الشريعة السمححة ، ورسمه الصوفية ، ومن هنا نحومه من الفقهاء ٠ ولعلم الأخلاق فيما يريد أسماء متعددة : فهو تارة يسميه علم طريق الآخرة ، وأخرى يسميه علم صفات القلب ، وحياناً يسميه أسرار معاملات الدين ، وربما سماه أخلاق الأبرار ، وهو اسم بعض مؤلفاته ٠ وأهم كتبه في الأخلاق نجده سماه أحياء علوم الدين ٠ ففصل الأخلاق عنده هو تكيف النفس وردها إلى ما رسمته الشريعة وخطه رجال الملاشنة من علماء الإسلام ، ومن سبقهم من الأنبياء ، والصديقين ، والشهداء ٠

وإذا كنا نجد ابن مسكونيه مثلاً يشهد كثيراً بكلام ارسسططاليوس وجاليوس، ويتحدث عن الرواقين، ومن اليهم من الحكماء، فانا نجد الغزالى يؤيد أبحاثه بكلام ابن أدهم، والسترى، والمحاسبي، ومن اليهم من الصوفية، وربما نقل ما روى عن عيسى، وموسى، وداود، ومن اليهم من الأنبياء .

تعريف الخلق

نرى الغزالى في ص ٥٦ من «الميزان» يعرف المخلق الحسن بأنه اصلاح القوى الثلاث : قوة التفكير ، وقوة الشهوة ، وقوة الغضب ، ونراه في ص ٦٤ منه يعرف المخلق الحسن بفعل ما يكره المرء . ويشهد بالحديث : (حفت الجنة بالملائكة ، وحفت النار بالشهوات) وبالآلية (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) ونراه يقول في ص ٤٧ « واما حسن المخلق فبان يزيل جميع العادات السيئة التي عرف الشرع تفاصيلها ويجعلها بحيث يغضها فيتجنّبها كما يتجنّب المستقرارات ، وأن يتبع العادات الحسنة ويشتاق إليها فيؤثرها ويتنعم بها » .

وانما ذكرنا هذه التعريفات المبهمة ، التي لا تتفق شيئاً في التحديد، لندل على ميل الغزالى الى الخطابيات ، فقد لا تخلو منها صفحة من كتبه في الأخلاق .

ولكنه في ص ٥٦ ج ٣ أحياء عرَّف المخلق تعريفاً دقيقاً فقال « المخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسراً من غير حاجة الى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً ، سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً » ثم ذكر أن المخلق ليس هو فعل الجميل أو القبيح ، ولا القدرة

على الجميل أو القبيح ، ولا التمييز بين الجميل والقبيح . وإنما هو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر عنها الامساك والبذل . ثم قال : فالخلق أذن هو عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة .

الفصل الأول

تربيـة الـخـلـق

ليس للغزال رأي محدود في الفطرة البشرية : فهو تارة يراها خالصة تصلاح لكل شيء ، وتقبل كل صورة ، وتارة يراها أميل إلى الخير منها إلى الشر . يدل على ذلك قوله « وإذا كانت النفس بالعادة تستلزم الباطل وتميل إليه وإلى القبائح ، فكيف لا تستند الحق لو ردت إليه ، والتزمت المواظبة عليه ؟ بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع ، يضاهي الميل إلى أكل الطين ، فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة ، فاما ميله إلى الحكمة وحب الله تعالى ، ومعرفته ، وعبادته ، فهو كالميل إلى الطعام والشراب : فإنه مقتضى طبع القلب ، لأنه أمر رباني ، وميله إلى مقتضيات الشهوة غريب عن ذاته ، وعارض على طبعه » ص ٦٣ ج ٣ .

وما نريد أن نناقش هذا الرأي بأكثر من أن نلفت النظر إلى أن الميل إلى مقتضيات الشهوة لا يبعد كثيراً عن الميل إلى الطعام والشراب ، فهو جزء من الفطرة البشرية ، كما أن الميل إلى الخير جزء من الفطرة البشرية ، وإنما توجه النفس بمقتضى الظروف . فكما أن المرء لا يشتهي في كل لحظة أن يأكل أو يشرب ، فهو كذلك لا يشتهي في كل لحظة أن يكون خيراً أو شريراً ، وإنما يظهر ميله إلى الخير حين يوجد موجب الخير ، ويظهر ميله إلى الشر حين يوجد موجب الشر . بل قد تقوى الموجبات حتى ترد الرشيد غواياً أو ترد الفوى رشيداً . ولو لا صلاح الفطرة للخير والشر لما احتجنا إلى تربية الأخلاق .

كيف يربى الخلق

يرى الغزال أن من الناس من ولد حسن الخلق بفطرته ، بحيث لا يحتاج إلى تعليم ، ولا إلى تأديب ، كعيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا ، عليهما السلام ، وكذا سائر الانبياء . ولا يبعد فيما يرى أن يكون في الطبع والفترة ما قد ينال بالأكتساب ، فرب صبي خلق صادق اللهجة سخيا جريئا .

وما أريد أن أناقش الغزال في حكمه بأن الانبياء لا يحتاجون إلى التعليم والتأديب ، ويكفي أن آذكر أن عصمة الانبياء – في غير نبيغ الرسالة – كانت مما اختلف فيه العلماء ، وأن في القرآن شواهد كثيرة على غفران ما تقدم وما تأخر للنبي صلى الله عليه وسلم من الذنوب .

والطريق إلى تربية الخلق فيما يرى الغزال هو التخلق : أي حمل النفس على الاعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب . فمن أراد مثلاً أن يحصل لنفسه خلق الجود ، فعليه أن يتكلف فعل الجود : وهو بذل المال ، حتى يصير ذلك طباع له .

والغزال يهتم كثيراً برياضة النفس على ما يرغب المرء فيه من مكارم الأخلاق ، ويرى كسب الخلق بسبب التخلق من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح ، ويقول في ذلك :

« كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة . وكل فعل يجري على الجوارح فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب . ويعرف ذلك بمثال : وهو أن من أراد أن يصير الحدق في الكتابة صفة نفسية له حتى يصير كتاباً بالطبع ، فلا طريق له إلا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق ويوازن عليه مدة طويلة ، يحاكي الخط الحسن ، فيتشبه بالكاتب تكلفاً . ثم لا يزال يوازن عليه حتى يصير صفة راسخة في نفسه ، فيصدر منه في

الآخر الخط الحسن طبعاً ، كما كان يصدر منه في الابتداء تكلاً .
فكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسناً . ولكن الاول يتكلف ،
الا أنه ارتفع منه أثر الى القلب . ثم انخفض من القلب الى الجارحة ،
فصار يكتب الخط الحسن بالطبع . وكذلك من أراد أن يصير فقيه
النفس ، فلا طريق له الا أن يتعاطى أفعال الفقهاء ، وهو التكرار للفقه .
حتى تعطف منه على قلبه صفة الفقه ، فيصير فقيه النفس » .
ومن هنا كان الغزالي يرى أن الكبيرة الواحدة لا توجب الشقاء
المؤبد ، لأنها بدون التكرار لا تصبح صفة للنفس . ولا معنى للشقاء
المؤبد الا أن تصير احدى الرذائل صفة نفسية لأحد الناس .

الفصل الثاني امكان تغيير الخلق

لهذا الفصل علاقة ظاهرة بالفصل الذي قبله ، فان تربية الخلق
معلقة على ازالة الخلق السيء . ويرى الغزالي أن تغيير الخلق ممكن
ويقول في ذلك تعليقاً على قوله عليه السلام : « حسناً أخلاقكم » لو لم
يكن ممكناً لما أمر به ، ولو امتنع ذلك بطلت الوصايا والمواعظ والترغيب
والترهيب ، فان الافعال نتائج الاخلاق ، كما أن المُهُوى الى أسفل نتيجة
الثقل الطبيعي ، بل كيف ينكر تهذيب الانسان مع استيلاء عقله ، وتغيير
خلق البهائم ممكناً اذا ينتقل الصيد من التوحش الى التأنس ، والفرس
من العجماح الى السلامة » .

ويظهر أن الغزالي شهد من يرى أن الخلق كالخلق لا يمكن
تغييره ، والا كان طمعاً في تغيير خلق الله . وقد ذكر في ذلك أن خلق الله
قسمان : قسم لا فعل لنا فيه ، كالسماء والكون ، وقسم فيه قوة لقبول
كمال بعده ، اذا وجد شرط التربية . وتربيته قد تتعلق بالاختيار ، فان

النواة ليست بتفاح ولا نخل ، ولكنها قابلة بالقوة لأن تصير نخلا بالتربية، وغير قابلة لأن تصير تفاحا ، وإنما تصير نخلا اذ تعلق بها اختيار الأدمى في تربيتها ويقول : « فلذلك لو أردنا أن نقلع بالكلية الفضب والشيبة من أنفسنا ونحن في هذا العالم عجزنا عنه ، ولكن لو أردنا فهرهما وأسلامهما بالرياضة والمجاهدة فدرنا عليه » .

أقسام الطيائع

وهو بعد ذلك يقسم الجبال إلى سريعة القبول ، وبطيئة القبول ، باعتبار التقدم في الوجود ؛ ويقسم الناس في تغيير الخلق إلى أربع مراتب – الأولى : الإنسان الفَلُولُ الذي لا يعرف الحق من الباطل والجميل من القبيح . وهو أقبل الأقسام للعلاج : فلا يحتاج إلا إلى مرشد وإلى باعث يحمله على الاتباع – الثانية : أن يكون قد عرف قبح القبيح ، ولكنه لم يتعود العمل الصالح . بل زين له سوء عمله ، يتعاطاه انقياداً لشهواته ، واعتراضاً عن صواب رأيه ؛ فأمره صعب من الأول ، إذ تضاعفت عليه . فيلزم (١) قلم ما رسم فيه من تعود الفساد (ب) وصرف النفس إلى ضده – الثالثة : أن يعتقد أن القبيح حق وجميل . ويرى الغزالي أن هذا لا يرجى صلاحه إلا على الندرة ، إذ تضاعفت عليه أسباب الصلال – الرابعة : أن يكون مع وقوع شروره على الاعتقاد الفاسد ، وتربيته على العمل به ، يرى فضلاته في كثرة الشر ، واستهلاك النفوس ، ويتباهي بفساده ، ويراه مما يرفع قدره . قال الغزالي : وهذا أصعب المراتب وفي مثله قيل : من التعذيب تهذيب الذئب ليتأدب وغسل الأسود ليسين . ثم قال . فالأول : من هؤلاء يقال له جاهل ، والثاني : جاهل وضال ، والثالث : جاهل وضال وفاسق ، والرابع : جاهل وضال وفاسق وشرير .

ولا يفوتنا أن نقرر أن الغزالي لا يريد من تغيير الخلق إلا فهره وأسلامه ، وقد صرخ بذلك في قوله :

« وظلت طائفة أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها ، وهيات ! فان الشهوة خلقت لفائدة ، وهي ضرورية في الجبله ، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الانسان ، ولو انقطعت شهوة الورع لأنقطع النسل ، ولو انعدم النصب بحاله لم يدفع الانسان عن نفسه ما يهدى وهلت . ومهما بقي أصل الشهوة فيقي لا محالة حب المال الذي يوصله الى الشهوة حتى يحمله ذلك على امساك المال . وليس المطلوب اماتة ذلك بالكلية ، بل المطلوب ردها الى الاعتدال الذي هو وسط بين الافراط والتفريط » .

نَيْبٌ يَعْرُفُ الرَّجُلَ عِيُوبَ نَفْسِهِ

يرى الغزالي أن من كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه ، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج .

وإذا كان أكثر الخلق جاهلين لعيوب أنفسهم ، حتى ان أحدهم ليرى القذر في عين أخيه ، ولا يرى الجذع في عين نفسه ، فقد وضع الغزالي أربعة طرق لمعرفة عيوب النفس .

الأول - أن يجلس المرء بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ، ويحكمه في نفسه ، ويتابع اشارته في مجاهدته .

الثاني - أن يطلب صديقا صدوقا بصيرا متدينا فينصبه رقيا على نفسه ، ليلاحظ أحواله وأفعاله ، فما كره من أخلاقه ، وأفعاله ، وعيوبه الباطنة والظاهرة ، نبهه اليه .

الثالث - أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه ، فان عين السخط تبدي المساوى . ولعل انتفاع الانسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يخفى عنه عيوبه .

الرابع - أن يخالط الناس ، فكل ما رأه مذموما عند الخلق انهم

نفسه به ٠ فان الطباع متقاربة في اتباع الهوى ، وما يتصرف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله ، أو عن أعظم منه ، أو عن شيء منه ٠ فليت فقد نفسه ويطهرها عن كل ما ينفعه من غيره ٠

علامات حسن الخلق

يتحاكم الغزالى فى هذا الباب الى القرآن ، اذ أن الله تعالى ذكر فى كتابه صفات المؤمنين والمنافقين ، وهى بجملتها ثمرة حسن الخلق ، وسوء الخلق ٠ وبعد ان سرد جملة من الآيات قال : « فمن اشتكى عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات ، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق ، وقد جميتها علامة سوء الخلق ، ووجود بعضها دون بعض ، يدل على البعض دون البعض ٠ فليشتغل بتحصيل ما فقده ، وحفظ ما وجده » ص ٧٤ ج ٣

والظاهر أنه لا يكفى دائمًا أن يتحاكم المرء الى القرآن ، فقد تكون هناك خلة واحدة تحتاج الى تحرير ، اذ لا يدرى المرء أهو مخطيء في التخلق بها أم مصيب ٠ وقد تتبه الغزالى الى هذه النقطة في غير هذا الباب ، وهو يرى ان المطلوب في علاج البخل مثلا هو « الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفي غاية البعد عن الطرفين » ويقول « فان أردت أن تعرف الوسط فانظر الى الفعل الذي يوجبه الخلق المحظور ، فان كان أسهل عليك وأذن من الذى يضاده ، فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له ، مثل أن يكون امساك المال وجمعه أذن عندك وأيسر عليك من بذلك لستحقه ، فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل ، فزد في المواطبة على البذر ٠ فان صار البذر على غير مستحق أذن عندك وأخف عليك من الامساك بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع الى المواطبة على الامساك ٠ فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتيسيير الأفعال وتعسيرها حتى تقطع علاقة قلبك من الالتفاف الى المال ، فلا تميل

إلى بذله ولا إلى امساكه ، بل يصير عندك كلاماء ، فلا تطلب فيه إلا امساكه لحاجة محتاج ، أو بذله لحاجة محتاج . ولا يتوجه عندك البذل على الامساك ^(١) .

وفي هذا مغالبة للطبيعة البشرية ، وما أحسب خلق الكرم يتطلب أن يتساوى البذل والامساك ، وإنما يحاول الغزالي أن يجعل الفضائل حركات فطرية للنفوس ، وهو أمر بعيد .

الفصل الثالث

الطريق إلى تهذيب الأخلاق

يتخذ الغزالي البدن مثلاً للنفس : فكما أن البدن إن كان صحيحاً فشأن الطبيب تمهد القانون لحفظ الصحة ، وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه ، فكذلك النفس : إن كانت زكية ظاهرة مهذبة فينبغي أن تسعى لحفظها . واكتساب زيادة صفاتها . وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها . وكما أن العلة المغيرة لاعتلال البدن ، الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدتها : فإن كانت من حرارة بالبرودة ، وإن كانت من برودة بالحرارة ، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب ، علاجها بضدتها : فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخى ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكتلاً . وكما أنه لا بد من احتمال مرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة ، فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب ، بل أولى ، لأن مرض البدن

(١) ج ٣ ص ٣٦٧ .

يخلص المرء منه بالموت بخلاف مرض القلب فإنه يدوم بعد الموت أبداً الآباء (؟) وكما أن كل مبرد لا يصلح لعلة سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص ، ويختلف ذلك بالشدة والضعف ، والدوام وعدمه، وبالكثرة وبالقلة ، ولا بد من معيار يعرف به مقدار النافع منه ، فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد ، فكذلك التفاصيل التي تعالج بها الأخلاق لابد لها من معيار . وكما أن معيار الدواء مأخوذ من معيار العلة حتى إن الطيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو بروادة ، فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها ، أهي ضعيفة أم قوية ، فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن ، وأحوال الزمان ، وصناعه المريض ، وسنّه ، وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها ، فكذلك الذي يطب نفوس المريدين ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتکاليف في فن مخصوص ، وطريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم . وكما أن الطيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، فكذلك المرشد لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم . بل ينبغي أن ينظر في مرض المريض ، وفي حاله ، وسنّه ، ومزاجه ، وما تحمله نفسه من الرياضة ، ويبني على ذلك رياضته .

وهذه الطريقة تدل على بصر الغزالى بعلاج الأخلاق ، وتدل من جانب آخر على تقدم الطب في ذاك الزمان (١) .

وقد فصل طائق التهذيب باختلاف الطابع ، ووضع بجانب كل رذيلة علاجها الخاص . وقد علمنا من ذلك أنهم كانوا يعالجون الكبر إذ ذاك بالسؤال . وهذا فيما أرى استشفاء من داء بداء ، فقد يولد السؤال أمراضاً في النفس تحتاج في اقتلاعها إلى مجاهدة وعناء ، ولكن الصوفية يسيرون ما لا يباح !

(١) انظر ص ٦٤ ، ٦٥ ج ٣ أحياء . وص ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ من الميزان

الفصل الرابع

غاية الأخلاق

الخير هو ما تعتقد أنه خير ، والشر هو ما تعتقد أنه شر ؟ والسؤال إلى هذه العقيدة هو وزن العمل بميزان العقل والشرع . ولكن ما هي الغاية من عمل الخير ؟ وما هو الغرض من تجنب الشر ؟

غاية الأخلاق – فيما يرى الغزالي – هي السعادة الأخروية وقد فصل هذا في الفصل الأول من «الميزان» ويقول في ص ١١٧ من هذا الكتاب : «إن السعادة الحقيقة هي الأخروية ، وما عدتها سميت سعادة، أما مجازاً وأما غلطاً ، كالسعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة . وأما صدقًا ، ولكن الاسم على الأخروية أصدق ، وذلك كل ما يصل إلى السعادة الأخروية ويعين عليها . فإن الموصى إلى الخير والسعادة ، قد يسمى خيراً وسعادة (؟ !) .

وهذا يدل على أن الغزالي ليس له غاية اجتماعية : فالذى يسعف مريضاً ، أو يغاث ملهوفاً ، أو يأسو جريحاً ، أو يواسى فقيراً ، لا يهمه شفاء المريض ، ولا إغاثة الملهوف ، ولا براء الجريح ، ولا سد حاجة الفقير ، ما دامت نيته قد خلصت في عمله ، ووثق بجزاء الآخرة ! وكل سعادة يتتجها العمل الطيب في هذه الدنيا إنما هي عنده سعادة مجازية ، وواجب المرء أن يفهمها كذلك . وله أن يعدها سعادة نسبية ، على معنى أن ما يصل إلى السعادة الأخروية قد يسمى خيراً وسعادة ! وقد نص في ص ١٣٦ من الميزان على أن من يتتجنب الفحشاء محفوظة على كرامته لا يسمى عفيفاً ، لأنه لم يقصد بعفته وجه الله ، فكل عمله تجارة ، وترك حظ لحظ يماثله !!

مناقشة قصيرة

وسائل الغزالي سؤالين اثنين :

أولاً - اذا أسعفت مريضاً وكان لا يهمك برأه ، لأن سعادتك ليست نتيجة لسعاك في هذه الدنيا ، وإنما يهمك أن تصح نيتك فتاتب في أخراك ، ألا تكون تاجراً في غاياتك الأخلاقية ؟

ثانياً - اذا تركت الزنا توفيراً لكرامتك أو لصحتك ، كيف لا تكون عفيفاً ؟ ولماذا طلبت الفقة ، ودعا إليها الشرع ؟

أليس ذلك لأن فيها حفظاً للصحة ، وتوفيراً للكرامة ؟ وإذا كنت تتخذ العقل مقياساً للخير والشر ، فخبرني أيجد العقل ما يحكم به على ضرر الزنا وأنه شر أكثر من أنه مود بالصحة ، ذاهب بالكرامة ؟

ونعود فنذكر أن الغزالي سخر من يرون السعادة الأخروية في نعيم الجنة ، وما فيها من الحور والولدان ، وإن نطق بذلك الكتاب ، ورأى أن سعادة الآخرة هي رضاء الله . أفلًا يصح لنا قياساً على هذا أن نعد الطمع في السعادة الأخروية عند أغاثة الملهوف ، واسعاف الجريح ، ينافي ما تسمى به الأخلاق ، وأن واجب الرجل الخير أن يرى سعادته في سعادة من أغاثه وواساه ، لا أن يلقى جزاءه على ذلك في الآخرة ، وإن لم تمر أعماله في الأولى ؟

ولا يفوتنا أن نقرر أن فهم الغزالي للغاية الأخلاقية على هذا التحويل يجعله يخطئ في فهم كثير من أسرار الشريعة ، ففريضة الحج مشلاً يحسبها الغزالي نوعاً من الرياضة الروحية ، فتراه يملأ باب الحج من كتاب الاحياء بالأدعية والأوراد ، حتى لتجد لكل خطوة يخطوها الحاج دعاء خاصاً بها ، وحتى لتجسمبه غفل عن قوله تعالى (ليشهدوا منافع لهم) اذ تراه يستكثر أن يحج المرء مثلاً ليتنفس بموسم التجارة !

ونظرة صغيرة الى حرص الشريعة على وحدة المسلمين ، ترينـا السر في فرض الحج على من استطاع اليه سـيلـا ؟ فالتجارة التي تـبـهـ اليـهاـ الغـزالـ ثمـ استـكـرـهاـ ، لـيـسـ شـيـئـاـ بـجـانـبـ ماـ يـسـتـفـيدـهـ الـسـلـمـونـ حـيـنـ يـتـلـافـيـ حـيـاجـبـهـمـ ، وـيـنـفـضـ كـلـ مـنـهـمـ أـخـبـارـ قـومـهـ لـيـعـرـفـواـ مـاـ يـحـيـطـ بـهـمـ مـشـاـكـلـ الدـوـلـيـةـ ، وـلـيـسـتـعـدـواـ لـدـرـءـ مـاـ قدـ يـحـيـطـ بـعـضـ ثـورـهـمـ مـنـ خـطـرـهـ . ولكنـ الغـزالـ يـرـىـ الـعـلـمـ كـلـهـ فـيـ العـبـادـةـ الـمـجـرـدـةـ ، وـيـرـىـ الـجـزـاءـ أـيـضاـ عـبـادـةـ مـجـرـدـةـ ، وـكـثـيرـاـ مـاـ نـصـ الصـوـفـيـةـ عـلـىـ أـنـ لـذـائـذـ الـجـنـةـ لـيـسـ مـادـيـةـ ، وـلـكـنـهاـ تـسـبـيـحـ وـتـقـدـيسـ وـتـهـلـيلـ ؟ـ !ـ

الفصل الخامس

هل تورث الأخلاق

قرر الغـزالـ حـيـنـ تـكـلـمـ فـيـ التـرـيـةـ أـنـ قـلـبـ الطـفـلـ «ـ جـوـهـرـةـ نـفـيـسـةـ سـاذـجـةـ خـالـيـةـ مـنـ كـلـ نـقـشـ وـصـورـةـ »ـ وـهـوـ قـابـلـ لـكـلـ مـاـ يـنـقـشـ عـلـيـهـ ، وـمـائـلـ إـلـىـ كـلـ مـاـ يـمـالـ بـهـ إـلـيـهـ . فـاـنـ عـوـدـ الـخـيـرـ وـعـلـمـهـ نـشـأـ عـلـيـهـ ، وـسـعـدـ فـيـ الدـنـيـاـ وـالـآخـرـةـ . وـاـنـ عـودـ الشـرـ وـأـهـمـلـ اـهـمـالـ الـبـهـائـمـ شـقـىـ وـهـلـكـ »ـ صـ ٧٧ـ جـ ٣ـ .

وهـذاـ يـدـلـ عـلـىـ أـنـ الغـزالـ يـرـىـ أـنـ الـفـطـرـةـ الـأـنـسـانـيـةـ قـابـلـةـ لـكـلـ شـيـءـ ، وـأـنـهـ لـيـسـ لـهـاـ قـبـلـ التـرـيـةـ أـىـ لـوـنـ . فـالـخـيـرـ اـذـنـ يـكـتـسـبـ بـالـتـرـيـةـ . وـالـشـرـ يـكـتـسـبـ بـالـتـرـيـةـ . وـلـيـسـ لـلـاـنـسـانـ بـفـطـرـتـهـ مـيـلـ خـاصـ : لـاـ إـلـىـ الشـرـ ، وـلـاـ إـلـىـ الـخـيـرـ ، وـاـنـماـ يـسـعـدـ أـوـ يـشـقـىـ بـمـاـ يـقـدـمـ إـلـيـهـ أـبـوـاهـ وـمـعـلـمـوـهـ .

ويـؤـيدـ هـذـاـ قـولـهـ فـيـ تـهـذـيـبـ الـأـخـلـاقـ «ـ وـكـمـ أـنـ الـفـالـبـ عـلـىـ أـصـلـ الـمـزـاجـ الـأـعـتـدـالـ ، وـاـنـمـاـ تـعـتـرـىـ الـمـعـدـةـ الـمـضـرـةـ بـعـارـضـ الـأـغـذـيـةـ وـالـأـهـوـيـةـ وـالـأـحـوـالـ ، فـكـذـلـكـ كـلـ مـوـلـودـ يـوـلدـ مـعـتـدـلاـ صـحـيـحـ الـفـطـرـةـ ، وـاـنـمـاـ أـبـوـاهـ

يهوّداته ، أو ينصرانه ، أو يمجّسانه : أى بالاعتداد والتعليم تكتسب
الرذائل . وكما أنّ البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً ، وإنما يكمل
ويقوى بالنشوء والتربية والغذاء ، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة
للكمال ، وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم ،

ص ٦٤ ج ٣

ولكنا نجد الغزالي يقرر في ص ١٢٧ من « الميزان » أن النسب
الديني أمارة الديانة وحسن الخلق ، لأن العرق نزاع . ونجد كذلك
يحض في تربية الطفل على أن تكون المرضع امرأة صالحة متدينة تأكل
الحلال « فان اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه ، فإذا وقع عليه
تشوه الصبي انجذب طينته من الخبر » ، فيميل طبعه إلى ما يناسب
الجهاز » ص ٧٧ ج ٣

وهذا صريح في الحكم بوراثة الأخلاق ، إذ لا يمكن أن تعتبر
الرضاعة نوعاً من الأدب والتدريب ، إذ كانت تسبق الأدراك والتميز .
يضاف إلى هذا أنه يقرر أن الطفل قد يشاهد عليه الميل إلى الحياة ، وأنه
يجب استغلال هذه الغريزة فيه . ومن الواضح أنه لو كانت الفطرة
جميعاً خالصة من كل الميل ، لكان واجباً أن يغرس الحياة في الطفل
بالتربية والرياضة . لا أن ينمي ، إذ لا ينمي غير الموجود .

ومما تقدم نرى للغزالي رأيين مختلفين في وراثة الأخلاق . فهو
حين يقرر أن قلب الطفل جوهرة ساذجة خالية من كل نقش ، وقابلة
لكل صورة ، يحكم بأن الأخلاق لا تورث . وحين يدعو إلى أن لا ترث
الطفل امرأة غير متدينة يحكم بأنها تورث ؟ فهل يمكن رفع ما بين هذين
الأمررين الأمرين من ظاهر الخلاف ؟

تحرير هذا البحث

الواقع أن الغزالي لم يعن بهذا البحث ، لذلك كان كلامه فيه
متافقاً ، وغير محدود . ولو أنه عنى به عناية خاصة لين لنا أن الأخلاق

تورث ، وأن هذه الوراثة لا تمنع من قبول الطفل لكل صورة . فالفطرة البشرية صالحة لكل غرس ، لأن الأخلاق التي يرثها الطفل من أبويه تولد معه ضعيفة ميسورة الاقلاع ، بل الكهول يقدرون على استئصال رذائلهم بالرياضة والمجاهدة ، والطياع التي يرثها المرء من أبويه لاتعاوده الا عند خمود مزاياه التي كسبها بتصح أساتذته ، أو تأثير بيته صالحة ساقته إليها الأقدار .

اذن لا تناقض في كلام الغزالى الا من حيث الظاهر . فهو يقول بوراثة الأخلاق في ثبات آرائه المبشرة هنا وهناك ، وإن كان يجعل للتربية السلطان الأكبر في تكوين النفوس .

الباب السابع في الفضائل

نتكلم في هذا الباب عن تحديد الفضيلة ، وبيان أمehات الفضائل وما لها من الفروع ، ثم نذكر طائفة من الفضائل التي عنى بدرسها الغزالي : كـلصدق ، والصبر ، والتوكـل ، والخـمول ، وما إلى ذلك مما تدور عليه حـيـاة الأفراد ، وينبني عليه الـاجـتمـاع ، لـيرـى القـارـئـ ما يسمـوـ إليه في تصورـ المـثـلـ الـأـعـلـىـ لـلـحـيـاةـ .

تحديد الفضيلة

لا يفرق الغـزالـ بيـنـ كـلمـةـ فـضـيـلـةـ ، وـكـلمـةـ خـلـقـ ، فـهـماـ عـنـدـهـ عـبـارـةـ
عنـ هـيـةـ النـفـسـ ، وـصـورـتـهاـ الـبـاطـنـةـ .

وأسـاسـ الفـضـيـلـةـ فيـماـ يـرىـ يـرـجـعـ بـعـضـهـ إـلـىـ مـاـ أـخـذـ عنـ أـرـسـطـوـ
وـبـعـضـهـ إـلـىـ مـاـ أـخـذـ عنـ أـفـلاـطـونـ .ـ فـهـوـ يـأـخـذـ عنـ أـرـسـطـوـ نـظـرـيـةـ (ـالتـوـسـطـ)
الـتـيـ يـسـمـيـهاـ الـاعـتـدـالـ ،ـ فـقـوـةـ الـفـضـبـ مـثـلـاـ إـنـ مـالـتـ عـنـ الـاعـتـدـالـ ،ـ إـلـىـ
طـرـفـ الـزـيـادـةـ سـمـيـتـ تـهـورـاـ ؟ـ وـانـ مـالـتـ إـلـىـ الـضـعـفـ سـمـيـتـ جـنـبـاـ ،ـ فـأـمـاـ
إـنـ ظـلـتـ وـسـطـاـ بيـنـ الـزـيـادـةـ وـالـنـقـصـانـ فـهـيـ الشـجـاعـةـ .ـ فـلـمـحـمـودـ هوـ
الـوـسـطـ ،ـ وـهـوـ فـضـيـلـةـ ،ـ وـالـطـرـفـانـ رـذـيلـتـانـ ،ـ كـمـاـ يـقـولـ .ـ

وـلـاـ يـجـمـدـ الغـزالـ عـلـىـ هـذـهـ نـظـرـيـةـ حـتـىـ يـعـرـضـ عـلـيـهـ بـأـنـ مـنـ
الـفـضـائـلـ مـاـ لـاـ وـسـطـ لـهـ ،ـ بـلـ يـقـرـرـ أـنـ الـعـدـلـ لـيـسـ لـهـ طـرـفـانـ :ـ زـيـادـةـ
وـنـقـصـ ،ـ بـلـ لـهـ ضـدـ وـاحـدـ ،ـ وـمـقـابـلـ وـاحـدـ :ـ هـوـ الـجـوـنـ :

ويأخذ عن أفلاطون نظرية المماثلة ، أي مشابهة الله ، فإن الله فيما يرى أفلاطون : هو الوحدة التي تجتمع فيها وتصالح جميع كمالات المخلوقات . والرجل الفاضل عند أفلاطون هو الذي ينظر إلى الله بلا انقطاع كمن ينظر الفنان إلى الأمثلة . والغزالى يقرر أن المرء يقرب من الله بقدر ما يقرب من رسول الله ، ومعنى ذلك أن الرسول جمع مكارم الأخلاق ، وقد حضنا على أن تخلق بأخلاق الله ، ما عدا الكبراء . فمشابهة الرسول واحتذاؤه عند الغزالى تمثل تماما مشابهة الله عند أفلاطون .

وأخذ أيضاً عن أفلاطون نظرية التوافق L'harmonie ويسمى بها العدل . والتوافق عند أفلاطون هو تناسب القوى والملكات لتكميل في المرة جوانبه الخلقيه . واليك ما يقول الفرزالي فيما يشبهه هذا المعنى « وكما أن حسن الصورة الظاهرة لا يتم مطلقاً بحسن العينين دون الأنف والنفم والخد ، بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر »، فكذلك في الباطن أربعة أركان ، لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق ، فإذا استوت الأركان الأربع واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق ، وهي : قوة العلم ، وقوة الغضب ، وقوة الشهوة . وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث . أما قوة العلم فحسنتها وصلاحها في أن تصدر بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال ، وبين الحق والباطل في الاعتقادات ، وبين الجميل والقبيح في الأفعال . فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمـة ، والحكمة رأس الأخلاق الحسنة . وأما قوة الغضب فحسنتها في أن يصير انباضها وانبساطها في حد ماقتضيه الحـمة . وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت اشارة الحـمة ، أعني اشارة العقل والشرع » .

ويجب أن تتبه إلى هذه الكلمة الأخيرة ، وهي (اشارة العقل والشرع) فان الفزالي يدمج فيها التوافق والمماطلة معا ؟ أما المماطلة فهي

في لفظ الشرع ، وقد وضع لهذا أخلاق الرسول ممثلة في الفران .
وأما التوافق فهو في لفظ العقل ، اذ يرجع كل الملوك إلى طاعته .
وانظر قوله « فالعقل مثال الناصح المثير وقوة العدل هي القدرة ،
ومثالها مثال المفند المضى . والغضب هو الذي تنفذ في الاشارة ، ومثاله
مثال كلب الصيد فانه يحتاج الى أن يؤدب حتى يكون استراله وتوقفه
بحسب الاشارة »

والامر كذلك في قوة العلم وقوة الشهوة . وقد نص في «الميزان»
على أن العدل عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب واستشهد
بالقول المأثور : بالعدل قامت الأرض والسموات . وهذا الترتيب الواجب
خاضع للعقل بالطبع ، وهذا ما يراد بنظرية التوافق .

أمهات الفضائل

أصول الفضائل فيما يرى الغزالي أربعة : الحكمة والشجاعة والعفة
والعدل . وقد نص على أنه يعني بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب
من الخطأ في جميع الأحوال الاختيارية . ويعني بالعدل حالة للنفس وقوة
بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة . ويعني
بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في اقدامها واحجامها . ويعني
بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع .

ولهذه الأصول فروع ، كما يرى الغزالي ، فمن اعتدال قوة العقل
يحصل حسن التدبير ، وجودة الذهن ، وتقابة الرأي ، واصابة الظن ،
والتفطن لدقائق الأعمال ، وخفايا آفات النفوس .

وأما خلق الشجاعة فيصدر عنه : الكرم ، والتجدة والشهامة ،
وكسر النفس ، والاحتمال ، والحلم ، والثبات ، وكظم الفيظ ، والتودد .
وأما خلق العفة فيصدر عنها : السخاء ، والحياء ، والصبر ،

والمسامحة ، والقناعة ، والورع ، واللطافة ، والمساعدة ، والظرف ، وقلة الطمع .

وقد نص في «الميزان» على أن الحكمة فضيلة القوة العقلية ، والشجاعة فضيلة القوة الفضبية ، والغففة فضيلة القوة الشهوانية ، والعدل عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب (فليس جزءاً من الفضائل ، بل هو عبارة عن جملة الفضائل^(١)) .

وقد لاحظ الغزالى أن في هذه الفروع شيئاً من الغموض ، فكتب فى شرحها ثلاثة فصول مطولة في الميزان ، وبين معها كذلك ما ينشأ من الأفراط والتفريط ، من أنواع الرذائل ، وسنرجع إليها في غير هذا الباب .

الفضائل السلبية

في مقدورنا أن نقسم الفضائل إلى ايجابية وسلبية : فالأمل فضيلة ايجابية ، لأنها يحمل صاحبها على العمل في سبيل الحياة . والزهد فضيلة سلبية ، لأنه يرضي صاحبها بما قد يكون عليه من سوء الحال .

وبعد أن نفهم هذا تنظر في الفضائل التي عنى بدرسها الغزالى . فتجدها في الأغلب فضائل سلبية : من ذلك فضيلة الفقر ، وفضيلة الرهد ، وفضيلة التوكل ، وفضيلة الخوف ، وفضيلة الخمول ، وفضيلة التواضع ، وفضيلة الجوع .

ولم يعن الغزالى بشرح الفضائل الاجابية : كالشجاعة ، والاقدام والحرص ، وما إلى ذلك مما يحمل المرء على حفظ ما يملك ، والسعى لنيل ما لا يوجد . فإنه لا يكفي أن يسلم الرجل من الآفات النفسية ، بل يجب أن يزود بكل مقومات الحياة . وخير للمرء أن يوصم برذائل القوة

(١) ص ٩٠

من أن يتحلى بفضائل الضعف ° فان الضعف شر كله ، ولكن أكثر الناس
لا يفهون °

الفضائل الفردية

ويمكّنا أن نقسم الفضائل الى فردية واجتماعية ° فالقناعة فضيلة
فردية ، لأنها تخص صاحبها بالذات ° والأمانة فضيلة اجتماعية لأن المرء
يحتاج اليها حين يعامل الناس °

والغزالى يعني في الأغلب بالفضائل الفردية ، حتى لتجسيده يكتب
مؤلفاته لأفراد يعيشون في عزلة وانفراد ° فلو أردت أن تدخل في
عالم السكون ، لوجدت لدى الغزالى من آداب الوحدة والعزلة ما يقنعك
ويرضيك ° ولكنك لو أردت أن تدخل في عالم السياسة ، لما وجدت لدى
فكرة واحدة يمكن أن تكون نبراساً يهتدى به الساسة من الوزراء
والسفراء °

درجات الأخلاق

وبعد معرفة أمثلات الفضائل وما لها من الفروع ، يخطر بالبال هذا
السؤال : هل يرى الغزالى أن في مقدور المرء أن يصل إلى أعلى درجات
الأخلاق ؟

ونجيب بأنه يرى ذلك في مقدور المرء ، وانظر قوله :
« وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق
ملكاً مطاعاً يرجع الخلق كلهم إليه ، ويقتدون به في جميع الأفعال °
ومن انفك عن هذه الجملة كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج
من بين البلاد والعباد » °

والدرجة العليا عنده هي درجة النبوة ، والصوفية فيما يرى يقربون
من هذه الدرجة ، وإليك ما يقول عنهم في كتابه « المتقى من الضلال » :

« لو جمعوا عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على اسرار الشرع من العلماء ، ليغروا شيئاً من سيرتهم وأخلاقهم ، ويبذلوا بما هو خير منه ، لم يجدوا اليه سبيلاً : فان جميع حر لانهم وسلنا لهم ، في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسه من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به » .

واطن أتنا هدمنا هذا الحكم من أساسه بما أسلفنا من نقد أحوال الصوفية ، فان ما استحسن الغزالي من احوالهم لا يمكن أن يكون مقتبساً من نور مشكاة النبوة ، وهل كانت النبوة يا هذا وساوس واضاليل ؟ تعالى النبوة عما تصفون !

اين مقياس العقل والشرع ؟ هاته ، هاته : فهو وحده فصل الخطاب !

الفصل الأول

فضيلة الصدق

ابتدأ الغزالي الكلام على هذه الفضيلة بقوله تعالى (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) وبقوله عليه السلام « ان الصدق يهدى الى البر والبر يهدى الى الجنة ، وأن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . وان الكذب يهدى الى الفجور ، والفحجور يهدى الى النار ، وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » ثم قال : ويكتفى في فضيلة الصدق أن الله تعالى وصف الأنبياء به في معرض المدح والثناء فقال : « واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقاً نبياً » وقال : « واذذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً » . وقال : « واذذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقاً نبياً » .

مراتب الصدق

للصدق فيما يرى الغزالي ستة معانٍ : صدق في القول ، وصدق في النية والأرادة ، وصدق في العزم ، وصدق في الوفاء بالعزم ، وصدق في العمل ، وصدق في تحقيق مقامات الدين . فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صديق ، ومن صدق في شيء فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه .

الأول - صدق القول . وهو أشهر أنواع الصدق ولا يجوز العدول عنه إلا لصلاحه . كتأديب الصبيان والنساء ومن يجري مجراهم . وفي الحذر من الظلمة ، وفي قتال الأعداء ، والاحتراز من اطلاعهم على أسرار الملك . قال الغزالي : « فمن اضطر إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه لله فيما يأمره الحق به ، ويقتضيه الدين . فإذا نطق به فهو صادق ، وإن كان كلامه مفهوماً غير ما هو عليه . لأن الصدق ما يريد لذاته ، بل للدلالة على الحق والدعاء إليه . فلا ينظر إلى صورته ، بل إلى معناه . نعم في مثل هذا الموضوع ينبغي أن يعدل إلى المعارض ما وجد إليها سبيلاً . فقد كان رسول الله إذا توجه إلى سفر ورئي بغيره . كيلا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد . وليس هذا من الكذب في شيء . قال رسول الله : « ليس بكتاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً ونمى خيراً » . ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع : « من أصلح بين اثنين . ومن كان له زوجتان . ومن كان في مصالح الحرب . والصدق هنا يتتحول إلى النية ، فلا يراعي فيه إلا صدق النية وارادة الخير » .

الثاني - صدق النية والأرادة ، ويرجع ذلك إلى الأخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله .

الثالث - صدق العزم . فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل ، فيقول : إن رزقني الله مالا تصدق بجميعه ، أو بشطره ، فهذه العزيمة قد يصادفها في نفسه وهي جازمة صادقة ، وقد يكون في عزمه نوع ميل

وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة ، فالصدق هنا عبارة عن التمام والقوة .

الرابع - صدق الوفاء بالعزم ، فان النفس قد تسخو بالعزم في الحال ، اذ لا مشقة في الوعد والعزم ، فإذا حققت الحقائق ، وحصل التمدن ، وهاجت الشهوات ، انحلت العزيمة ، ولم يحصل الوفاء بالعزم ، وهذا يضاد الصدق فيه .

الخامس - صدق الأعمال ، وهو أن تكون أعمال المرء الظاهرة ، صورة لحاليه الباطنة . بخلاف أعمال الرياء .

السادس - الصدق في مقامات الدين ، كالصدق في الخوف والرجاء والزهد والرضا والتوكيل والحب ، لأن لامثال هذه الأمور مبادئ يطلق بظهورها الاسم ، تم لها ححقق ، والصادف من نال تلك الحقائق ٠٠٠ وفي هذا المعنى شيء من الغموض .

الفصل الثاني

فضيلة الصبر

يرى سocrates أن الفضيلة أساسها العلم . فمتى علم الإنسان الخير فعله ، ومتى عرف الشر تركه . ويقرب رأي الغزالي من هذا في أساس الصبر ، الا أنه يشترط أن تصل المعرفة إلى اليقين حتى تمر الصبر وعليك قوله في هذا المعنى : « ترك الأفعال المشتهاة عمل يمره حال يسمى الصبر ، وهو ثبات باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة . وثبتات باعث الدين حال تمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة . فإذا قوى يقينه ، أعني المعرفة التي تسمى ايمانا ، وهو اليقين بكون الشهوة عدواً قاطعاً لطريق الله تعالى قوى

باعت الدين، وادا قوى ثباته تمت الافعال على خلاف ماتقاضاه الشهوة
ووال فى موطن اخر : « والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين اذ اليقين
يعرفه ان المعصية ضارة ، والطاعة نافعة ، ولا يمكن ترك المعصية ،
والموافقة على الطاعة الا بالصبر ، وهو استعمال باعث الدين في وهم باعث
الهوى ^(١) » ويدرك اميل بوراك فى كتابه :

Cours Élémentaires de Philosophie

ص ٣٤٣ ان العلم لا يكفى أساسا للفضيلة • فمعرفة الواجب لا تكفى
للحفاظ به • بل لا بد من حبه وارادته ارادة حرة ثابتة • وهذا التقييد
يساوى ما اشترط الغزالى من اليقين ، لأن المرء متى تيقن نفع شيء احبه ،
أو ناد يحبه • ويرى الدلور منصور فهمى والاستاذ عبد خير الدين
أن المعرفة التى يراها سقراط اساس الفضيلة لا بد ان تكون المعرفة
الجازمة التى تورث الارادة ثم التنفيذ • واذن فلا اعتراض على سقراط •

أسماء الصبر

ويقرر الغزالى أن الصبر تختلف أسماؤه باختلاف ما يصبر المرء
عنه ، فهو جماع كثير من الفضائل ، أو هو نصف اليمان • فان كان
صبرا ، عن شهوة البطن والفرج سمى عفة • وان كان في احتمال مكرره
سمى صبرا ، وضده الجزع • وان كان في احتمال العنى سمى ضبط
النفس ، وضده البطر • وان كان في الحرب سمى شجاعة ، وضده زلجن •
وان كان في كظم الغيظ والغضب سمى حلماء ، وضده التذمر • وان كان
في نائبة مضجرة سمى سعة الصدر وضده الضجر • وان كان في اخفاء
كلام سمى كتمان السر • وان كان عن فضول العيش سمى زهدا ، وضده
الحرص • وان كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمى فناعة ، وضده
الشره •

(١) ٦٧ ج ٤
(٢) ٧٠ ج ٤

درجات الصابرين

وللإنسان بالنسبة للصبر ثلاثة أحوال :

**الأولى - ان يقهر داعي الهوى ، فلا تبقى له قوة المنازعه ، ويتوصل الى
هذه الحال بدوام الصبر .**

**الثانية - أن تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين ،
وهي أسوأ الأحوال .**

الثالثة - أن تكون الحرب سجالاً بين الهدى والضلال .

حكم الصبر

ويقسم الصبر باعتبار حجمه الى فرض ونفل ومكروه ومحرم .
فالصبر عن المحظورات فرض ، وعن المكرهات نفل ، والصبر على
الاذى المحظور محظور ، كمن تقطع يده او يد ولده فيسكن ويسير ،
وكمن يقصد حرمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته ، فيصبر عن اظهار
الغيرة ، ويسكت على ما يجري على أهله . فهذا الصبر محروم . والصبر
المكره هو الصبر على آذى يناله بجهة مكرهه في الشرع ، كنضر
الأجنبي الى امرأته .

ضرورة الصبر

ويرى الغزالي أن المرء محتاج الى الصبر في كل حال : فهو يحتاج
إليه في السراء ، كما يحتاج اليه في الضراء . بل هو اليه في السراء
أحوج ، فالرجل كل الرجل من يصبر على الماء . والصبر هنا يكون
بأن يراعي المرء حقوق الله في ماله بالاتفاق ، وفي بدنـه ببذل المعونة
للخلق ، وفي لسانـه ببذل الصدق .

والطاعة تحتاج الى صبر ، لأن النفس بطبيعتها تنفرد من العبودية .

وللصبر على الطاعة ثلات أحوال : الأولى قبل الطاعة ، وذلك تصحح النية والأخلاق ، والصبر على شوائب الرياء ، والغزم على الاخلاص والوقفاء . والثانية حالة العمل ، كى لا يفتر قبل الفراغ منه . والثالثة بعد انتهاءه اذ يحتاج الى الصبر عن افشاءه والتظاهر به ، والنظر اليه بعين العجب .

ويحتاج المرء الى الصبر عن المعاصي ، وعلى الاخص التي صارت مألوفة بالعادة ، اذن تنضاف العادة الى الشهوة . ثم ان كانت المعصية مما يسهل فعله كان الصبر عنها انتقل على النفس ، كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة ، والكذب ، والمراء ، والثناء على النفس تعرضا وتصريحا ، والمرح المؤذى للقلوب .

والصبر على أذى الناس فضيلة ، وأعظم منه الصبر على أنواع البلاء : كموت الأعزاء ، وهلاك الأموال ، وزوال الصحة .

ويرى الغزالي أن توجع القلب ، وبكاء العين ، لا ينافي الصبر ، لأن ذلك مقتضى البشرية ، ولا يفارق الانسان الى الموت .

والذى كفى جميع الشهوات واعتزل الناس ، لا يستغنى عن الصبر على العزلة والانفراد ، ويريد الغزالي بهذا أن يؤكّد احتياج المرء الى الصبر في جميع الأحوال والأفعال .

تحصيل الصبر

ويمكن تحصيل الصبر باضعاف باعث الشهوة ، وتنمية باعث الدين . ويضعف باعث الشهوة بتقليل مادته من حيث النوع والكثرة ، أو قطع أسبابه ، أو تسليمة النفس بمباح من جنس ما يشتهي . ويفوّي باعث الدين بأمرتين : الأول أطماعه في فوائد المجاهدة بالتفكير في الاخبار الواردة عن الصبر وعواقبه . والثاني أن يعود هذا باعث مصارعة باعث الهوى حتى يمرن على جهاده ومقاومته .

الفصل الثالث

فضيلة الخمول

الغزالى يسمى الخمول فضيلة ، ويحيل الى أنه لا فضل فيه !! ولكن تسمية الغزالى هذه تدلنا عن شيء خاص يوضح رأيه في الأخلاق: ذلك أنه حين دعا الى الخمول، لم يدع الى التجرد من الخصائص الذاتية التي توجب ذيوع الشهرة وبعد الصيت؛ وقد خص الشهرة المذمومة بما يأتي من طريق التكلف . وهو لا ينكر أن يشتهر المرء بعمله في غير جلبة ولا ضوضاء .

وقد نبه بلطف الى أن حسن السمعة قد يفسد المعلمين بنوع خاص، فقد يعود المعلم على كثرة الطلبة ، فيفتر شاطئه حين يقولون . وفي هذا المعنى يذكر عن أبي العالية أنه كان اذا جلس اليه أكثر من ثلاثة قام . ولم ينس الغزالى أن التجمهر حول النساء فتنة لهم ، وذلة لتابعهم ، فذر في هذا المعنى كلمة جامعة لعمر بن الخطاب .

ويقول الغزالى : « فان قلت فأى شهرة تزيد على شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء ، فكيف فاتتهم فضيلة الخمول ؟ فاعلم أن المذموم طلب الشهرة ، فأما وجودها من جهة الله سبحانه وتعالى من غير تكلف من العبد فليس بمتباه . نعم فيه فتنة على الضعفاء ، دون الأقوياء ، وهم كالغريق الضعيف اذا كان معه جماعة من الفرقى فالاولى به أن لا يعرفه أحد منهم ، فانهم يتعلقون به فيضعف عنهم ، فيهلك معهم . »

وأما القوى فالاولى أن يعرفه الفرقى ليتعلقا به فيحييهم ويثاب على ذلك .

فالرجل الخير فيما يرى الغزالى هو الذى لا يعرف غير الواجب ولا يهمه أقبل الناس عليه ، أم أعرضوا عنه ، لأنه بالواجب مشغول .

الفصل الرابع

فضيلة التوكل

كتب الفزالي عن التوكل أربعا وخمسين صفحة في الاحياء وتلاته عشرة صفحة في كتاب الأربعين ، وسبعينا وعشرين صفحة في منهاج العابدين . وهو يبالغ في المنهاج أكثر مما يفعل في الأربعين والاحياء ، فان كلامه في الكتابين الآخرين واحد ، وان اختلف في الایجاز والاطنان ، وتنيرا ما يحصل في الأربعين على الاحياء .

وأول ما نلاحظه أن الفزالي اهتم بهذه الفضيلة ، حتى احتاج الى أن يتذر عن تطويله في كتاب المنهاج ، اذ كان التطويل يخالف شرط ذلك الكتاب . وهذا الاهتمام نفسه يوضح لنا جانبا من أهم الجوانب في فهمه للحياة .

ونقرر منذ الآن أن ما كتبه عن التوكل صريح في الدعوة الى الرهبنة ، وقطع العلاقة مع الناس ، والتدرج على احتمال القلماً والجوع ، والاقتناع بأن الموت من جملة الأرزاق !

ونحن نعلم أن العلماء يجب أن يضربوا الأمثال بأنفسهم للناس كما فعل عمر حين خرج بعد الخلافة يتجر في الأسواق ، ولكن الفزالي يقول « فالاهتمام بالرزق قبيح بذوى الدين ، وهو بالعلماء اقبح ، لأن شرطهم القناعة . والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة ان كانواوا

(١) ناقشنى الاستاذ محمد بك جاد المولى يوم الامتحان فيما اخلته على الفزالي من تقييده الاهتمام بطلب الرزق ، وهو يرى أن «الاهتمام» هو القبيح ، فاما طلب الرزق فلا قبح فيه ولكن يلاحظ أن الفزالي قابل الاهتمام بالقناعة ، والقناعة في طلب الرزق ليست فضيلة ، بل الفضيلة هي الاهتمام بالرزق . ولا زلت ارى انه لا معنى لان يكون الاهتمام بالرزق قبيحا بدوى الدين حتى يكون بالعلماء اقبح . ولكن علما الفزالي أنه ينظر الى هذه المسألة نظرة صوفية كما قال فضيلة الاستاذ الشیخ عبد الوهاب التجار .

معه ، الا اذا أراد أن لا يأخذ من أيدي الناس وياكل من كسبه ، فذلك له وجه لائق العالم العامل الذى سلوكه بظاهر العلم والعمل ، ولم يكن له سير بالباطن ، فان الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن ، فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب الى الله تعالى بما يعطيه أولى ، فانه تفرغ لله عز وجل ، واعانة للمعطى على نيل الثواب « ص ٢٨٦ ج ٤

ولو أنه دعا الحكومات الى الأخذ بيد العلماء ، واغاثتهم عن السعي الى الرزق لتحقير جهودهم في نشر العلم ، لكن له قسط من الصواب . أما زعمه أن الكسب يمنع من السير بالفكر الباطن ، وأن الأولى للعالم أن يكتفى بما يعطيه الناس ليعينهم على نيل الثواب ، فهو رأي يهوى بصاحبه الى الحضيض ، ولا يتاسب مع مكانة العلماء .

كرامة السؤال

ومع أن الغرالي يبيح للعالم السؤال ليعين المدعى على نيل الثواب ، فانا نجد في مكان آخر يقرر أن السؤال حرام في الأصل وإنما يباح لضرورة ، أو حاجة قريبة من الضرورة ، لأن في السؤال اظهار الشكوى من الله باظهار الفقر ، ولأن السائل يذل نفسه بسؤاله ، وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله ، ولأنه يؤذى المسئول : فقد لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب . فان بذل حياء من السائل أو رباء فهو حرام على الآخذ .

ويمكن الحكم بأن الغرالي يحتاط أبلغ احتياط في اباحة السؤال ولكن يبقى انه من اهانة العلم والدين أن يقبل المرء بكليته على العبادة أملأ في أن يطعمه سواه ، فانه لا يعقل أن تكون نوافل العبادات مما يترك

فِي سَبِيلِه طَلْبِ الْمَعَاشِ ، حَتَّى يُبَاح لِأَجْلِهَا الشُّوَالُ^(١) •

حُكْمُ الْكَسْبِ

وَالغَزَالِيَّ مَعَ هَذَا لَا يَرِى الْكَسْبَ مَنَافِيَ التَّوْكِلِ فِي كُلِّ حَالٍ ، فَمِنْ الْخَطَا فِيمَا يَرِى أَنْ « يَظْنُ أَنْ مَعْنَى التَّوْكِلِ تَرْكُ الْكَسْبِ بِالْبَدْنِ ، وَتَرْكُ التَّدْبِيرِ بِالْقَلْبِ ، وَالسَّقْوَطُ عَلَى الْأَرْضِ كَالْخَرْفَةِ الْمَلَقَةِ » ، وَكَاللَّدْحِمِ عَلَى الْوَضْمِ ، وَهَذَا ظَنُّ الْجَهَالِ ، فَإِنْ ذَلِكَ حَرَامٌ فِي الشَّرْعِ ، وَالشَّرْعُ قَدْ أَنْتَى عَلَى الْمُتَوَكِّلِينَ ، فَكَيْفَ يَنْالُ مَقَامَ مَقَامَاتِ الدِّينِ بِمَحْظُورَاتِ الدِّينِ؟ » وَقَدْ يَبْيَنُ أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي سَعْيِه إِلَى مَقَاصِدِه إِنَّمَا أَنْ يَكُونُ بِخَلْبِ نَافِعٍ هُوَ مَفْقُودٌ عِنْهُ كَالْكَسْبِ ، أَوْ لَفْظُ نَافِعٍ هُوَ مَوْجُودٌ عِنْهُ كَالْأَدْخَارِ ، أَوْ لَدْفَعٍ ضَارٍ لَمْ يَنْزِلْ بِهِ كَدْفَعِ الصَّائِلِ وَالسَّارِقِ ، أَوْ لِازْلَالِهِ ضَارٌ قَدْ نَزَلَ بِهِ كَالْتَدَاوِيِّ مِنَ الْمَرْضِ •

وَالنَّافِعُ بِاعتِبَارِ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَجْلِبُ بِهَا ثَلَاثَ دَرَجَاتٍ : مَقْطُوعٌ بِهِ •
وَمَظْنُونٌ ظَنَّاً يَوْئِقُ بِهِ ، وَمَوْهُومٌ وَهَمَا لَا تَقْنُونَ بِهِ نَفْتَةٌ تَامَّةٌ ، وَلَا
تَطْمَئِنُ إِلَيْهِ •

وَالْأُولَى كَالْأَسْبَابِ الَّتِي ارْتَبَطَتْ بِهَا الْمُسَيَّبَاتُ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ وَمُشَيْتِهِ
اِرْتِبَاطًا مُطْرِدًا لَا يَخْتَلِفُ ، كَمَنْ يَرِى الطَّعَامَ مَوْضِعًا بَيْنَ يَدِيهِ وَهُوَ

(١) قَامَتْ ضَجَّةٌ يَوْمَ الْامْتِحَانِ بِسَبِيلِهِ هَذَا الْحُكْمُ ، وَأَنْكَرَ فَضِيلَةُ الْإِسْتَاذِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْمُجِيدِ الْلَّبَانِ أَنَّ يَكُونَ الغَزَالِيَّ قَالَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ • وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْفَطْرَةَ الْمُخَاصِّةَ تَسْتَكِنُ السُّؤَالَ •

وَقَدْ كَتَبَ فَضِيلَةُ الْإِسْتَاذِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْوَهَابِ النَّجَارَ بِهَامِشِ النُّسُخَةِ الَّتِي كَانَتْ
عِنْدَهُ مَا يَأْتِي : كَاتَ قَدْمَ الْمَرْءِ أَرْسَيَ فِي الرَّهْدِ مِنْ قَدْمِ الغَزَالِيِّ ، فَقَدْ كَانَ مُتَحَقِّقًا بِالرَّهْدِ
عَلَى وَاشْتَهَرَ ذَلِكَ مِنْهُ أَشْتَهَارًا لَا شَبَهَ فِيهِ • وَقَدْ قَالَ :
الْأَمْرُ لِلَّهِ قَدْ أَصْبَحَتْ فِي دُعَةِ أَرْضِ الْقَلِيلِ وَلَا أَمْتَمْ لِلْقُوتِ
وَشَاهَدَ خَالِقُهُ أَنَّ الصَّلَاةَ لَهُ أَعْزَزُ عَنِي مِنْ درِي وَيَا قَسْوَتِي
وَمَعَ هَذَا فَرَأَيْهُ فِي الرَّهْدِ خَيْرٌ مِنْ رَأْيِ الغَزَالِيِّ ، أَلْهَ كَانَ مَعَ اعْجَابِهِ بِالْقَنَاعَةِ وَالرَّهْدِ
يُعِيبُ عَلَى الْقَانُونِ الزَّاهِدِ أَنْ يَكُونَ عِيشَهُ مِنْ فَضْلَاتِ أَهْلِ الْيَسَارِ • وَيَقُولُ :
وَيَعْجِبُنِي دَلَبُ الَّذِينَ تَرْهِبُسُوا سَوْيَ أَكْلِهِمْ كَدِ النَّفَرُونَ الشَّحَانُ

جائع ٠ ثم لا يمد اليه يده ، لانه يرى السعي الى تناوله ومضنه تفويتنا للتوسل ، وهذا فيما يرى الفزالي جنون « فانك ان انتظرت ان يخلق الله فيك شيئا دون الخبز ، او يخلق في الخبز حركة اليك ، او يسخر ملكا ليمضنه لك ويوصله الى معدتك ، فقد جهلت سنة الله ٠ وكذلك لو لم تزرع الارض وطممت في أن يخلق الله بنيانا من غير بذر ، أو تلد زوجتك من غير وفاع ، فكل ذلك جنون ٠ »

والتوسل في هذا المقام - كما نص الفزالي - لا يكون بالعمل ، بل بالعلم ، ومعنى ذلك انه لا يجوز لك ترك الاسباب ، وانما تعلم ان الله هو مسبب الاسباب ٠

والثانية الاسباب التي ليست متيقنة ، ولكن الفالب أن المسبيات لا تحصل دونها ، ونان احتمال حصولها دونها بعيدا ، فمن يترنل الامصار والقوافل ، ويسافر في البوادي التي يندر ان يطوفها الناس ؛ ويبدون سفره من غير زاد ، فهو ليس شرطا في التوسل ، بل استصحاب الزاد سنة الاولين ، ولا يزول التوسل به ٠

وقد أسرف الفزالي حين تحدث عن هذا الموقف في المنهاج ، وانظر ماذا يقول : « فان قلت : فهل تدخل الbadie بلا زاد ؟ فاقول : ان كان لك قوة قلب بالله تعالى وثقة بالله بوعده سبحانه وتعالى ، فادخل ، والا كن كالعوام بعلائمهم » ص ٨٢ ٠

ولو أنتا رجعنا الى ما وضعه من أداب المسافر لعلمنا أنه احتاط هناك ، فتح المسافر على أن يأخذ حاجته من الزاد ، ثم أوصاه بان يأخذ قدراً يسع به على رفاته ، فكيف يصبح المسافر بزاده في الbadie من العوام ؟ ومن عسى أن يكون هؤلاء العوام المؤذبون ؟

وقد توقع الفزالي أن يسأل عن حمل رسول الله وأصحابه للزاد ، ولكنه تفضل فأجاب بان ذلك مباح غير حرام ! ثم توقع أن يسأل : هل

ترك الزاد أولى أم أخذه لمن قوى يقينه ؟ وأجاب في النهاج بأن الترك أفضل ، وأنا لا أعلم لهذا الفضل أساسا غير التشكك الذي ينكره العقل ، وبيان الدين !

ولم يفت الغزالى أن يذكر أن هذه المجازفة قد تكون القاء بالأيدي إلى التهملة ، فأجاب بأن شرطها أولا رياضة النفس حتى تحتمل الجوع أسبوعا أو ما يقاربه ، ثانيا أن يكون المتكمل بحيث يقوى على التقوت بالخشيش ، وما يتყق من الأشياء الخسيسة ، إذ لا يخلو الامر من أن يوجد آدميا في بحر الأسبوع أو ينتهي إلى محللة ، أو قرية ، أو إلى حشيش يجترئ به !

وأحب أن يذكر القارئ هذه الصورة الغريبة ، فان الغزالى يدعو إليها جمهور المسلمين !

وانظر كيف يقول : « فان قلت فما قولك في القعود في البلد بغیر کسب . أهو حرام أو مباح أو مندوب ؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام لأن صاحب السياحة في الbadia اذا لم يكن مهلكا نفسه ، فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما . بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ، ولكن قد يتاخر عنه ، والصبر ممكن الى أن يتყق . ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد اليه ، ففعله ذلك حرام . وان فتح باب البيت وهو غير مشغول بعيدا ، فالکسب والخروج أولى له . ولكن ليس فعله حراما الى أن يشرف على الموت ، فعند ذلك يلزمـه الخروج والسؤال والکسب . وان كان مشغول القلب بالله غير مشرف الى الناس ، ولا متطلع الى من يدخل من الباب فـيأتيه برزقه ، بل تطلعـه الى فضل الله تعالى وانتقالـه بالله فهو أـفضل . »

وما أدرى كيف يتყق هذا مع قوله في نفس الصفحة : فإذاً التباعد عن الاسباب كلها مـراغمة للحكمة ، وجهل بـسنته الله تعالى ؟ الا أن يكون «السؤال من الاسباب ، وهو سبب مهين !

وأحب أيضاً أن يذكر القارئ هذا التناقض في الجمع بين التوكل وبين السؤال !! وكيف تقوم لامة فاتمة وهي تربى على هذه الأخلاق !!

ثم ما هو الفرق بين من يترك الطعام عند وجوده ، وبين من يدخل الbadia بلا زاد ؟ لا فرق الا أن الثاني قد يوجد من يتصدق عليه ، أو يوجد حشيشا يقتات به ! ولو ذكر الغزال أن اليد العليا خير من اليد السفلة ، وأن الله نرم بني آدم وحملهم في البر والبحر ورزقهم من الطيبات ، لما اختار لامرئ هذا الحظ الخسيس ، ولما وضع هؤلاء المشردين ، في طبقة المتوكلين .

والدرجة الثالثة ملابسة الأسباب التي يتوجهون بها إلى المسبيات من غير نية ظاهرة ، كالذى يستقصى التسديرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه . يقول الغزال « وذلك يخرج بالدلالة عن درجات التوكل كلها ، وهو الذى فيه الناس كلهم ، اعنى من يكتب بالحيل . الدقيقة اكتساباً مباحاً مالاً مباحاً » ^(١) .

وإذا كان الاحتيال لكتاب المباح مما ينافي التوكل ، فقد انهدم أعظم ركن في بناء المالك والشعوب . والغزال يردد النفرة من الجملة لكتاب الرزق ، وقد لاحظنا ذلك عليه حين تكلم عما يجعل بالتجزء من أن لا يكون أول دخل في السوق ولا آخر خارج منه .

ونرى الحاجة ماسة إلى أن تنبه إلى أن فهم التوكل بهذه الصورة خطأ صراح ، وليس علينا من حرج إذا رأينا الغزال من الخاطئين ، وما نريد أن نزيد !

وللمتوكل مقامات ثلاثة :

الأول - مقام من يترك الزاد وهو يدور في البوادي ، وإنما كان
هذا أفضل فيما يرى الغزالي لأن فيه تشتتاً على الرضا بالموت !

الثاني - مقام من يقعد في بيته أو في مسجد ، ولكنه في القرى
والأماصار . وهذا أضعف من الأول كما يقول .

الثالث - من يخرج للكسب على الوجه الذي ارتفع حين تكلم
عن آداب الكسب ، وهو أن لا يقصد به الاستكثار ، ولم يكن اعتماده على
بضاعته وكفايته ، وعجب والله أن يكون الكسب أدنى درجات التوكيل .

توكيل المعيل

غير أن الغزالي يخص تلك الحالة الشديدة بالمنفرد ، وقد قدمنا أنه
يرضى له الاقتضاء بان الموت من جملة الأرزاق .

أما المعيل صاحب الأولاد فإنه لا يجوز له إلا المقام الثالث ، وهو
ـ توكيل المكتسب ، كـ توكيل أبي بكر رضي الله عنه اذ خرج للكسب « فاما
ـ دخول البراري وترك العيال توكلـا في حقـهم ، أو القعود عن الاهتمام
ـ بـأـمرـهـمـ توـكـلاـ فيـ حـقـهـمـ ،ـ فـهـذـاـ حـرـامـ .ـ وـقـدـ يـفـضـيـ إـلـىـ هـلـاـكـهـمـ ،ـ وـيـكـونـ
ـ هـوـ مـؤـاخـذـاـ بـهـمـ .ـ بـلـ التـحـقـيقـ أـنـ لـاـ فـرـقـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ عـيـالـهـ .ـ فـاـنـهـ اـنـ سـاعـدهـ
ـ الـعـيـالـ عـلـىـ الصـبـرـ عـلـىـ الـجـوـعـ مـدـةـ وـعـلـىـ الـاعـتـدـادـ بـالـموـتـ عـلـىـ الـجـوـعـ رـزـقاـ
ـ وـغـنـيمـةـ فـيـ الـآـخـرـةـ فـلـهـ أـنـ يـتـوـكـلـ فـيـ حـقـهـمـ »ـ وـهـذـهـ مـيـجازـفـةـ مـنـ الغـزـالـيـ:
ـ اـذـ يـرـضـيـ أـنـ يـعـوـدـ الرـجـلـ أـبـنـاهـ عـلـىـ الـجـوـعـ ،ـ وـأـنـ يـمـرـهـمـ عـلـىـ الـاعـتـدـادـ
ـ بـالـموـتـ جـوـعاـ فـيـ سـيـلـ الـآـخـرـةـ ،ـ وـقـدـ يـكـونـهـنـ لـمـ يـلـغـواـ سـنـ التـكـلـيفـ .ـ

يقول الغزالي : « وقد انكشف لك من هذا أن التوكيل ليس انقطاعاً
ـ عنـ الأـسـبـابـ ،ـ بـلـ الـاعـتـمـادـ عـلـىـ الصـبـرـ عـلـىـ الـجـوـعـ مـدـةـ ،ـ وـالـرـضاـ بـالـموـتـ

ان تأخر الرزق نادراً ، وملازمة البلاد والأمصار وملازمة البوادي التي لا تخلو عن الحشيش وما يجري مجرىه . فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى ٠٠٠ النـ » ؟

ونكرر ما لاحظناه من أن فهم التوكيل بهذه الصورة خطأ مبين ، فإنه يجر القادر على الطلب إلى الرضا بالسؤال ، وانتظار المصادفات ، والترحيب بالموت ، مع أن قطع آسبابه من أول ما يعني به بناة الأخلاق .

الادخار

ورأى الفزالي في الادخار عجيب ، إذ أفضل الحالات عنده لمن حصل على مال بارث أو كسب أو أى سبب من الأسباب أن يأخذ قدر حاجته في الوقت : فياكل ان كان جائعاً ، ويجلس ان كان عارياً ، ويشتري مسكنًا مختصراً ان كان محتاجاً ، ويفرقباقي في الحال . ولا يأخذ ، ولا يدخل ، الا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج اليه ، فيدخله على هذه النية !

والذى يدخل لسنة ليس من المتوكلين أصلًا كما يقول .

والذى يدخل لأربعين يوماً فما دونها يحرم من المقام المحمود الموعود في الآخرة للمتوكلين .

ونحب أن يتأمل القارئ هذا الرأي في الاقتصاد ، فقد أكثر المؤرخون من لوم العرب على اهمال هذا العلم ، وعدوا العجل به سبباً لسقوط المكملة العربية ، مع أنها كانت تسيطر على أخصب بلاد العالم كمصر والعراق . ولكن كيف يحترم هذا العلم في أمة يقول امام الأئمة فيها : إن ادخار المال لأربعين يوماً يحرم المرء من المقام المحمود ؟!

وقد تفضل الفزالي فأباح للمعيل أن يدخل قوت عاليه لسنة !؟

وتفضل كذلك فأجاز للرجل أن يدخل الكوز وأثاث البيت !!

والفرق عنده بين الكوز وغيره ، أن سنة الله لم تجر بتكرر الأوانى مع الحاجة إليها في كل وقت ، ولكن جرت سنته بتكرر الارزاق في كل سنة . وكان عليه أن يعرف أن الرزق إنما يتجدد في كل سنة ، لمن يملك من المزارع والمتاجر ما يتجدد ريعه في كل سنة . فيا عجباً كيف يحيز التوكل اتلاف رأس المال !

آداب المتوكلين

وضع الغزالى الآداب الآتية للمتوكل حين يخرج من بيته :

(١) أن يغلق الباب ، ولا يستقصى فى أسباب الحفظ ، كالتمسه من العبران الحفظ مع الفعل ، وكجمعه أغلاقاً كثيرة !

(٢) أن لا يترك في البيت متاعاً يحرض عليه السرقة !

(٣) ما يضطر إلى تركه في البيت ، ينبغي أن ينوى عند خروجه الرضا بما يقضى الله فيه من تسليط سارق عليه !

(٤) إذا عاد فوجد المال مسروقاً فينبئ أن لا يحزن ، بل يفرح إذا أمكنه !

(٥) أن لا يدع على السارق الذي ظلمه بالأخذ ، فان فعل بطل توكله ، ودل على تأسفه على ما فات !

(٦) أن يقتم لأجل السارق وعصيائه وتعرضه لعذاب الله ، ويشكر الله أذ جعله مظلوماً ولم يجعله ظالماً !

وما أدرى ما الذي أنسى الغزالى أن يحضر المتوكل على أن يترك باب البيت مفتوحاً ، وأن يعلق عليه لوحة مكتوبًا فيها بخط واضح جيل : من أراد أن يأخذ شيئاً من هذا البيت فهو مغفور الذنوب ، بل مجزىء بما مكن صاحبه من صنع المعروف !!

وليس من التوَّل بالطبع أن يعقب المساء الجنة ، لينالوا على يد الوالي جراء ما قدمت أيديهم . بل التوَّل هو أن لا يبالغ المساء في أسباب الحفظ ، وأن يوطن النفس على ما يسرق من متاعه ، وأن لا يحزن بل يفرح حين يسرق ، وأن يغتم لأن هذا السارق المسكون عصى الله وتعرض لعذابه ، وأن يشكر الله على أن جعله من المظلومين ، ولم يجعله من الظالمين .

وأطرف ما في هذا الباب دعوة الغزالى إلى أن يجعل الرجل ماسرقة منه ذخيرة له في الآخرة ، وأن أعيد اليه فالأولى أن لا يقبله !

توكل الخائف

يقرر الغزالى أن الضر قد يعرض للخوف في النفس والمال . أما في النفس فكالنوم في الأرض المسبعة ، أو في مجاري السيل من الوادي ، أو تحت الجدار المائل ، أو السقف المنكسر ، وكل ذلك فيما يرى منه عنه ، لأنها تعريض للهلاك بلا فائدة .

وجملة القول أن أسباب الخوفAMA مقطوع بها أو مظنونه أو موهومة ، وترك الموهوم هو شرط التوكل ، فالبالغة في الاحتياط تبعد المرأة عن مقام التوكيلين ؟

وهنا لا نرى بأسا من تحقيق مسألة أخطأ فيها الغزالى ، فقد عذر من الأسباب الموهومة الكى ، وذكر أن رسول الله لم يصف التوكيلين الا بترك الكى والرقية والطيرة . ولو صح رأيه فيما استشهد به ، لكان للرقية والطيرة فائدة موهومة ، مع أنه يستحيل أن يرى رسول الله قيمة لهذه الأسباب ، وإنما يريد أن يضيق المكتوبين والمتظيرين والراقيين إلى جملة المؤسسين .

ولو كان للكري فائدة موهومة لما عذر تركه من التوكل ، وهو يتعلق مباشرة بالصحة . وإنما نهى عنه الرسول لأن ضره كثير ، ومتحقق ،

ونفعه قليل بل موهوم . وفوق هذا يجب أن نلاحظ أن الأسباب الموهومة لم يكن تركها شرطاً في التوكل إلا لأن في تركها تعويضاً على المخاطرة . وهي من صفات الأحياء ، فإذا اختلفت الظروف ، وكانت رعاية الأسباب الموهومة نوعاً من الحيطة ، فاني لا أفهم كيف تحرم المرأة من المقام المحمود !

وإذا خاف الإنسان على ماله ، فله أن يفلق بيته ، وأن يعقل بعيده . لأن هذه أسباب عرفت بسنة الله أما قطعاً وأما ظناً ، فلا ينقض بها التوكل ، كما لا ينقض بدفع العقارب والحيثيات والسباع ، لأن الصبر على هذه .
جنون .

توكل المريض

يقسم الفزالي الأسباب المزيلة للمرض إلى مقطوع به ، ومنظون .
وموهوم ، ويقرر أن ترك المقطوع به ليس من التوكل بل تركه حرام . عند خوف الموت . وكان عليه أن يتبعه إلى أن المرض متى وجد ، فالموت . مخوف في كل حال ، لأن للمرض طفولة وحداثة وفتوا ، فان ترك وهو ناشئ ، أمسى وهو قوى متين ، بل يجب حرب جرائم المرض ، لأنها تبيض وتفرخ ، ثم تصبح أعداء الأداء . فاما الموهوم فشرط التوكل . تركه . وقد بينما ما تختلف عليه هذه الحال . وأما المنظون كالقصد والمحاجمة وشرب الدواء المسهل ، وما إلى ذلك من الأسباب الظاهرة عند الأطباء ، فليس تركه من التوكل ، كما أن تركه ليس محظوراً كالمقطوع به ، بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الأحوال وفي بعض الأشخاص . وهذا ما لا نوافق عليه الفزالي ، لأننا لا نفهم كيف يكون الحرص على الصحة مما يفضل اغفاله في بعض الأحيان .

والى القارئ الأحوال التي يحمد فيها عنده ترك التداوى :

(١) أن يكون المريض من المكاشفين ، وقد كشف بأن أجره انتهى ، وان الدواء لا ينفعه (!) ٠

(٢) أن يكون المريض مشغولا بحاله وبخوف عاقبته ٠

(٣) أن تكون العلة مزمنة ، والدواء الذي يؤمر به موهوم النفع
بالنسبة لعلته ٠

(٤) أن يقصد بترك التداوى استبقاء المرض لينال أجر الصابرين،
أو ليمرن نفسه على الصبر الجميل !

(٥) أن يكون قد سبق له كثير من الذنب ، ويرى المرض تكفيرا
ادا طال ، وكان قد عجز عن التكبير !

(٦) أن يستشعر في نفسه مبادئ البطر والطغيان بطول مدة
الصحة ، فيترك التداوى خوفا من أن يعاجله زوال المرض ، فتعاوده
القلة والبطر والطغيان ٠

ويحسن أن نلتف النظر الى أن هذه أسباب ضعيفة ، لا تقتضي ترك
الدواء ؟ وهى في الوقت نفسه تدل على مبلغ حرص الغزالى على نزعته
الصوفية ، فمن الواضح أن ايثار المرض في سبيل الفرار من افات العافية ،
انما هو عمل سلبي قليل الفناء ٠ وماذا يضرنا لو حارينا المرض ، ثم
رجعنا بعد ذلك الى حرب ما للصحة من الآفات ، لنخرج رجالا صحيحا
الجوارح والقلوب ؟

والغزالى فوق ما سلف يفضل كتمان المرض ، ولا يجيز اظهاره
 الا في الأحوال الآتية :

(١) أن يكون الغرض التداوى ، فيذكر المرض للطبيب ، لا في
معرض الشكاية ، بل في معرض الحكاية ٠

(٢) أن يوصف المرض لمن يرجى منه الدعوة الى الصبر ٠

(٣) أن يقصد باظهار المرض اظهار العجز والافتقار الى الله ٠

قال الفزالي : « ف بهذه النيات يرخص في ذكر المرض ، وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكایة والشكوى من الله حرام ٠ ويصير الاظهار شكایة بغيرينة السخط واظهار الكراهة لفعل الله ٠ فان خلا عن فرينة السخط وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحتم فيه بيان الاولى تركه ٠ لأنه ربما يوهم الشكایة ، ولأنه ربما يكون فيه تضليل ومزيد في الوصف على الموجود من العلة ٠ ومن ترك النداوى توكلًا فلا وجه في حقه للاظهار ، لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى الافشاء » ٠

وهذه الكلمة الاخيرة غاية في الحكمة والسداد ٠

ملاحظات ثلاثة

الأولى

جاء في ص ٢٩٢ ج ٤ أحياء ما نصه : « فان قلت فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ ؟ فأقول : المتوكلا لا يخلو بيته عن متاع كقصعة يأكل منها وكوز يشرب منه واناء يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده ، وعصا يدفع بها عدوه ، وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أدوات البيت ٠ وقد يدخل في يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجاً فيصرفه اليه فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلاً لتوكله ٠ وليس من شرط التوكل اخراج الكوز الذي يشرب منه والجراب الذي فيه زاده ، وإنما ذلك في المأكولات وفي كل مال زائد على قدر الضرورة ٠ لأن سنة الله جارية بوصول الخير إلى الفقراء والمتوكلين في زوايا المساجد ٠ وما جرت السنة بتقرير الكيزان والأمتنة في كل يوم وفي كل أسبوع ٠ »

وهذه الفقرة تدل واضح الدلالة على أن التوكل هذا نزعة صوفية ٠

يُوقد وضع الغزالي مقياساً لتقدير الأعمال هو العقل والشرع ، وما أحس به
يُستطيع أن يثبت أن آية « وعلى الله فتوكلوا ان كتم مؤمنين » خاصة بهذا
الصنف من الناس ، بل التوكل المأمور به في القرآن هو الاعتماد على الله
مع مباشرة الأسباب والإيمان بأنه لا يضيع أجر العاملين .

الثانية

جاء في المنهاج ص ٨٠ ما نصه : « فان قيل هل يلزم العبد طلب
الرزق بحال ما ؟ فاعلم أن الرزق المضمون الذي هو الغذاء والقوام
لا يمكننا طلبه اذ هو شيء من فعل الله سبحانه للعبد كالحياة والموت لا يقدر
العبد على تحصيله ولا على دفعه (؟) ! فان قيل : لكن لهذا الرزق المضمون
أسباب : فهل يلزم منا طلب الأسباب ؟ قيل له لا يلزمك ، اذ لا حاجة للعبد
إليه اذ الله سبحانه يفعل بسبب وغير سبب ، فمن أين يلزم منا طلب السبب
ثم ان الله تعالى ضمن لك ضماناً مطلقاً من غير شرط الطلب والكسب ،
قال الله تعالى : « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » ثم كيف
يصبح أن يأمر العبد بطلب ما لا يعرف مكانه فيطلب ، والواحد منا
لا يعرف سبب الرزق يتناوله من أين يحصل له ، فلا يصح تكليفه .
فتتأمل » .

وقد تأملنا كثيراً ، فلم نر هذه الحجج الا خيالاً في خيال !

الثالثة

أراد الغزالي أن يحضر على التوكل فأمر بمشاهدة الجنين كيف
« وصلت سرته بسرة الأم ليتهي إلى الغذاء لما كان عاجزاً عن الحركة
والاضطراب ، فلما انفصل سلط الله على الأم الحب لترضعه وهي راغمة ،
وأدراً له اللبن اللطيف ، اذ كان مزاجه لا يتحمل الغذاء الكثيف .
» واتنقل الغزالي من هذا إلى بيان أن الكبير قد كثرت أسباب الرفق به ،

فبعد أن كان المشفق واحدا هو الأم أو الأب ، أصبح أهل البلد كافة يشفقون عليه . ثم أخذ يبين كيف يتسع اليتيم بشفقة المسلمين ، إلى آخر ما قال .

وهذه الحججة على الفزالي لا له ، فإنه إذا كان الله وصل سرة الجدين بسراة أمه لضعفه عن الحركة ، وأدر عليه اللبن لعجزه عن المضغ ، وسلط على أمه الحب لعجزه عن السعي ، فلماذا منحه القوة أذن ، إذا كان لم يشأ أن يستثنى بها عن الناس ؟

فأما ما قاله من أن كل واحد من أهل البلد إذا أحسن بمحاجة تالم قلبه ، ورق عليه ، وانبعثت له داعية إلى إزالة حاجته ، فهي آمنية شعرية ، وليته ذكر أن العرب هموا بترك دينهم ليخلصوا من الزكاة !

الفصل الخامس

فضيلة الاخلاص

ابداً الفزالي كلامه عن هذه الفضيلة بقوله تعالى (وما أمروا إلا
ليعبدوا الله مخلصين له الدين) ثم ذكر جملة من الأحاديث والأخبار .
ثم قرر بعد ذلك أن كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ،
ويميل إليه القلب ، قل أم كثر ، إذا تطرق إلى العمل تذكر به صفوه ،
وزال به أخلاقه . ثم بين أنه قلما يخلو فعل من أعمال المرء وعبادة من
عباداته ، عن حظوظ وأعراض عاجلة . وأن العمل الخالص هو الذي
لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله .

ومقياس الاخلاص فيما يرى الفزالي هو أن يشعر المرء بارتياح حين
يجد غيره يعمل عملاً كان يريد أن يقوم به . نعرف هذا من قوله :
« وأشد الخلق تعرضاً لهذه الفتنة هم العلماء . فإن الباعث للأكثرين .

على نشر العلم لذة الاستياء ، والفرح بالأتباع • والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول : غرضكم نشر دين الله ، والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله • وترى الواقع يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلطانين • ويفرح بقبول الناس قوله ، واقبالهم عليه ، وهو يدعى أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين • ولو ظهر من أفراده من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساعه ذلك وعنه ، ولو كان ياعته الدين لشدر الله تعالى اذ دفاه هذا المهم بغيره • تم الشيطان مع ذلك لا يخله ويقول : إنما غمك لانقطاع التواب عنك لا لأنصراف وجوه الناس إلى غيرك • اذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لموات التواب محمود • ولا يدرى المسكين أن اتفادي للحق وتسليمي الامر أفضل وأجزل ثوابا وأعود اليه في الآخرة •

وقد انحصر الاخلاص عنده في الأمور الدينية ، لنبلة هذه الأمور عليه ، ولو كان الغزالي من الذين باشروا الحركات العامة ، ووقفوا على الشؤون الاجتماعية ، لذكر لنا ضرورة من الاخلاص في نهوض الأفراد يأمهم • وبين لنا كيف يتطرق الفرض إلى الاعمال الاجتماعية ، وكيف تشقى الشعوب بأصحاب الأغراض ، فليس الاخلاص وقفا على الصلاة والزكاة والحج والعصيام ، بل الاخلاص فيما بين الرجل وبين أمهه ، أو جب من الاخلاص فيما بينه وبين ربها ، لأنه حين يحرم الاخلاص في العبادة لا يضر الله شيئاً فان الله غنى عن المسلمين • ولكن حين يحرم الاخلاص فيما يعمل لأمهاته ، يشقى بسوء غرضه ملايين من النفوس ، ثم يصبح وهو منبود مهين • ولكن أكثر الناس لا يعلمون !

الباب الثامن

في توجي الرذائل

تمهيد

لم يضع الغزالى للرذيلة تعريفا يخصها بالذات ، وإنما هي عنده افراط فى الفضيلة أو تفريط . وهو يرى أن الافراط فى قوة العلم ينشأ عنه المكر والخداع والدهاء ، وأن التفريط فيها يصدر عنه البهان ، والغمارة ، والحمق ، والجنون ، وينشأ من الافراط فى الشجاعة التهور وما إليه من الجسارة ، والتبرج ، والاستشاطة والتكبر والعجب والبذخ . ويصدر من التفريط فيها الجبن ، والهلع ، والمهانة ، وصغر النفس ، والنكول . وأما الرذائل الصادرة من الافراط أو التفريط في العفة ، فهي: الشره ، وكلال الشهوة ، والوقاحة ، والتخت ، والتبذير ، والتقتير ، والرياء ، والتهتك والمجانة ، والعبث والشකاسة ، والملق والحسد والشماتة النحو .

وألاحظ أن كلامه في هذا الباب غير واضح ، وقد لاحظ هو ذلك، فأخذ يشرح أمثل الرذائل الآتية : الاستشاطة ، الانفراط ، التخاسن ، البذالة ، الشكاسة ، الكزانة ، التحاشى ، الكول ، الغماره النحو .

والأمر كذلك في الفضائل المتفرعة عن أمهات الأخلاق .

وي ينبغي أن لا تنسى أن الغزالى يوصى دائما بقطع الخلال الريثمة

وغرس مكارم الأخلاق ، ويسمى هذا بالتخلية ، والتحليلة ، أى اخلاص
القلب من الشهوات ، ثم تخلية بكرائيم النزعات .

واذ كنا بينما رأيه في جملة من الفضائل الضرورية للأفراد ، فاتا
ذاكرون كذلك رأيه في طائفة من العيوب والرذائل الكثيرة الوجود بهـ
ليتضح ما يتصوره من المثل الأعلى للحياة .

الفصل الأول رذيلة الغضب

الغضب قوة تتوجه عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها ، والى
التشفي والانتقام بعد وقوعها . وهو فيما يرى الغزالي ثلاث درجات :
التفريط ، والأفراط ، والاعتدال .

أما التفريط فقد هذه القوة ، أو ضعفها . وهو مذموم اذ من نمراتهـ
قلة الأنفة مما يؤسف منه ، كال تعرض للحرم والزوجة ، والأمة ، واحتمال
الذل من الأحساء ، وصغر النفس .

وأما الأفراط فهو أن تقلب هذه الصفة حتى تخرج عن العقل
والدين ، فلا تبقى للمرء بصيرة ، ولا نظر ، ولا فكرة ، ولا اختيار .

وأما الاعتدال فهو المحمود ، وهو غضب ينتش اشاره العقل والدين :ـ
فينبعث حيث تجب الحمية ، وينطفئ حيث يحسن الحلم .

قال الغزالي « فمن مال غضبه إلى الفتور حتى أحسن من نفسهـ
بضعف الغيرة ، وبخسنه النفس في احتمال الذل والضمير في غير محلهـ
فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه . ومن مال غضبه إلى الأفراطـ

حتى جره إلى التهور واقتحام الفواحش فيبني أن يعالج نفسه ليغض من سورة الغضب ويقف على الوسط بين الطرفين ^(١) .

أسبابه

وأسباب الغضب فيما يرى الغزالي ترجع إلى ثلاثة أقسام :

الأول - ما هو ضرورة في حق الكافة كالقوت ، والملابس والمسكن ، وصحة البدن وهذه ضرورات لا يخلو الإنسان من كراهة زوالها ، ومن الغيط على من يتعرض لها .

الثاني - ما ليس ضروريا لأحد من الخلق كالجاه والمال الكثير ، والغلمان ، والدواب وقد صارت هذه الأشياء محبوبة بالعادة ، والجهل بمقاصد الأمور .

الثالث - ما يكون ضروريا في حق بعض الناس دون البعض ، وهذا يختلف باختلاف الأشخاص .

علاجه

وقد وضع الغزالي طريقة لاستصال رذيلة الغضب ، كما وضع طريقة لتسكينه حين يثور .

أما الطريقة الأولى فهي استصال الغضب باستصال أسبابه فإذا كانت الأسباب المهيجة له هي الزهو ، والعجب ، والمزاح ، والهزل ، والهزء ، والتغيير ، والماراة ، والمضادة ، والغدر ، وشدة الحرث على حصول المال ، والجاه ، فيبني للخلوص من الغضب إزالة هذه الأسباب ، وهي في أنفسها رذائل تحتاج إلى رياضة ، وريايتها الرجوع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها ، وتتفر عن قبحها ، ثم المراقبة على مباشرة

(١) ١٦٩ ج ٣ أحياء .

أضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس . فإذا انمحت عن النفس فقد ذكت و تطهرت من هذه الرذائل ، و تخلصت أيضا من الغضب الذى يصدر منها .

أما علاج الغضب بعد هيجانه فيرجع الى العلم والعمل . والعلم ستة أمور :

(١) أن يتذكر فى الأخبار الواردة فى كظم الغيظ ، والعفو ، والحلم ، والاحتمال .

(٢) أن يخوف نفسه بعقاب الله ، فيذكر أن قدرة الله عليه أعظم من قدرته على من يريد أن يمضى فيه غضبه .

(٣) أن يحذر نفسه عاقبة العداوة ، والانتقام ، وتشمير العدو لقابلته ، والسعى فى هدم أغراضه ، والشماتة بمصالبه .

(٤) أن يتذكر فى قبح صورته عند الغضب ، ومشابهة الغضبان للكلب الضارى ، ومشابهة الحليم للأنياء .

(٥) أن يتذكر فى السبب الذى يدعوه الى الانتقام ، ويمنعه من كظم الغيظ .

(٦) أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على وفق مراد الله لا على وفق مراده .

أما علاج الغضب بالعمل فهو أن تستعين بالله من الشيطان الرجيم ، فان لم ينفع ذلك ، فاجلس ان كنت قائما ، واضطجع ان كنت جالسا ، واقرب من الأرض التى منها خلقت ؟ لتعرف ذل نفسك ، فان لم ينفع ذلك فتوضا ، أو اغسل بالماء البارد .

دور الشر بالشر

بعد أن بين الفزالي علاج الغضب ، وفضيلة الحلم ، وكظم الغيظ . أخذ فى بيان القدر الذى يجوز الانتصار والشفى به من الكلام . وهو

على الجملة لا يحيز مقابلة الغيبة بالغيبة ، ولا مقابلة التجسس بالتجسس ،
ولا السب بالسب ، وكذا سائر المعاشر . ويحيز أن يتصر المظلوم لنفسه
بالكلام في غير تلك المنكرات ، ولكن الأفضل تركه ، فإنه يجر إلى
ما وراءه ، ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه . والسكوت عن الجواب
لعله أيسر من الشروع في الجواب والوقوف على حد الشرع فيه .

تم قسم الناس باعتبار الغضب إلى أربعة أقسام : قسم سريع الوقود
سريع الخمود ، وقسم بطئ الوقود بطئ الخمود ، وقسم سريع الوقود
بطئ الخمود ، وهو شرهم ، وقسم بطئ الوقود سريع الخمود . قال
الغزالى وهو الأحمد ما لم ينته إلى فتور الحمية والغيرة .

وقد أوجب على صاحب السلطان أن لا يعاقب أحدا في حال غضبه
لأنه ربما يتعدى الواجب ، ولأنه ربما يكون متغيطا على العاقب فيكون
متشفيا لغطيه ومرحبا نفسه من ألم الغيظ ، فيكون صاحب الحظ ، مع
أن الواجب أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه .

ولا يفوتنا أن نذكر أن الغزالى كرر النصح بتجنب من يتبعون
بتشفى الغيظ وطاعة الغضب ، ويسمون ذلك شجاعة ورجولة . فإن
الفضل في الصفع الجميل .

الفصل الثاني رذيلة الحقد

هو فيما يرى الغزالى وليد الغضب ، فإن الغضب إذا لزم كظمه
لعجز عن التشفى في الحال ، رجم إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا ،
ومعنى الحقد - كما نص على ذلك - أن يلزم المرء قلبه استقال
المغضوب عليه ، والبغضة له ، والنفور منه ، وأن يدوم ذلك ويقى .

وللحقد ما يأتي من النتائج :

- (١) الحسد ، وهو أن يحملك الحقد على أن تمنى زوال النعمة عن عدوك ، فتنقم للنعمه تصييه ، وسر للمحسنة تنزل به .
- (٢) أن تزيد على اضمار الحسد في الباطن فظهور الشماتة بما أصابه من البلاء .
- (٣) أن تهجره وتصارمه وتقطع عنه وان طلبك وأقبل عليك .
- (٤) أن تعرض عنه استغفارا له .
- (٥) أن تتكلم فيه بما لا يحل : من كذب ، وغيبة ، وافشاء سر ، وهتك ستر .
- (٦) أن تحاكيه استهزاء به ، وسخرية منه .
- (٧) أن تؤذيه بضرب أو شبهة مما يؤلم بدنـه .
- (٨) أن تمنعه حقه : من قضاـء دين ، أو صلة رحم ، أو رد مظلمة .
قال الفزالي : « وكل ذلك حرام . وأقل درجات الحقد أن تحرز من الآفات الثمانية المذكورة ولا تخرج بسبب الحقد إلى ما يغضى به الله ، ولكن تستقله في الباطن . ولا يتنهى قلبك عن بغضه حتى تمتـع بما كنت تتطـوع به من البشـاشة والرفق والثانية والقيام بحاجاته ، أو الدعـاء له ، والثناء عليه ، والتحريض على بره ومواساته . فهذا كلـه مما ينقص درجتك في الدين ، وان كان لا يعرضك لعقاب ^(١) » .

وللحقد عند القدرة ثلاثة أحوال : الأولى استيفاء الحق من غير زيادة ولا نقصان وهو العدل ، والثانية الاحسان بالعفو والصلة وهو الفضل ، والثالثة الظلم ، وهو المنهى عنه .

^(١) ج ٣ ١٨١

الفصل الثالث

رذيلة الحسد

هو احدى نتائج الحقد ، وله فيما يرى الغزالي أربع مراتب :

الأولى - أن يحب المرأة زوال النعمة عن غيره ، وإن كانت لا تنتقل
إليه وهذا غاية الخبر .

الثانية - أن يحب زوالها إليه : لرغبته في مثل تلك النعمة ، كأن
يرى عند غيره امرأة جميلة ويحب أن تكون له ، فمطلوبه تلك النعمة
لا زوالها ، ومكروهه فقدها لا تعم غيره بها .

الثالثة - أن لا يشتهي عينها لنفسه ، بل يشتهي مثلها ، فان عجز
عن مثلها أحب زوالها ، كي لا يظهر التفاوت بينهما .

الرابعة - أن يشتهي لنفسه مثلها ، فان لم تحصل فلا يحب زوالها
عنه ، وهذا الأخير هو المعفو عنه ان كان في الدنيا ، والمندوب إليه ان كان
في الدين .

والرتبة الأولى مذمومة ، وتسمية الثانية حسدا تجوُّز ، فاما هي
تمنى ما للغير ، وهو أيضا مذموم لقوله تعالى (ولا تمنوا ما فضل الله به
بعضكم على بعض) والثالثة أخف من الأولى .

أسبابه وعلاجه

ويرى الغزالي أن أسباب الحسد ترجع إلى العداوة ، والتعزز بم
والكبر ، والعجب ، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة ، وحب الرياسة ،
وخبث النفس . وأكثر ما يكون الحسد بين الأمثال والأقران ، والأخوة
وبنى العم ، والأقارب ، لأن كثرة الروابط تولد أسباب الحسد
والبغضاء .

وعلاج الحسد فيما يرى الغزالي ينحصر في تأديب النفس وتبصيرها
بخطر هذه الرذيلة ، فان الحاسد انما ينكر في غيره نعمة أنعم الله بها
عليه ، ومن واجب الرجل أن يشغل بنفسه ، وأن يحفظ وقته فلا يضيعه
فيما لا ينفع ولا يفيد ، فليس أضيق من وقت يصرف في بعض نعمة
لا يملك المرء زوالها عن سواه .

وقد قرر الغزالي أن الحسد يكاد يكون طبيعة في النفوس ، وأن
الأمل في السلامة منه بالكلية بعيد .

الفصل الرابع رذيلة العجب

للمعاليم بكمال نفسه في علم ، أو عمل ، أو مال ، ثلاث حالات :

الأولى – أن يكون خائفاً على زواله ، ومشفقاً على تكريسه ، أو سلبه
من أصله ، وهذا ليس بمعجب .

الثانية – أن لا يكون خائفاً من زواله ، ولكن يكون فرحاً به ، من
حيث هو نعمة من الله ، لا من حيث اضافتها إلى نفسه ، وهذا أيضاً ليس
بمعجب .

الثالثة – أن يكون غير خائف عليه ، بل يكون فرحاً به ، مطمئناً
عليه ، ويكون فرحة من حيث أنه كمال ونعمة ، وخير ورفعة ، لا من
حيث أنه عطيه من الله ونعمة منه ، وهذا هو العجب . فهو اذن استعظام
النعمة والرکون إليها مع نسيان اضافتها إلى المنعم . قال الغزالى : « فان
انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقاً ، وأنه منه بمكان ،
حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا واستبعد أن يجري عليه مكروهاً يزيد
على استبعاده ما يجري على الفساق سمي هذا أدلالاً بالعمل .. والدلائل

وراء العجب ، فلا مدل الا وهو معجب ، ورب معجب لا يدل ، اذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء ، والادلال لا يتم الا مع توقع جزاء والعجب والادلال من مقدمات الكبار وأسبابه ^(١)

أسبابه وعلاجه

واليك ما يعجب به الناس مع وصف العلاج :

الأول - أن يعجب المرء ببدنه : في هيئته وصحته ، وقوته ، وتناسب أشكاله ، وحسن صورته ، وجمال صوته .
وعلاجه أن ينظر في مصير الوجوه الجميلة ، والأبدان الناعمة ، وكيف يبعث بها التراب .

الثاني - البطش والقوة ، وعلاجه أن ينظر ما حل بقوم عاد .

الثالث - العجب بالعقل ، والكياسة ، والتقطن لدقائق الأمور ، من مصالح الدنيا والدين . وآفة هذا الاستبداد بالرأي وترك المشورة .

وعلاجه أن ينظر في مصير عقله لو أصيب بعرض في دماغه .

الرابع - العجب بالنسب الشريف .

وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم ، يوحن أنه يلحق بهم ، فقد جهل .

الخامس - العجب بنسب السلاطين الظلمة ، وأعوانهم ، دون نسب العلم والدين .

وعلاجه أن يفكر في مخازينهم ، وفي مصيرهم يوم الحساب .

السادس - العجب بكثرة المدد من الأولاد والخدم والغلمان
والعشيرة والأقارب والأنصار والآباء •

وعلاجه أن يتفكر في ضعفه وضعفهم ، وأنهم كلهم عبيد عجزة
لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا •

السابع - العجب بالمال •

وعلاجه أن يتفكر في آفات المال ، وكثرة حقوقه ، وغوايشه •

الثامن - العجب بالرأي الخطأ ، كما قال تعالى : « أَفْمَنْ زَيْنَ لَهُ
سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنَا » •

قال الغزالى : « وعلاج هذا العجب أشد من غيره ، لأن صاحب
الرأى الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه ، ولا يعالج الداء الذى لا
يعرف ، والجهل داء لا يعرف ، فتعسرت مداواته جداً . وإنما علاجه
على الجملة أن يكون متھماً لرأيه أبداً لا يفتر به إلا أن يشهد له قاطعاً
من كتاب أو سنة أو دليل عقلى صحيح جامع لشروط الأدلة (١) » •

وقد بين الغزالى فوق ما سلف أن العجب مع الله يدعو إلى نسيان
الذنوب واتهامها ، وبعض ذنب المرأة لا يذكرها ولا يتقدّمها لظنه أنه
مستغن عن تقادها فينساها . وما يتذكره منها يستصره ولا يستعظمه ،
فلا يجتهد في تداركه وتلافيه ، بل يظن أنه يغفر له . ومتى أُعجب المرأة
بأعماله عمى عن آفاتها . ومن لم يتقدّم آفات أعماله كان أكثر سعيه
ضائعاً ، فان الأعمال الظاهرة اذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب فلما
تنفع . وإنما يتقدّم عمله من يغلب عليه الخوف والاشفاق دون العجب ،
فإنه يفتر بنفسه وبرأيه ، ويؤمن مكر الله وعداته ، اذ يظن أنه قد استغنى
وفاز ، وهذا هو الهلاك الصريح الذى لا شبهة فيه . كما قال الغزالى .

(١) ص ٣٨٤ ج ٤ .

الفصل الخامس

رذيلة الكبر

يقسم الغرالى الكبير : الى باطن وظاهر ٠ فالباطن هو خلق في النفس ٠ والظاهر هو أعمال تصدر من الجوارح ٠ ويسمى الباطن الكبر، والظاهر التكبر ٠ وال الكبر فيما يرى ثمرة العجب ٠ وينفصل عنه بأنه يتطلب متكبرا عليه ، بخلاف العجب ، فقد يعجب المرء بنفسه ، وماليه ، وعمله ، ولو خلق وحده ٠

والتكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام :

- الأول - التكبر على الله وهو أفحش أنواع الكبر ، ومثاله ما كان من فرعون ٠
- الثاني - التكبر على الرسول ، ومثاله ما كان من قريش وبني اسرائيل ٠
- الثالث - التكبر على العباد ، بأن يستعظم المرء نفسه ، ويستحرر غيره ٠

أسباب التكبر

ولتلکبر سبعة أسباب :

- الأول - العلم ، وما أسرع الكبر الى العلماء !

الثاني - العمل والعبادة ٠ ولكن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات : الأولى أن يكون الكبر مستقرا في قلب المرء فيرى نفسه خيرا من غيره ، الا أنه يجتهد ويتواضع ويفعل فعل من يرى غيره خيرا من نفسه ، وهذا قد غرست في نفسه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها الثانية ، أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع في المجالس والتقدم على

الأقران واظهار الانكار على من يقصر في حقه ، بتصعير خده وتقطيب جيئه . قال الغزالى : « وليس يعلم السكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب ، ولا في الوجه حتى يبعس ، ولا في الخد حتى يصعر ، ولا في الرقبة حتى تطأطا ، ولا في الذيل حتى يضم ، وإنما الورع في القلوب ^(١) » .

الثالثة : أن يظهر الكبر على لسانه حتى يدعوه إلى الدعوى والمقاخرة والمباهة وتزكية النفس وحكاية الأحوال والمقامات .

الثالث - التكبر بالحسب والنسب .

الرابع - التفاخر بالجمال ، وأكثر ما يجري هذا بين النساء .

الخامس - التكبر بالمال ، ويجرى هذا بين الملوك في خزاناتهم وبين التجار في بضائعهم ، وبين الدهاقن في أراضيهم ، وبين المتجملين في ملابسهم ، وخيوطهم ، ومراتبهم .

السادس - التكبر بالقوة وشدة البطش .

السابع - التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والعلماء وبالعشيرة والأقارب ، ويجرى ذلك بين الملوك في المكاتبنة بالجنود وبين العلماء في المكاتبنة بالمستفدين .

قال الغزالى « وبالجملة فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالاً وإن لم يكن في نفسه كمالاً أو يمكن أن يتكبر به ^(٢) » .

وعلامات التكبر - كما ذكر الغزالى - تظهر في شمائل الرجل : كصعر خده ، ونظره شزرا ، واطرافقه برأسه ، وفي جلوسه متكتاً . وتنظر في مشيته ، وتبختره ، وقيامه وقصوده ، وحر كاته وسكناته ، وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله .

(١) ج ٣ ٣٥٥ .

(٢) ص ٣٥٧ ج ٣ .

وازالة الكبر - فيما يرى الغزالي - فرض عين ، وهو لا يزول
بمجرد التمني ، بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القائمة له .

علاج

ولعلاج طريقتان :

الأولى - قلع شجرته من معرسها في القلب ، وذلك بمعرفة المرء
نفسه بالذلة ، وربه بالعزبة ، إلى آخر ما قال الغزالي .

الثانية - دفع عارض الكبر ، بدفع الأسباب الخاصة التي يتکبر بها
الإنسان على غيره ، وأنت لا تزال قريباً من تلك الأسباب السبعة التي
توجب التکبر فيما يراه ، وقد وضع لكل سبب علاجاً خاصاً ، غير أنه
لا يفترق كثيراً عمّا لخصناه له من علاج العجب ، فلنكتف به ، فإن
أسباب هاتين الرذيلتين تکاد تكون واحدة ، وإن كانت الثانية نتیجة
الأولى .

الفصل السادس

آفات اللسان

وقد رأى الغزالي أن اللسان كثير العثرات ، ولا بد للمرء من
خبيطه ، فبسط القول في آفاته ، وكتب في ذلك نحو خمسين صفحة ،
بين فيها حدود تلك الآفات ، وأسبابها ، وعواهنها ، وطريق الاحتراز
عنها .

وقد مهد لآفات اللسان بكلمة مطولة حض فيها على الصمت ، ثم
قال في تبرير ما دعا إليه من الأخلاق إلى السكوت : « فإن قلت : فهذا
الفضل الكبير للصمت ما سيفه ؟ فاعلم أن سيفه كثرة آفات اللسان من

الخطأ ، والكذب ، والغيبة ، والنميمة ، والرياء ، والنفاق ، والفحش »
والمراء ، وتركية النفس والخوض في الباطل ، والخصوصة ، والفضول »
والتحريف ، والزيادة ، والتقصان ، وايذاء الخلق ، وهتك العورات .
فهذه افات نيرة ، وهي سباقه الى اللسان لا تنقل عليه ، ولها
حلاوة في القلب ، وعليها بواعث من الطبع ، ومن الشيطان . والخائض .
فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ، ويمسكه ويكتف بما
لا يحب ، فان ذلك من غواصات العلم » .

ثم خشي أن يرميه القرآن بالاسراف فقال : « ويدلك على فضل
لزوم الصمت أمر : وهو أن الكلام أربعة أقسام : قسم هو ضرر ممحض ،
وقسم هو نفع ممحض ، وقسم فيه صرر ومنفعه ، وقسم ليس فيه ضرر ولا
منفعة . أما الذي هو ضرر ممحض فلا بد من السكوت عنه وكذلك ما فيه
من ضرر ومنفعة لا تفوي بالضرر . وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو
فضول ، والاشغال به تضييع زمان ، وهو عين المخسران .

فلم يبق الا القسم الرابع ، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام . وبقى
ربع ، وهذا الرابع فيه خطر اذ يمترج بما فيه اثم من دقائق الرياء .
والتصنع ، والغيبة ، وتركية النفس ، وفضول الكلام ، امترجا يخفى
دركه ، فيكون الانسان به مخاطرا ^(١) .

وهذا من الغزالي اغرار في حب السلامة . ونحن ذاكرون
خلاصة هذه الافات ، لنعرف رايته في طبائع الافراد .

الكلام فيما لا يعني

أما الآفة الأولى : فهي الكلام فيما لا يعني ، وحده – كما قال
الغزالي – أن تتكلم بكل ما لو سكت عنه لم تأت ، ولم تستضر به في
حال أو مآل ، ومن أمثلته فيما يرى أن يذكر المرء أسفاره وما رأى فيها

(١) ص ١١٨ ج ٣ احياء .

من جبال وأنهار ، وما وقع لها فيها من الواقع وما استحسنه من الأطعمة
والثياب ، وما تعجب منه من مشايخ البلاد وحوادثهم ٠

ولم يتتبه الغزالي لخطر هذا المثال . فان الكلام عن الأسفار
والرحلات من الأمور ذوات البال ، والتحدث عن طبائع البلاد وأخلاقها
الناس من المستحسنات . ونحن مدينون بما نعلم من عادات الأمم وأخلاقها
إلى هؤلاء الذين يتحدثون بما لا يعنيهم فيقصون علينا ما رأوا في
أسفارهم من الجبال ، والأنهار ، والاطعمه والثياب ، وان عد الغزالي
حديثهم ولو احترزوا تضييعا للزمان ٠

ومما أصاب في عده مما لا يعني أن ترى إنسانا في الطريق فتقول
من أين ؟ فربما يمنعه مانع من ذكره ، فان ذكر تاذى به واستجيا ، وان
لهم يصدق وقع في الكذب وكنت السبب فيه . وكذلك سؤالك امراً عن
الماضي ، وعن كل ما يخفيه ويستحيي منه ، وسؤالك عما حدث به
غيرك ٠

والباعث على هذه الآفة - فيما يرى - هو الحرص على معرفة مالا
حاجة به إليه ، أو المبالغة بالكلام على سبيل التودد ، أو تزجية الأوقات
بحكايات أحوال لا فائدة فيها ٠

وأما علاج ذلك فهو أن يعلم أن الموت بين يديه ، وأنه مسئول عن
كل كلمة ، وأن أنفاسه رأس ماله ، وأن لسانه شبكة يقدر على ان
يقتضي بها الحور العين ، فاحماله ذلك وتضييعه خسراً مبين ٠

يقول الغزالي : « هذا علاجه من حيث العلم ، وأما من حيث العمل
فالغزلة ، وأن يضع حصاة في فيه ، وأن يلزم نفسه السكوت عن بعض
ما يعنيه ، حتى يعتاد اللسان ترك مالا يعنيه (١) ، (٢) (٣))

(١) ص ١٢١ ج ٢ - أحياء .

فضول الكلام

أما الآفة الثانية فهي فضول الكلام ٠ وهو يتناول الخوض فيما لا يعني ، والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة ٠ فان من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، وييمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره ٠ قال الغزالى : « ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين ، فالآفة الثالثة فضول وهو مذموم وان لم يكن فيه اثم ولا ضرر^(١) ٠

وبسبب هذه الآفة وعلاجها ممانلان لسبب وعلاج الكلام فيما لا يعني

الخوض في الباطل

وأما الآفة الثالثة فهي الخوض في الباطل ٠ وعد الغزالى منه حكاية أحوال النساء ومحالس الخمر ، ومقامات الفساق ، وتنعم الأغنياء ٠ وتجبر الملوك ، ومراسيمهم المذمومة وأحوالهم المكرورة وقرر أن مثل هذا لا يحل الخوض فيه وهو حرام ، بخلاف الكلام فيما لا يعني أو أكثر مما يعني فهو ترك الأولى ٠ ويدخل الغزالى في هذا الباب الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة ، وحكاية ما جرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن في بعضهم ٠ ثم قال : « وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفتنها فلذلك لا مخلص منها الا بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا^(٢) ٠

المراء والجدال

أما الآفة الرابعة فهي المراء والجدال ٠ والمراء كما حده الغزالى

(١) ص ١٢١ أحياء ج ٢

(٢) ص ١٢٢ ج ٣ ٠

هو كل اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه ٠ اما في اللفظ ، واما في المعنى ، واما في قصد التكلم ٠

وترك المراء فيما يرى يكون بترك الانكار والاعتراض ، فكل كلام سمعه المرء صدق به ان كان حقا ، وسكت عنه ان كان باطلأ أو كذبا ٠ ولم يكن متعلقا بأمور الدين ٠ وليس له أن يطعن في كلام غيره باظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة ، أو من جهة النظم والترتيب ، أو من جهة المعنى ، أو من جهة القصد : لأن يقول هذا كلام حق ، ولكن ليس قصدا منه الحق ، وإنما أنت فيه صاحب غرض ٠ يقول الفزالي : « وهذا الجنس ان جرى في مسألة علميه ربما خص باسم الجدل ٠ وهو أيضا مذموم، بل الواجب السكوت أو السؤال في معرض الاستناد لا على وجه العناد ٠ أو التلطف في التعريف لا في معرض الطعن ٠ »

« وأما المجادلة فعبارة عن قصد افحام الغير ، وتعجيزه ، وتنقيصه بالقدح في كلامه ، ونسبته إلى القصور والجهل فيه ٠

والباعث على المراء والجدال فيما يرى الفزالي هو الترفع باظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير باظهار نقصه ، وهمما شهوتان باطنتان للنفس يرجعان إلى السببية والكبرياء ٠

وأما العلاج فيكون بكسر الكبر الباعث له على اظهار فضله ، والسببية الباعثة له على تنقيص غيره (والسببية في عبارات المتقدمين هي القوة الوجданية المشتركة بين الانسان وبين كبار الحيوانات : فالانتقام قوة سببية لأنها من صفات الجمل ، واللفة عن اكل ما يكسب الغير قوة سببية لأنها من صفات الأسد ، اذ لا يأكل غير فريسته) ٠

الخصوصية

أما الآفة الخامسة فهي الخصومة ٠ وهي لجاج في الكلام ليستوفي به مال أو مقصود ٠ قال الفزالي : « فان قلت : فإذا كان للانسان حق

فلا بد له من الخصومة في طلبه أو في حفظه ، مهما ظلمه ظالم ، فكيف يكون حكمه ، وكيف تتم خصومته ؟ فاعلم أن هذا النم يتناول الذي يخاصم بالباطل والذي يخاصم بغير علم ، ويتناول الذي يمزج بالخصوصة كلمات مؤذية لا يحتاج إليها في نصرة الحجة واظهار الحق .
ويتناول الذي يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره ٠٠٠٠
فاما الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد واسراف وزيادة بلاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وايذاء فعله ليس بحرام ، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلا ٠

وقد بين الغزالى كيف توغر الخصومة الصدر ، وتنهي الغضب حتى ينسى المتراء فيه ، ويبقى الحقد بين المخاصمين : فيفرح كل واحد بمساءة صاحبه ، ويحزن بمسرته ، ويطلق اللسان في عرضه . فمن بدأ بالخصوصة فقد تعرض لهذه المحنورات ٠

التقعر في الكلام

الآفة السادسة هي التقعر في الكلام بالتشدق ، وتكلف السجع والفصاحة ، والتصنع فيها بالتشبيهات والمقسمات ، وما جرت به عادة المفاصلين ٠

والغزالى يفرق بين من يلقى خطبة ، وبين من يتكلم كلاما عاديا ، ولا خرج على الخطيب فيما يرى الغزالى أن يلتجأ إلى المحسنات اللغظية ، في غير افراط أو اغراق ، فأن المقصود من الخطبة تحريك القلوب ، وتسوييقها ، وقبضها ، وبسطها ، ولرشاقة اللفظ في ذلك كله تأثير ٠

أما المحاورات التي تجري لقضاء الحاجات ، فالغزالى ينكر أن يكون فيها أى مظهر من مظاهر التكلف كالسجع أو غيره « بل ينبغي أن يقتصر المرء في كل شيء على مقصوده ، ومقصود الكلام التفهيم للفرض ، وما وراء ذلك تصنع منموم » ٠

والآفة الخلقيّة للتصنّع فيما يرى الفرزالي ترجع إلى ال باعث عليه
وهو الرياء ، وحب الظهور بالفصاحّة ، والتميّز بالبراعة .

الفحش

الآفة السابعة هي الفحش ، وهو التعبير عن الأمور المستقبحة
بالعبارات الصريحة . وهذه العبارات متفاوتة في الفحش ، وبعضها
أفحش من بعض ، وربما اختلف ذلك بعادات البلاد . وقد ذكر الفرزالي
من ذلك ما يجري في ألقاظ الواقع وما يتعلّق به ، والعيوب التي يستحبّا
منها كالبرص والقراع والبواسير ، ثم حض على استعمال الكلية في مثل
تلك المواطن .

وال باعث على الفحش فيما يرى : اما قصد الايذاء ، واما الاعتداد
الحاصل من مخالطة الفساق ، وأهل الخبرت واللؤم .

وقد عد الفرزالي الفحش والسب والبذاء آفة واحدة ، وأضاف .
إليها « البيان » الوارد في حديث (البذاء والبيان شعيتان من شعبه
النفاق) وفسر هذا البيان بكشف ما لا يجوز كشفه ، أو المبالغة في
الايضاح حتى يتنهى إلى حد التكلف . أو البيان في أمور الدين ، وفي
صفات الله أئمّة العوام ، اذ قد يثير من غاية البيان فيها شكوك ووساوس .

اللعنة

أما الآفة الثامنة فهي اللعن ، لحيوان أو انسان أو جماد ، وكل
ذلك مذموم .

وللفرزالي في هذا الباب نظر دقيق : فهو لا يجيز أن تقول في
رجل حي من اليهود مثلاً لعنة الله ، كما تقول لعن الله ابا جهل وفرعون ،
فإنه ربما يسلم فيموت مقرباً عند الله ، ولا يجيز أن يلعن المبتدع لأن
معرفة البدعة غامضة « ومن بان لنا موتة على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه

ان لم يكن فيه أذى لسلم ، فان كان لم يجز • ولا يجوز لمن يزيد •
لأنه لا يجوز ان يقال انه قتل الحسين ، او امر بقتله ما لم يثبت ذلك •
فضلا عن اللعنة : اذ لا تجوز نسبة مسلم الى ذيرة من غير تحقيق ، ولا
يجوز ان يرمي مسلم بفسق وكفر من غير تحقيق •

قال الغزالى : « والمؤمن ليس بلعان ، فلا ينبغي أن يطلق اللسان
باللعنة الا على من مات على الكفر ، او على الأجناس المعروفين بأوصافهم
دون الأشخاص المعينين »

المزاح

الآفة التاسعة هي المزاح ، والمذموم منه فيما يرى الغزالى هو
«الافراط فيه ، أو المداومة عليه • فلك أن تمزح كما كان يمزح رسول
الله : فلا تقول الا حقا ، ولا تؤذى قلبا ، ولا تفطر فيسقط وفارك •

الاستهزاء

أما الآفة العاشرة فهي الاستهزاء • وحده كما قال الغزالى :
« الاستهانة والتحقير والتبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك وقد
يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء »
وقد نص الغزالى على ان هذا ائما يحرم في حق من يتاذى به ،
فاما من جعل نفسه سخرة ، وربما فرح من أن يسخر به ، كانت
السخرية في حقه من جملة المزاح فله حكمه ، لأن المحرم هو استصغر
يتاذى به المستهزأ به ، لما فيه من التحقير •

افشاء السر

الآفة الحادية عشرة هي افشاء السر ، وهو مذموم لما فيه من الإيذاء
والتهاون في حق المعارف والأصدقاء ، يقول الغزالى : « وهو حرام اذا
كان فيه اضرار ، ولو لم يكن فيه اضرار »

وقد عد من حقوق الاخ على أخيه في كتاب الصحبة : « أن يسكت عن افشاء سره الذي استودعه ، وله أن ينكره وإن كان كاذبا ، فليس الصدق واجبا في كل مقام ، فإنه لما يجوز للرجل أن يخفى عيوب نفسه وأسراره وإن احتاج إلى الكذب ، فله أن يفعل ذلك في حق أخيه . فإن أخيه نازل منزلته ، وهو ما كشخض واحد لا يختلفان إلا بالبدن » .

الوعد الكاذب

الآية الثانية عشرة هي الوعد الكاذب ، وقد بين الفرزالي أن ذلك يكون بالوعد على نية الخلف ، أو ترك الوفاء من غير عذر ، ولا جناح على من عزم على الوفاء فعن له عذر فمنعه .

الكذب في القول واليمين

الآية الثالثة عشرة هي الكذب في القول واليمين . وقد نص الفرزالي على « أن الكذب ليس حراما لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره فأن أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلا ، وقد يتعلق به ضرر غيره ورب جهل فيه منفعة ومصلحة فالكذب المحصل لذلك الجهل يكون مأذونا فيه وربما كان واجبا » وقد بينما المواطن التي أباح الفرزالي فيها الكذب حين تكلمنا عن رأيه في الوسائل والغايات .

الغيبة

الآية الرابعة عشرة هي الغيبة . ووحدها « أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرته بنقص في بدنها ، أو نسبة ، أو في خلقه ، أو في فعله ، أو في قوله ، أو في دينه ، أو في دنياه ، حتى في ثوبه وداره ودابته » .

وقد نص على أن التصریح ليس شرطاً في تحقیق الغيبة ، بل تکفى
الاشارة ، والايباء ، والغمز ، والهمز ، والكتابة ، والحركة ، وكل
ما يفهم منه المقصود .

وللغية أسباب نذكر منها الأربعة الآتية :

- (١) موافقة القرآن ، ومحاجمة الرفقاء ، ومساعدتهم على الكلام .
- (٢) اراده التصنیح ، والمباهة ، كأن يرفع المرء نفسه بتقیص
غيره .
- (٣) اللعب ، والهزل ، والمطایبة ، وترجية الوقت بذكر عيوب
الناس .
- (٤) البراءة مما ينسب المرء اليه بتقیص من يفعله .

وقد تنبه الغزالى إلى ما يقع فيه علماء الدين ، فقد ينكرون المنكر ،
ويقعون في صاحبه ، وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً ، مع انهم يکنیهم
أن يشخصوا المنكرات بلا تعرض للأشخاص ، وقد يغضبون الله حين
يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولكنهم يذکرون أشخاصاً بالسوء ،
فيحيطون ما يعملون .

والغزالى يصف لعلاج الغيبة قراءة الآيات والاحاديث الواردة في
هذه الافه . وقد عد سوء الطن غية القلب ونهى عنه ثم ذكر المواطن
التي تجوز فيها الغيبة ، وقد فصلناها أيضاً في الوسائل والغايات ، كما
بينا رأيه في كفارة الغيبة في الخروج من المظالم .

النیمة

الآفة الخامسة عشرة هي النیمة . وهي كما يقول الغزالى «كشف
ما يکره كشفه ، سواء كرهه المقول عنه أو المقال إليه ، أو كرهه
ثالث . سواء كان الكشف بالقول ، أو بالكتابة ، أو بالرمز ، أو

باليماء ٠ وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيناً ونقصاً في المنقول عنه أو لم يكن (١) ٠

ولم يقتصر الغزالى على تفسيح النيمية ، وعدها من آفات اللسان ، بل وضع للرجل آداباً خاصة ازاء النمام ٠ وهي :

(١) أن لا يصدقه ، لأن النمام فاسق ، وهو مردود الشهادة ٠

(٢) أن ينهاه عن ذلك ، وينصح له ، ويقيح عليه فعله ٠

(٣) أن يفضنه في الله ، فاته بفيض عند الله ٠

(٤) أن لا يظن باخيه القائب السوء ، فإن بعض الظن إنما ٠

(٥) أن لا يحمله ما حكى له على التجسس ، والبحث لأجل التحقق ٠

(٦) وأن لا يحكى النيمية ، ولا رضى لنفسه ما نهى النمام عنه ٠

قال الغزالى : « والسعایة هي النيمية ، الا أنها اذا كانت الى من يخاف جانبه سميت سعایة » ثم نقل قول مصعب بن الزبير : « نحن نرى أن قبول السعایة شر من السعایة ، لأن السعایة دلالة والقبول اجازة ، وليس من دل على شيء فأخبر به كمن قبله وأجازه ، فاتقوا الساعي ، فلو كان صادقاً في قوله لكان لثيماً في صدقه ، حيث لم يحفظ الحمرة ، ولم يستر العورة » (٢) ٠

ولا شك في أن الغزالى يرتضى حكم مصعب في قسول السعایة ، لأن أنه لم يعقب عليه ، ولم يذكر من أقوال السلف ما ينقضه ٠ والسعایة والنيمية شيء واحد ، أو كأنهما شيء واحد ، فمن الواجب أن تكون

(١) ص ١٥٧ ج ٣ ٠

(٢) ص ٢٥٨ ٠

آداب المرأة واحدة ازاء التمامين والسعادة ، وهو ما تمحس به رأى الغزالى وان
لم يصرح به ٠

وفي الوسائل والغايات تجده ما يجوز من النيمية فيما يرى
الغزالى ٠

كلام ذى اللسانين

الآفة السادسة عشرة هي كلام ذى اللسانين الذى يتعدد بين
المتعادين ويكلم كل واحد منها بكلام يوافقه وهو فيما يرى الغزالى
نفاق « ولو دخل الرجل على متعادين وجامل كل واحد منها و لان
صادقا لم يكن ذا لسانين ولم يكن منافقا ، فان الواحد قد يصادق متعادين
ولكن صدقة ضعيفة لا تنتهي الى حد الاخوة ، اذ لو تحققت الصدقة
لاقتضت معاداة الاعداء ، نعم لو نقل كلام كل واحد منها الى الآخر فهو
ذو لسانين وهو شر من النيمية ، اذ يصير تماما با ان ينقل من احد اخرين
فقط ، فاذا نقل من اخرين فهو شر من النيمية . وان لم ينقل كلاما ،
ولكن حسن لكن واحد منها ما هو عليه من المعاداة لصاحبها فهذا ذو
لسانين وكذلك اذا اثنى على أحدهما واذا خرج من عنده ذمه فهو ذو
لسانين . بل ينبغي أن يسكن ، أو يثبت على الحق من المتعادين فى
غيته وفي حضوره ، وبين يدي عدوه ٠٠٠ ولا يجوز الثناء ولا التصديق
ولا تحريك الراس فى معرض التقرير على كلام باطل ، فان فعل ذلك
 فهو منافق ، بل ينبغي أن ينكر ، فان لم يقدر فيست بلسانه وينكر
بقلبه ” ” ٠

المدح

الآفة السابعة عشرة هي المدح ، وهو منهى عنه فى بعض الموضع ،

(١) ص ١٦٠ ج ٣

وفي بعضها لا بأس به ، بل ربما كان مندوباً إليه ، وقد بين الفزالي أن بهذه الرذيلة أربع آفات في حق المادح ، واثنتين في حق المدوح ، أما آفاتها في حق المادح فهي :

(١) أنه قد يفرط فيتهي به الإفراط إلى الكذب .

(٢) وقد يدخله الرياء ، فانه بالمدح مظهر للحب ، وقد لا يكون مضمراً له ، ولا معتقداً لجميع ما يقوله ، فيصير به مراهياً منافقاً .

(٣) وقد يقول ما لا يتحققه ولا سيل له إلى الاطلاع عليه ، ويرى الفزالي أن هذه الآفة تطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التي نعرف بالأدلة : كقولك انه متقد ، وورع وزاهد ، ونخير ، وما يجري مجرأه .

(٤) وقد يفرح المدوح ، وهو ظالم أو فاسق ، وذلك غير جائز .

أما آفاتها في حق المدوح فهي :

١ - أن المدح قد يحدث فيه كبراً واعجاباً وهمما مهلكان .

٢ - وأنه إذا أتني عليه بالخير فرح به وفتر ، ورضي عن نفسه ، فقل جده .

وبعد أن بين الفزالي آفات المدح ، دعا المدوح إلى أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر ، والعجب ، وآفة الفتور ، بأن يتأمل ما في خطر الخاتمة ، ودقائق الرياء ، وآفات الأعمال ، فانه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح ، ولو انكشفت له جميع أسراره وما يجسّر على خواطره ، لكيف المادح عن مدحه ؟ وحشه كذلك على أن يظهر كراهة المدح باذلال المادح .

النفلة

الآقة الثامنة عشرة هي النفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام
لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، ويرتبط بأمور الدين ٠

ومن الأمثلة التي ذكرها الفزالي أنه لا يصح أن تقول عبدي
وأمتي ، لأننا جميعاً عبيد الله ، ونساؤنا جميعاً إماء الله ، بل تقول علامي
وجارتي ٠٠٠ الخ ٠

السؤال عن صفات الله

الآقة التاسعة عشرة هي سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن
كلامه ، وعن الحروف ، وأنها قديمة أو محدثة ٠ يقول الفزالي : « وكل
كبيرة يرتكبها العامي فهي أسلم له من أن يتكلم في العلم ، لا سيما فيما
يتعلق بالله وصفاته ، وإنما شأن العوام الاستعمال بالعبادات ، والإيمان بما
ورد به القرآن ، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث ٠ سؤالهم عن
غير ما يتعلق بالعبادات سوءً أدب منهم يستحقون به المقت من الله عز
وجل ، ويعرضون لخطر الكفر ٠ وهو كسؤال ساسة الدولاب عن
أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة » ٠

الفناء

الآقة العشرون هي الفناء ، وتتجدد تفصيلها في البحث عن رأيه في
الفنون ٠

وانه ليخيل الى المرء أن الفنالى بالغ في آفات اللسان ، ولكن هذه
المبالغة ليست الا نوعاً من الاحتياط ، وهي ليست كبيرة على من يطبع في
مكارم الأخلاق ٠

الفصل السابع

رذيلة الرياء

انك لترجم الغزاوى حين تقرأ ما ذنبه عن الرياء ، فاتمك تصوره
رجالاً ناد يجن من غلبة الجهل فى عصره . ويکفى أن نلخص آراء
في هذا الباب لترى كيف كان الرجل يمقت الرياء ، ويفض من أعماق
صدره أعمال المرائين .

فمما يمقته الغزال أن يظهر المسلم التحول والصفر ، ليدل بالتحول على فلة الأكل وبالصفار على سهر النيلى . يقول الغزال : « ويقرب من هذا خفض الصوت ، واغارة العينين ، وذبول الشفتين ليستدل بذلك على أنه مواطن على الصوم ، وأن وقار الشرع هو الذي خفض صوته ، وضعف الجوع هو الذي أضعف من قوته »

ومن الرياء تشعيث الشعير ، وحلق الشارب ، واطراف الرأس في
الشيء ، والهدوء في الحركة ، وابقاء آثر السجود على الوجه ، وغلط
الثياب ، وتشميرها الى قريب من الساق ، وتقصیر الأكمام وترك تنظيف
الثوب ، والتطويل في الركوع والسجود .. الخ

ولم يغفل الغزال عن الشؤون الاجتماعية وهو يتكلم في الرياء فقد
يُبيّن أنَّ من الناس من يظهر التقوى والورع والامتناع عن أكل الشبهات،
ليعرف بالأمانة فيولي القضاء، أو الأوقاف، أو الوصاية، أو مال الأيتام،
فيأخذها، أو يسلِّمُ إلَيْه تفقة الزكاة أو الصدقات ليستائر بما عذر عليه
منها، أو يodus الودائع فيأخذها ويتجحدها، أو تسليم إلَيْه الأموال التي
تنفق في طريق الحجج فيختزل بعضها أو كلها ٠٠٠ النع ٠

وللفرزى فى هذا الباب نظر بعيد : فهو يعين العيوب الاجتماعية ،
ويشرح عيوب العلماء والزهاد . ويظهر أن الناس لم يهدء كانوا يتخدون
دين الله سلما لأنفاضهم الخبيثة : من الفسق والفحotor ، ونهب الأموال .

وأكرر ما قلته من أن: الغزالي لا يغصب إلا حين يحارب رذيلة
يراهـا بعينه ، فكلامـه في ذلك صورة لبعـره ، وليس أثرا لمطالعـته في
الكتـب القديمة التي تصف عـيوب الناس . وفي مقدور الباحـث أن
يستخرجـ من كتاب الأخـياء صورة واضحة للغلـيمـاء والـزهـادـ في عـهـدـ
الـغـزـالـي . ولا أقولـ الحـكـامـ والأـمـرـاءـ ، لأنـهـ تـكـلمـ عنـ الحـكـومـةـ لـعـهـدـهـ
بـضـعـفـ وـقـتـورـ ، ولـمـ يـقـاسـ السـلاـطـينـ شـيـئـاـ منـ لـسـانـهـ الـحـدـيدـ !!

الباب التاسع

في العلوم والفنون والتربية

نذكر في هذا الباب خلاصة لآراء الغزالي في العلم والعمل والفرق بين علم الدنيا وعلم الآخرة ، وكيف يفهم علم الفقه ، وعلم التوحيد ، ثم نذكر بالإيجاز فهمه للفنون الجميلة ، ثم نبين النهج الذي وضعه ل التربية الأطفال ، وما يراه من آداب المعلمين والتعلمين ، وذيف اهمل تربية البنات .

الفصل الأول

العلوم

تكلم الغزالي عن العلم والعمل ، وأيهما أفضل لنميريده ، في مواطن كثيرة من مؤلفاته في الأخلاق .

وقد لاحظت أنه لم يكن موحد الرأي في هذا البحث ، فتارة يقدم العلم على العمل ، وأخرى يقدم العمل على العلم . ويخيل إلى أن نزعته الصوفية كانت سبب هذا التردد ، بل وأحسب أيضًا أنه كان يدارى أهل عصره ، ويسايرهم في كثير من الشؤون . فقد أراه يهم بالكشف عن المقصود من العلم المفضل عن العمل ثم يتراجع . ولو جرئ قليلاً لين لنا أن العلم النافع لا يقتصر على معرفة العبادات ، وما إليها من دقائق التصوف والتوحيد ، بل هنالك البحث في طبائع الأشياء ، والتقيب عن السر في أن الله سخر لنا ما في الأرض جميماً .

غير أنه لم يكدر يذكر قوله عليه السلام : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة القدر » ، حتى اندفع يقول « ذلك العلم المقدم على العمل لا يخلو : أما أن يكون هو العلم بكيفية العمل ، وهو الفقه وعلم العبادات ، وأما أن يكون علماً سواه . وباطل أن يكون الأول لوجهين : أحدهما أنه فضل العالم على العابد ، والعبد هو الذي له العلم بالعبادة ، والا فهو عابت فاسق ، والثاني أن العلم بالعمل لا يدون أشرف من العمل ، لأن العلم بالعمل لا يراد لنفسه ، وإنما يراد للعمل ، وما يراد لغيره يستحيل أن يكون أشرف منه » .

وكان المطنون بعد هذه المقدمة أن يعطى العلوم ما تستحق من التفضيل . ولذلك قسمها إلى قسمين : عملي ونظري . أما العملي فقد قدم انه ليس أفضل من العمل ، وأما النظري فقد زيفه جميعه ، ولم يستبق منه إلا ما يرجع « إلى العلم بالله وملائكته وكتبه ورسالته ، وملوكوت السموات والأرض وعجائب النفوس الإنسانية والحيوانية من حيث أنها مرتبطة بقدرة الله عز وجل لا من حيث ذواتها » .

مناقشة قصيرة

من هنا يتبيّن أن واجب العابد لا يخرج عن العبادة والتفكير في المعبود ، وما إلى ذلك من معرفة الملائكة والكتب والرسل وملوكوت السموات والأرض إلى آخر ما قال .

ونسأّل الغزالى : ما رأيه اذا توقف فهم الكتب السماوية على ادراك روح التشريع ، بفهم أصول القوانين ؟

وما رأيه اذا توقف فهم « عجائب النفوس الإنسانية والحيوانية » على علم النفس ، وعلم وظائف الأعضاء ؟

وما رأيه اذا اقتضت معرفة الرسل درس التاريخ القديم والحديث ،

لفهم ما قد يضطر اليه المشرعون من الرسل والأئماء في مختلف
الصور ؟

وما رأيه اذا توقف ادراك ما في الكتب السماوية من سياسة الناس
على علم الاجتماع ؟

لم ينكر الغزالى أهمية العلوم العقلية ، والنقلية ؟ ولكن جعل
بعضها وسيلة للعلوم النظرية ، والوسيلة بالطبع دون الغاية في الرتبة .
وجعل بعضها علوما عملية ، وهي أيضا وسيلة للعمل ، فلا يعقل أن تكون
أشرف منه !

فلم يبق من العلم المقدم على العمل الا العلم بالله وملائكته ورسله
وال يوم الآخر ؟ وهو في ذاته علم شريف .

ولكنى أحب أن أضع هنا السؤال : أيكون من يشغل نفسه بهذا
النوع من المعرفة أفضل أمام العقل والشرع من أفنى عمره في درس
الطب حتى استطاع أن يعرف كيف تغزى الديدان التي تحدث البول
الدموى ، والتي تهلك في كل عام ما يعد بالملايين ؟ وهل يقدم مجىي
الدين بن عربى يوم القيمة ، على من يقضى حياته لا في التفكير في ملوكوت
الله ، بل في غزو السل والسرطان ؟

الشك عن طريق اليقين

وبمناسبة العلم ثبت قول الغزالى في نهاية الميزان « ولو لم يكن
في مجاري هذه الكلمات الا ما يشكك في اعتقادك الموروث لستدب
للطلب ، فناهيك به نفعا . اذ الشكوك هي الموصلة للحق ، فمن لم يشك
لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر يقى في العمى
والضلal » .

غير أن الغزالى لم يبين لنا مصير المرء اذا بقى في شك ، ولم يهتم

إلى اليقين . وما نحسب عصر الفرزالي كان يسمح له بتحرير هذه المسألة ، وإن كانت غاية في الوضوح فمتى كان المرء حراً في أن لا يثق بعقيدة قديمة مهما أجمع عليها الناس لاحتمال أن تكون باطلة ، فهو بالضرورة غير مسؤول عن الوصول إلى نتيجة معينة ، وإنما يسأل عن اعتقاد ما أداه إليه الدليل .

ولا يفوتنا أن نلفت النظر إلى أن الفرزالي به في عدة مواطن من كتبه إلى أنه يجب على المعلم أن يتتجنب كل ما يثير الشك في نفوس الضعفاء ، وحضر المرشد على الاقتصار مع العامة على المتداول المأثور . ومعنى هذا أن الشك وإن كان سبيل اليقين ، إلا أنه لا يستعمل إلا بمقدار . وهذا النهج يبين لنا أن الفرزالي يحرص على وحدة الهيئة الاجتماعية ، وينفر من كل ما يقربها من الاتصال . فللعلماء أن يشكوا وأن يختلفوا ، ولكن عليهم أن يجنبوا العامة مواطن الشك والخلاف ، ومن هنا نفهم كيف يرى أن الإجابة على بعض الأسئلة حرام . وسنعود إلى هذا البحث عند الموازنة بينه وبين الفلسفه المحدثين .

علم الفقه

ولقد بلغ من اغراق الفرزالي في التصوف أن جعل الفقه من علوم الدنيا ، وألحق الفقهاء بعلماء الدنيا . وأنتم تعلم قيمة الدنيا عنده ! ولكن أليس الفقه هو معرفة القوانين التي يساس بها الناس ؟ لكن كذلك ! اذا ما قيمة هؤلاء الناس ؟ أليس الله أخرج آدم من التراب ، وأخرج ذريته من سلالته من طين ، ومن ماء دافق ، فأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام ، ومنها إلى الدنيا ثم إلى القبر ، ثم إلى العرض ، ثم إلى الجنة أو النار ؟ واذ كان هذا مبدأهم ، وهذه غايتهم ، وكانت الدنيا زادهم ، فما قيمة الفقه ، وما هي أقدار الفقهاء ؟ أليسوا يفصلون في خصومات لو عدلنا ما احتاجنا إلى أن يفصلوا فيها ، ولما كان لهم قيمة في هذا الوجود ؟

هذا هو منطق الغزالي !

والحمد لله الذي رحم الشرق وأهله من علم الفقه ، ومن عليهم
بالقوتين الأجنبية التي يقدم اليها اصحابها آيات القدس ، عند الشروق
وعند الغروب !

الفقه لا قيمة له في نظر الغزالي ، لأنّه يتعلّق بسياسة هؤلاء الناس
المناكيد الذين اضطروا بشرّهم إلى الفقه والفقهاء ، والذين لو عدلوا لما
احتاجنا إلى قاض ولا إلى فقيه !

صدقت يا مولانا الأستاذ ! ولكن اسمح لنا بأن نذكرك بأن النبي
كان فقيها ، وكانت شريعته فقها ، وهل الفقه شيء آخر غير قواعد الفصل
في الخصومات ؟

وهل بلغ من هوان الدنيا عندك أن تتحقر لأجلها الفقه والتشريع ؟
انركوا الدنيا لاصحابها يا جماعة الصوفية ! انركوا الدنيا للمسلمين
فإن الله لم يبعث محمدا الا ليُمكِّن للمؤمنين في الأرض و يجعلهم أئمة ،
ويجعلهم الوارثين .

علم التوحيد

وأما التوحيد فهو عند الغزالي وقف في جوهره على علماء
الم Kashifa .

وما هو علم الم Kashifa ؟

هو علم لا نعرفه ، ولكن يقال ان سوء الخاتمة معدٌّ لمن ليس له منه
نصيب !!

ويقال ان أدنى نصيب من هذا العلم هو التصديق به ، وتسليم
لأهلـه ! ويقال كذلك ان أقل عقوبة من ينكره ألا ينزوـق منه شيئاً !

وما هي غاية هذا العلم؟

غايتها أن تحصل المعرفة الحقيقة بذات الله وبصفاته التالىات
الناتمات!

وأنا لا أدرى سبب هذه الشهوة الغريبة التى تحمل علماء الدين
على البحث عن ذات الله وصفاته ، ولا أعلم كيف عمت قلوبهم حتى
اندفعوا يذكرون عن ذات الله وصفاته ما يجب أن يتورع عنه المؤمنون !

يطبع الغزالى فى معرفة ذات الله معرفة حقيقية ، وهذا والله عين
الجهل ، ونفس الصلال ! ويطبع كذلك فى معرفة صفاته الناتمات ، وهو
الذى بلغ به الادب مع الاشاعرة والمعترلة الى الاختلاف فى صفات الله ،
وفى كلامه ، وفي أفعاله ، وفي رؤيته بالابصار يوم القيمة ، الى غير ذلك
من المباحث التى لا يقدم عليها غير عمنى القلوب !

واظهر ان الغزالى ومن على شاكلته لم يشهدوا المعرفة القائمة
بين الهدى والضلال ، ولم يروا يوما واحدا ييف تتصاول العقول ؟ فان
البحث عن ذات الله وصفاته حمق وسفه ، وانما سيل المؤمنين أن يتأملوا
ما يحيط بهم من جلال الوجود ، وأن يبحثوا في المراد من أن الله سخر
لهم ما في الأرض جميما ، فإنه ليس للعقل آن يترك الاتفاف بما تلمس
يده ، وترى عينه ، ليغيب في مجاهل من الظنون ، يسميه سفهاء علم
التوحيد .

وما أسفت لشيء أسفى لانحصر الأفكار الإسلامية « فى معرفة
معنى النبوة والنبي ومعنى الوحي ومعنى الشيطان ومعنى لفظ الملائكة
والشياطين وكيفية معاداة الشياطين للإنسان ، وكيفية ظهور الملك للأنياء»،
وكيفية وصول الوحي إليهم ، والمعرفة بملكت السموات والارض ،
ومعرفة القلب وكيفية تصادم الملائكة والشياطين ومعرفة الفرق بين ملة
الملك وملة الشيطان ، ومعرفة الآخرة والجنة والنار وعذاب القبر والصراط

والميزان والحساب ، ومعنى لقاء الله والنظر الى وجهه ، ومعنى القرب منه والنزول في جواره ، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملاّ الأعلى ، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدرى في جوف السماء ٠

فإن هذه في الأصل أكثرها رموز ظنها المسلمين حقائق ، فوضعوا لها ضروبا من التفسير والتأويل ٠

والذى يطالع الكتب القديمة يرى جمهور الفقهاء أعلم بخريطة الآخرة منهم بخريطة الدنيا : فهم يعرفون من أنهار الجنة ما لا يعرفون من أنهار هذا العالم ، ويعلمون من أبواب جهنم ما لا يعلمون من أسباب انحطاط الأمم وضعف الشعوب ، ويدركون من نعيم الآخرة ما لا يدركون من معنى الملك والقوة في هذا الوجود ، وفي مقدور المرء أن يوجد مئات الكتب في وصف الحشر والنشر ، ولا يوجد كتابا واحدا في تحديد المراد من الخلافة الإسلامية ، التي قامت بسيتها آلاف القرن ، ومئات الحروب ٠

والغزالي من الذين ساعدوا على بقاء هذه العماية ، فقد وضع الكتب المطولة في نفي العزلة ، ولما اراد أن ينقد الشائون الاجتماعية ، وضع كتابه « التبر المسبوك في نصيحة الملوك » ، فكان آية في السخف والاضطراب ٠

والى من نقاضي هؤلاء العلماء ٩

نقاضيهم الى القرآن : فيه الدعوة الى الملك ، والى أن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ٠ وهل الاخلاق شيء آخر غير حرب الذلة والقلة: في الافراد ، والجماعات ، والشعوب ٩

نقول هذا ونطالب كل مسلم بالحذر البالغ عند مطالعة كتب المتقدمين ، فإن أكثرهم لم يعرف السياسة ، ولا شئون الاجتماع ٠ والا

فأين غمز المؤلفات في الأمور السياسية والاجتماعية؟ وأين البصر النافذ إلى أعماق الحياة الدولية؟ بل وain الخبرة بالسرير الإنسانية، التي حسبيها لا تندو طلاب الجنة من الزهاد، والعباد، من كل راض بالفقر، قانع بالسؤال؟

الفصل الثاني الفنون

أباح الغزالى أن يحب المرء بجماليه، فكان ذلك منه اعترافاً بالحساسة الفنية، التي يدرك بها الأديب، والفنان، والفيلسوف، ما في العالم من دفائق الجمال.

وتتجدد في حقوق الأخوة من هذا الكتاب أن الغزالى ضرب المثل بالنظر إلى الفواكه، والأزهار، والآذهار، والتتفاح المشرب بالحمرة، والى الماء الجارى والخضراء. ومعنى هذا أن الإنسان متى جاز له، وبعبارة أدق، متى أمكن له أن يحب هذه الأشياء بلا نية سيئة، فقد يمكن له أن يحب الرجل الجميل بلا غرض خييث.

وشاهدنا في هذه الفكرة، هو أن الغزالى يؤمن بأن للروح شيئاً من السلطان، وله بعض الحقوق. فإنه متى جاز أن يحب الرجل بجماليه، والجمال في الرجال كثير، فقد أصبح للروح الحق في أن يتمتع بكل جميل، متى استطاع أن يتخلص بالعفاف. وهذا فيما أرى اعتراف من الغزالى بضرورة وجود الفنون الجميلة لتشتت بها الأرواح، كما يجب أن تملأ الخزائن والأسواق، لتتجدد الأجسام ما تحتاجه من الغذاء.

ويحسن أن نذكر ما لاحظناه على الغزالى حين تكلم عن التشريح: فقد قرر أنه يسير بفريق من العلماء إلى أن النفس تموت؟ فانا سأله.

هل يقضى ذلك بتحريم التشريح ؟ وبالطبع ليس عند الغزالى جواب على هذا السؤال !

وكذلك نسأله الآن : يجوز أن يحب الشخص الجميل ، ولكننا لاحظنا أن مثل هذا الحب قد يجر إلى الفسق . فهل يحرم لذلك حب كل شخص جميل ؟ وليس للغزالى أيضاً على هذا السؤال جواب !

وانما قدمنا هذه الكلمة أمام رأيه عن الفنون الجميلة ، ليعرف القارئ أنه لم يذكر أصلاً من أصول الأخلاق يبرر رأيه في الفنون فقد أتى عليها جميماً بالفقد والتجزير ، وإن لم ينكر « إن الله سراً في مناسبة التفمات الموزونة للأرواح » وأحسب أنه لو ترويَ قليلاً لعرف أن الله سراً فيما تحدث الفنون ، من أنواع الفنون .

الشعر

رأى الغزالى في الشعر رأى عجيب ، فهو يرى أن مقصوده المح والذم والتشبيب . وعلى فرض أن الشعر لا يقصد منه غير ذلك فهو مقصود لحميد ، وإن قبح في بعض الأحوال .

وقد رأى الغزالى نفسه أمام أمر واقع : وهو أن الشعر أنسد بين يدي رسول الله ، ولكنه اعتذر عن هذا بأن المبالغات التي وردت في ذلك الشعر ، لم يقصد بها الكذب ، وإنما هي من صنعة الشعر . فلا يقصد بها اعتقاد الصورة التي وضعها الشعراء .

ولأدل على هوان الشعر في نظر الغزالى من قوله : « وأما الشعر فكلام حسنة حسن ، وقيحه قبيح ، الا أن التجرد له مذموم » ص ١٣١

ج ٣

والتجرد للشعر هو صنعة الشاعر الفنان ، الذي يريد أن يمثل

عصره ، وقطره ؟ في صحيفة التاريخ . ومتى كان من المذوم أن يتجرد المرأة للشعر ، فمعنى ذلك أن الشعر لا يصح أن تخصص له حياة فرد من الأفراد . وإن جاز للناس أن ينشدوا أو ينشئوا ما حسن منه ، لأنه كل كلام : حسنة حسن ، وفيه قبح !!

ولا يفوتنا أن نلتف النظر إلى أن الأحاديث التي رواها الفزالي في ذم الشعر اقتضتها ظروف خاصة ، بدليل ما روى الفزالي نفسه ، مما ينافي كل الماقضة ، فكان عليه أن يراعي تلك الظروف .

الموسيقى

تكلم الفزالي عن الموسيقى باحتياط يدل على مبلغ رأيه في هذا الفن الجميل ، وهو يقسم الأصوات الموزونة باعتبار مخارجها إلى ثلاثة : ما يخرج من جماد : كصوت المزامير ، والأوتار ، وضرب القضيب ، والطليل وغيره ، وما يخرج من خنجرة حيوان ، وذلك الحيوان أما إنسان ، أو غيره : كصوت العنادل ، والقماري ، وذوات السجع من الطيور . ثم يحکم بأن سماع هذه الأصوات يستحيل أن يحرم للونها طيبة أو موزونة ، إذ لا ذاهب إلى تحريم صوت العندليب ، وسائر الطيور ، ولا فرق بين خنجرة وحنجرة ، ولا بين جماد وحيوان ، فينبغي أن يقاس على صوت العندليب الأصوات الخارجية من سائر الأجسام باختيار الآدمي كالذى يخرج من حلقة ، أو من القضيب والطليل والدف .

إلى هنا لا تجد شيئاً يغض من الموسيقى باعتبار أنها فن جميل ، ولكنك تجده يقول بعد ذلك : « ولا يستثنى من هذا إلا الملاهي والأوتار والمزامير التي ورد الشعاع بالمنع منها ، لا للذتها ، إذ لو كان للذلة لقيس عليها كل ما يلتذ به الإنسان ، وإنما حرمت لعمل ثلاث : أحدها أنها

تدعو الى شرب الخمر ، فان اللذة الحاصلة بها انما تتم بالخمر ، وتشمل هذه العلة حرم قليل الخمر . الثانية : أنها في حق فريب العهد بشرب الخمر تذكر بمجالس الآنس بالشرب ، فهي سبب الذكر ، والذلر سبب انباع الشوق ، وابناع الشوق اذا قوى فهو سبب الاقدام . والثالثة : الاجتماع عليها ، وهو من عادة أهل الفسق » ونجده بعد هذه الفقرة ينص على تحريم المزمار العراقي ، والأوتار كلها ، كالعود والصنج والرباب والبربط ^(١) وكل ما يذكر بالخمر ، ومجالس الخمر ، فاما ما عدا ذلك فهو على الاباحة ، قياسا على أصوات الطيور .

وما نريد أن نناقش هذا الرأى ، ولا أن نبحث في الأساس الذي وضع عليه ، ولكن نتبه على أن فيه دلالة على دفته في وقاية العيشه الخلقيه ، وحرصه على أن يظل المرء بعيدا عن مثار الشهوات .

ونضيف الى ما سلف من رايه في الموسيقى ، انه عد بيع الملاهي من المنكرات التي يجب سرها ، حين تكلم عن منكرات الأسواق ، وعد من منكرات الضيافة سماع الأوتار وسماع القيان ، وعد اعطاء المال للمطربي اسرافا يجب على المحاسب انكاره ، ولم يعين منه المطلب ، فصلاح لأن يطلق على المغني والموسيقار . ونص في ص ٣٢٧ ج ٣ احياء على ان أصوات المزامير والأوتار اذا ارتفعت في دار بحث جاوزت الحيطان ، فلمن سمعها دخول الدار وكسر الملاهي ، ونص كذلك على أن للمرء الحق في أن يكسر العود اذا رأى شخصا يحمله .

ومما سلف نعلم أنه لا يحرم الموسيقى مرة واحدة ، ولكننا نعرف كذلك أنه لا يقيم لها وزنا باعتبار أنها فن جميل ، فمن الواضح أن لكل فن سيئات وحسنات ، وأن السيئات لا تقل قيمة في نظر الفنان عن الحسنات ، اذ كان جمال الفنون يرجع أكثره الى ما تحدث في عشاها من الجرأة على المألوف ، وهو ما يخافه الفرزالي ويتوقه .

(١) البربط : كجعفر هو العود مغرب بربط أي صدر الاوز لانه يشبهه .

وهذا الذى يوجب كسر العود ، لا يسع فيما نظن أن تبني دار للموسيقى ، وأن يختار للتعلم فيها حسان الأصوات ، وصباح الوجوه !

ولا ننس أنه لم يحرم الأوتار والمزامير الا لأنها تذكر بمحالس الخمر ، فلنذكر أنه يحرم من أجل الخمر هذه اللذة الروحية البدعية . فهى عنده « أم الخبائث » ، وأصل المنكرات .

الفناء

لم يفرد الغزالى بابا للموسيقى ، ولا للغناء ، وإنما نأخذ رأيه فى هذين الفنين مما جاء فى كتاب السماع والوجود ، وهو الكتاب الثامن من رباع العادات من كتب الاحياء .

وأول ما يلفت النظر الى رأيه فى الغناء ، موافقته للشافعى فى أن الرجل الذى يتخذ الغناء صناعة لا تجوز شهادته ، لأن الغناء فيما يرون من اللهو المكرور ، الذى يشبه الباطل ، ومن اتخذه صناعة كان منسوبا الى السفاهة ، وسقوط المروءة !

ومتى كان الغزالى يرى أن محترف الغناء مردود الشهادة ، فإنه لا يرى للغناء قيمة ، وما ظنك بفن يهبط بصاحبها الى الحضيض ، ويسقط عدالته بين الناس .

ونحن متى ذكرنا الكلمة فن ، فانا نذكر بجانبها ما يجب على الأفراد والحكومات من تشجيعه ، لأن الفن ليس ضربا من اللهو المكرور ، وإنما هو لهو مفروض ، تحتاجه الأرواح والأجسام ، فيما تحتاجه من صنوف الفناء ، وليس محترف الغناء هو المردود الشهادة فقط فيما يرى الغزالى . بل المترم بالسماع والمفرط فيه هو أيضا سفيه ، ترد شهادته ، لأن المواظبة على اللهو جنائية !

والفن - لما تعلم - لا حياة له الا بوجوده الهاوة ، فلن يحسن
الغناء الا اذا وجد هواة الانشاد والسماع ، ومتى كان الاشار من
الانشاد ، والافراط في السمع ، جنائية ، وكان من واجب كل فرد ان
يحارب هذه الجنائية ما استطاع ، فقد اصبح ما نسميه في الغناء ، عرضة
للاتقراض ، ولا عبرة بما يقوله الغزالي من اباحته اذا لم يوجد موجب
التحرير ، فحسب الفن ضياعا ان تقول انه مباح !

غناء المرأة والأمرد الجميل

ولا يجوز الغزالي ان يسمع الغناء من امراة لا يحل النظر اليها ،
وتحشى الفتنه من سماعها ، وفي معناها الصبي الامرد الذي تحشى فنته .
وقد توعي الغزالي ان يسأل سائل : هل ذلك حرام في كل حال ،
حسما للباب ، او لا يحرم الا حيث تخاف الفتنه في حق من يخاف
العنت ؟ واجب بان هذه المسائل يتتجاذبها اصلاح : أحدهما ان الخلوة
بالاجنبية ، والنظر الى وجهها حرام ، سواء خفت الفتنه او لم تخف ،
لانها مطنه الفتنه على الجمله . والثانى ان النظر الى الصبيان مباح ما لم
تخف الفتنه ، فلا يلحق الصبيان بالنساء في عموم الجسم ، بل يتبع فيه
الحال ، وصوت المرأة دائر بين هدين الاصلين . فان فسنه على النظر
 اليها وجب حسم الباب ، وهو فياس فريب ، ولدن بينهما فرق ، اذ
الشهوة تدعو الى النظر في اول هيجانها ، ولا تدعو الى سماع الصوت ،
وليس تحرير النظر لشهوة الماسه لتحرير السماع ، بل هو اشد ،
وصوت المرأة في غير الغناء ليس بعورة ، وللن للغناء مزيد اثر في
تحرير الشهوة ، فقياس هدا على النظر الى الصبيان اولى لانهم لم
يؤمروا بالاحتياط ، كما لم تؤمر النساء بستر الا صوات ، فينبغي ان يتبع
مثار الفتن ويقتصر التحرير عليه ^(١) .

(١) انظر ص ٢٨٠ ج ٢ نحیاء

موضوع الفناء

ولا مانع فيما يرى الغزالي من أن يكون في الغناء تشبيب بوصف الخدود ، والأصداغ ، وحسن القد ، والقامة ، وسائر أوصاف النساء ، بشرط أن لا يكون في امرأة معينة ، فإنه لا يجوز وصف المرأة بين يدي الرجال ، وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة إلا أن تكون زوجته أو جاريتها ، فان نزله على أجنبية فهو من العصاة . ويحرم على من كان في غرة الشباب أن يستمع ، اذا كانت الشهوة غالبة عليه ، سواء غلب على قلبه حب شخص معين أو لم يغلب (٤) .

ما يباح من الغناء

والإليك جملة ما يباح فيه الغناء كما يرى الغزالي :

- (١) غناء الحجيج ، اذ يدورون في البلاد بالطلب والشاهين والغناء .
- (٢) ما يعتاده الغزاة لتحرير الناس على النزو .
- (٣) الزجريات التي يستعملها الشجعان في وقت اللقاء . وهذا مباح في كل قتال مباح ، ومندوب في كل قتال مندوب ، ومحظوظ في قتال المسلمين وأهل الذمة .
- (٤) أصوات النياحة في البكاء على الخطايا والذنوب .
- (٥) السماع في أوقات السرور المباح ، كالغناء في أيام العيد ، وفي العرس ، وفي وقت الوليمة والحقيقة ، وعند ولادة المولود ، وعند ختانه ، وعند حفظه القرآن ، وعند قدوم الفائز .
- (٦) سماع العشاق ، تحريكا للسوق ، وتهيئة للعشق ، وتسليمة للنفس . وهذا حلال ان كان المشتاق اليه من يباح وصاله ، كمن

يعشق زوجته ، أو سريته ، فيصفي إلى غنائهما لتضاعف لذته ، وكذلك ان غضبته منه جاريته ، او حيل بينه وبينها بسبب من الأسباب ، فله أن يحرك بالسماع شوقيه ، وأن يستثير به رجاء لذة الوصال . فان باعها أو طلقها حرم عليه ذلك بعده ، اذ لا يجوز تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء .

(٧) سماع من أحب الله وعشقه واشتاق إلى لقائه ، فلا ينظر إلى تى إلا راه فيه . وقد أطلاع الغزلى في هذه النقطة ، ثم فرر ان اطلاق العشق على حب غير الله مجاز لا حقيقة ، لأن كل محظوظ سواء يتصور له نظير ، اما في الوجود واما في الامكان ، أما جمال الله فلا ثانى له ، لا في الامكان ، ولا في الوجود (٤)

آداب السماع

لا يعتد الغزلى بسماع من يطرأ للغناه بمجرد الطبع ، ولاحظ له في السماع الا استلذاذ الألحان والنغمات ، اذ كان هذا الذوق لا يتطلب لوجود غيره الحياة ، فلكل حيوان نوع تلذذ بالأصوات الطيبة . ويسخر الغزلى من ينزلون المسموع على حسب شهواتهم ، ومقتضى أحوالهم ، ويرى حالتهم هذه أحسن من أن تفرد باليان .
ويعد فقط بمن ينزل ما يسمعه على أحوال نفسه في معاملته لله ، أو من عزب عن فهم ما سوى الله حتى عزب عن نفسه ، وأحوالها ، ومعاملاتها ، وكان كالمدهوش الغافض في عين الشهود ، الذي يضاهي حاله حال النساء اللاتي قطعن أيديهن في مشاهدة جمال يوسف عليه السلام (٥) .

وإذا سمع أحد هؤلاء « الموقفين » ذكر عتاب أو خطاب ، أو قبول أو رد ، أو وصل أو هجر ، أو قرب أو بعد ، أو تلهف على فائت ، أو

تعطش الى متضرر ، أو شوق الى ورد ، أو طمع أو يأس ، أو وحشة
أو أنس ، أو وفاء بالوعد ، أو نقض للعهد ، او خوف من فراق ، أو
فرح بوصال ، أو ذكر ملاحظة الحبيب ، ومدافعة الرقيب ، الى غير ذلك
منها تشتمل عليه الأشعار ، فلا بد أن يوافق بعضها حالاً في نفسه ،
فيوري زناد قلبه .

ولهؤلاء وضع الفزالي الآداب الآتية :

(١) مراعاة الزمان ، والمكان ، والاخوان : فليس له أن يسمع
وتفت سغل القلب ولا في سارع مطروق ، او موضع ذريه ، او مع فوم
من آهل الدنيا يحتاج الى مراقبتهم ، ومراعاتهم .

(٢) أن يكون مصينا الى ما يقول القائل ، حاضر القلب ، قليل
الالتفات الى الجوانب ، منحرزا عن النظر الى وجوه المستمعين ، وما يظهر
عليهم من أحوال الوجود مشغلا بنفسه ومراعاة قلبه .

(٣) أن لا يقوم ، ولا يرفع صوته بالبكاء ، وهو يقدر على ضبط
نفسه . ولكن ان رقص أو تباكي بغیر قصد الرياء فهو مباح .

(٤) موافقة القيام في القيام ، اذا قام واحد منهم في وجد صادق
من غير رياء وتکلف ، أو قام باختياره من غير وجد ، وقامت له الجماعة ،
فلا بد من الموافقة ، رعاية لأدب الصحبة .

وهناك أدب خامس وضعه الفزالي خاصا بالشيخ المرشد ، وهو
ملاحظة المریدین ، فينبغي أن لا يسمع في حضورهم ، اذا كان فيهم من
لم يدرك من الطريق الا الاعمال الظاهرة ، ولم يكن له ذوق السماع ،
أو رزق ذوق السماع ، ولكن فيه بقية من الحظوظ والالتفات الى
الشهوات ، والصفات البشرية ، أو كسرت شهوته ، وأمنت غائته ،
وانفتحت بصيرته ، واستولى على قلبه حب الله ، ولكنه لم ينجكم ظاهر
العلم ، ولم يعرف أسماء الله وصفاته ، وما يجوز عليه وما يستحبيل .

الرقص

وقد رأينا الغزالي يبيح الرقص ، ولكن أي رقص ؟ هو ما يجري في مجالس النساء الذي قصد به التحث على العمل للأخرة ، وما نحسبه يمنع أن يرقص الرجل في مجلس تغيه فيه امرأته أو جاريتها . وعلى كل حال فلننسى هنا أن الرقص والغناء يجب فيما يرى الغزالي أن يكونا بعيدين كل البعد عن مثار الشهوات . وما نريد أن نفصل أثر هذا التحرّج في حياة الامم ، وإنما نتبه فقط على أن الغزالي يضع حول الشهوة أسوارا من حديد ، ولا تخرج الأخلاق عنده الا رجالا مملوئين بالحيطة ، قد بفَضَت اليهم بسمات الحياة ، وفلما ينجح هؤلاء في ميدان الحياة لأن التسلك باب الحمد .

النقش والتصوير

أراد الغزالي أن يندم (الطب ، والحساب ، واللغة ، والشعر ، والنحو ، وفصل الخصومات ، وطرق المجادلات) بسبب ما تورث من الكبير ، فلم يزد على أن قال : « وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوما ^(١) .

اذن الصناعات دون العلوم ، وإنما كان الطب والحساب الخ من الصناعات ؟ لأن العلم فيما يرى الغزالي هو ما يوصل إلى الآخرة ، وما يخص الدنيا فهو صناعة . وقد نص على أن من الصناعات ما هي مهمة ، ومنها ما يستغنى عنها لرجوعها إلى طلب التنفيذ والتزيين في الدنيا من أجل ذلك حضر المسلم على أن يستغل بصناعة مهمة ، ليكون بقيمه بها كافيا عن المسلمين مهما في الدين . ثم قال :

(١) انظر من ٣٥٢ ج ٣

« وليجتب صناعة النقوش والصياغة ، وتشيد البنيان بالجص ،
وجميع ما تزخرف به الدنيا ، فكل ذلك كرهه ذوو الدين ^(١) .

وقد عد بيع أشكال الحيوانات المchorة في أيام العيد لأجل الأطفال
منكراً تجب ازالته « والصور التي تكون على باب الحمام أو داخل الحمام
تجب ازالتها على كل من يدخله ان قدر ، فإن كان الموضع مرتفعاً لاتصل
إليه يده فلا يجوز له الدخول الا لضرورة ، ويلعد الى حمام آخر ،
فإن مشاهدة المنكر غير جائزه . ويكتفي أن يشوه وجهها ويبطل به
صورتها ^(٢) .

« ولا يمنع من صور الأشجار وسائر النقوش سوى صورة الحيوان
وأاما الصور التي على التمارق ، والزرابي المفروشة ، فليس منكراً
وكذا على الأطباق والقصاص ، لا الأواني المتخذة على شكل الصور ، فقد
تكون رعوس بعض المجامر على شكل طير فذلك حرام يجب كسر مقدار
الصورة منه ^(٣) .

على أن كلمة الغزال لم تكن واحدة فيما يخص البناء والزخرفة ،
فقد رأيت كيف بين أن تشيد البنيان ، ودلل ما تزخرف به الدنيا درره
ذوو الدين ، ومع هذا قال بعد : « وفصل ذلك من له مال كثير ليس
بحرام ، لأن التزيين من الأغراض الصحيحة . ولم تنزل المساجد تزيين
وت نقش أبوابها وسقوفها مع أن نقش الباب والسلف لا فائدة فيه إلا مجرد
الزينة فكذا الدور » .

٢) ج ٧٩

(٢)- وضع فضيلة الاستاذ الشيخ التجار بهامش نسخته ما يأتي : لعل الشيخ محمد صائم
الدهر الذي شوه وجه أبي الهول وغيره من الصور وجعل أكبر منه ذلك قد سرى إليه
هذا الفكر من احياء الغزال وقد رأيت في بطيئ صوراً في الرواق المحمول على الأعمدة
وهي مشوهة ، وقيل لنا أنها شوهرت من أيام دخول العرب ذلك البلد . وشاهدت
كذلك صورة البغل وهو معبود أهل ذلك البلد قد يمسوها مشوهة ، وهو وجه انسان
بصورة أسد .

وإذا كان التزيين من الأغراض الصحيحة ، فكيف تكون صناعته
غير مهمة (١) .

خلاصة هذا البحث

نرى مما سلف أن النش مكروه وأنه لا يجوز تصوير الحيوان ،
ولا حرج في استعمال النمارق والزرابي المضورة ، بصورة الحيوانات
طبعا ، لأنها موضوع الاستثناء . ويظهر أنها استثنى لأن الصور فيها
ستصير ممتهنة بالاستعمال ، وعلى الأخص الأطباق والقصاص . وهو يتبع
في هذا الرأي جمهور الفقهاء ، الذين التصوير داعيا إلى الودية .
وقد نهوا عما يذكر بعبادة الاوثان .

ولَا يفوتنا في ختام هذا الباب أن نبه اجمالا على أن الفرزال لم
يعن بتربية الأذواق وهذه الآراء التي قدمناها له في الفنون الجميلة تدل
على اهماله هذا الجانب من بناء الأخلاق .

ومما يلاحظ أنه يغتلى بعض النظارات الدقيقة في كتبه بأخبار
وأقصاص تحمل القارئ حملا على ازدراء الزهادة ، والأخلاق الى
الخمول . وأكرر ما قلته غير مرة من أن في هذا الشطط شيئا من الحق ،
وهو الحرص البالغ على السلامة ، والنفرة المطلقة من مواطن انشبهات .
ولهذا القصد محسن ، وفيه كذلك كثير من العيوب .

(١) كانى بالرجل . ينظر إلى الشيء نظرة علمية فيقضي بعدم الضرر فيه إذا كان على حد
الاعتدال . وينظر إليه نظرة صوفية فيكرمه وهذا من شأنه الاضطراب الظاهري لأن الكلام
في موضوعين .

الفصل الثالث

تربية الأطفال

يسمىها الفزالي رياضة الصيان ، وكانت كلمة صبي في التمايز القديمة تقابل كلمة طفل في التعبير الحديث ، وكذلك كلمة صبية تقابل كلمة طفلة أو فتاة ، فكانوا يقولون دخلت عليه صبية حسناء كما نقول فتاة حسناء •

وقد سبقت كلمتنا في وراثة الأخلاق عن فطرة الأطفال ، فلا نعود إليها ألا ، وإنما نذكر المنهج الذي وضعه الفزالي ل التربية الطفل ، وهو سهل ما أجمله في واجبات الآباء •

فيجب على الوالد فيما يرى :

(١) أن يؤدب ابنه ، ويهدبه ، ويعلمه مخاسن الأخلاق ، ويحفظه من قرناء السوء •

(٢) وأن لا يحبب إليه الزينة ، وأسباب الرفاهية ، لثلا يتبعون التعم : فيفسر تقويمه بعد ذلك •

(٣) وإذا رأى فيه مخايل التمييز ، وبواحد الحياة ، فليعلم أن عقله مشرق ، وأن تميية هذه الباكورة من عزم الأمور ، وأحسن ما ت Kami به أن تستعان في تأديبه وتهذيبه •

(٤) وليعلم أن أول ما يغلب على الطفل شره الطعام ، فينبني أن يؤدب في ذلك ، وأن يمدد أخذ الطعام بيمينه ، والبدء باسم الله ، والأخذ مما يليه ، وعدم السبق إلى الطعام ، وعدم تحديق النظر إليه ، وإلى من يأكل معه ، والتمهل في الأكل واجادة المضغ ، وعدم الموالة بين اللقم ،

والحذر من تلطيخ اليد والثوب ، وتعود الخنزير القفار في بعض الأوقات ،
حتى لا يرى adam حتماً^(١) .

(٥) وينبغي أن يقيح عنده كثرة الأكل ، بذم الطفل الشره ومدح
المتأدب القليل الأكل ، وإن يحبب إليه الآثار بالطعام وقلة المبالغة به ،
والقناعة باي طعام كان .

(٦) وأن يحبب إليه الآية من الثياب ، دون الملون ، وأن يفهمه
أن تلوين الثياب ليس عادة الرجال ، وإنما هو عادة النساء والمختنين ،
وإن يحفظه من مخالطة الأطفال الذين عودوا التعم ولبس الثياب الفاخرة ،
ومن مخالطة كل من يسمع منه ما يرغب في ذلك .

(٧) وإذا ظهر من الطفل فعل محمود ، فينبغي أن يجازى عليه بما
يفرح به ، وإن يمدح أمام الناس ، فان أساء مرة فيجمل بالوالد ان
يتغافل عنه ، ولا يكاشفه ، ولا سيما اذا تستر الطفل واجتهد في الاخفاء ،
فإن مكاشفته قد تزيده جسارة وعدم مبالغة . فان عاد فليعاقب سرا
وليحذر عواقب الافتضاح ، ول يكن العتب قليلا لثلا يهون على الطفل ونفع
الملام ، وسماع التأييب ، وركوب القبيح .

(٨) وينبغي أن يمنع من النوم نهارا ، فإن ذلك يورث الكسل ولا
يمنع منه ليلا ، ولكن يمنع الفراش: الوثير ، لتصلب أعضاؤه ويعود
خشونة الفراش .

(٩) ويجب أن يمنع من كل ما يفعله خفية ، فإنه لا يخفى إلا
ما يعتقد أنه قبيح .

(١٠) وليعود المشي في بعض النهار ، لتجب إليه الحركة
والرياضة .

(١) الخنزير القفار هو الذي لا أدم فيه .

(١١) ويلمّن من كشف أطراقه *

(١٢) وينبغي أن يمنع من الافتخار على أقرانه بشيء مما يملكه والداته ، أو بشيء من مطاعمه وملابسها ، أو لوجهه ودواته ، بل يعود النواضع ، وطيب الحديث *

(١٣) ويجب أن يعلم أن الرفعة في الاعطاء لا في الأخذ وأن الأخذ لئم ، وخسارة ، ودناءة ، إن كان غنيا ؟ وذلة ، ومهانة ، إن در فقيرا : فلا يصح أن يأخذ شيئا من الأطفال *

(١٤) وينبغي أن يعود أن لا يبصق في مجلسه ، ولا يمتخط ، ولا يت الشعب بحضوره غيره ، ولا يستدير سواء ، ولا يضع رجلا على رجل ، ولا يضع نعه تحت ذفنه ، ولا يسند رأسه بساعديه ويعلم كيفية الجلوس ، ويلمّن ثرة الكلام *

(١٥) ويجب أن يمنع القسم ، صادقا كان أو كاذبا ، لثلا يعتاد ذلك *

(١٦) وليعود أن لا يتكلم إلا مجيما ، وبقدر السؤال ، وأن يحسن الاستماع اذا تكلم غيره من هو أكبر منه سنًا ، وإن يقوم له فوه ، ويفسح له المكان *

(١٧) ويجب أن يمنع من لغو الكلام ، ومن اللعن ، والسب *

(١٨) وليعود الصبر اذا ضربه المعلم ، فلا يكثر الصرارخ ، ولا يستشفع بأحد ، ويلذكر له أن الصبر دأب الشجعان والرجال وأن كثرة الصرارخ دأب المماليك والنساء *

(١٩) وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من المكتب باللعب الجميل يستريح به : فإن منع الصبي من اللعب يحيي قلبه ، ويحمد ذكاءه ، ويحمله على الاحتيال للخلاص من الكتاب *

(٢٠) وينبغي أن يعلم طاعة والديه ، ومعلمه ، ومؤدبه ، وكل من هو أكبر منه سنًا من قريب وأجنبي ٠

(٢١) وإذا بلغ سن التمييز ، فينبغي أن لا يسامح في ترك الطهارة ، والصلوة ، ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان ، ويعلم كل ما يحتاج إليه من أمور الشرع ٠

(٢٢) وليخوّف من السرقة ، وأكل الحرام ، ومن الخيانة ، والكذب ، والفحش ، وكل ما يغلب على الأطفال ٠

هذه خلاصة ما وضع الغزالى في التربية ٠ وما أنكر أن فيها شيئاً من التكرار وارى انه في مثل هذه المواطن جميل ٠

وانما ألاحظ أنه لا معنى لأن تجحب إلى الطفل الثياب البيضاء بنوع حasic . ويظهر أن هذه كانت سنة حسنة اذ ذاك ^(١) . وألاحظ كذلك انه لا يصح ان يعلم الصبي ان هناك فتاة مختلة تميل الى الملون من الثياب، فقد يحسن أن لا يطرق اذان الصبي بمثل هذا المهرج ، بل يجب ان لا يعرف ان الطفل قد يتخلق باخلاق النساء . ولا افهم معنى لأن يدعى الطفل الى عدم ارخاء يديه ، بل يضمهما الى صدره حين يمشي ! ويضحكني ان ينصح الطفل بالصبر والاحتمال حين يضره المعلم ، وكان أولى له أن ينهى عن هذه العادة الشنيعة ، التي لا تجمل بالمعلمين ^(٢) .

ومن أدق ماتتبه له الغزالى تلميحه الى أن يعلم الطفل أسرار البلوغ
حين يصل اليه ٠

(١) يرى الاستاذ عبده بك خير الدين أن لبس الثياب البيضاء فيه دعوة ضمنية الى النظافة لأن الثوب الأبيض يعلن عن نفسه حين يحتاج الى التطهير .

(٢) وضع فضيلة الاستاذ الشيخ التجار بهامش النسخة التي كانت بيده مايأتي : ان أطفال أهل السودان فيهم بهذه العادة على أتمها فانهم يعودون عدم البكاء والصرخ مما حل بالواحد منهم من الالم . ومن فعل ذلك غير . بل كثيراً ما تجد الطفل يأخذ جمرة النار فيضمها على ساعدده وينصب الى أنه ليريها صبره على بقاء النار تأكل في جسمه دون اظهار تألم قائلًا : ابشرى يا مامي أنا أخو البنات .

والغزالى يسمى المدرسة بالمكتب والكتاب ، وليس له فى هذا الباب غير برنامج ضئيل ، يمثل ما كان يفهم فى عصره من المدارس الأولية والابتدائية . ويتلخص هذا البرنامج (فى تعلم القرآن ، وأحاديث الأخبار ، وحكايات الأبرار) ولم تخطر له الرياضة ببال . ولم يتعرض للغة والأدب ، ولكنه نبه على أن الطفل يجب أن « يحفظ من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأهله ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الطرف ورقة الطبع ، فان ذلك يغرس فى نفوس الصبيان بنور الفساد » .

والغزالى يُعد الطفل فى الواقع لأن يكون جندياً فى الحياة اذ يحرم عليه كل مظاهر اللين . وان كان لم يغفل عن غايته الأخلاقية حين أوصى بأن يعلم أن الموت متظره فى كل ساعة ، وأن العقل من تزود من دنياه لأخراه . وأرى هذه الوصية خطيرة ، اذ تضعف العزم فى نفوس الأحياء ، ولا ترك للإسلام نفسه جيشاً يحفظ به ثغر ، أو يفتح به قطر ، وما كان الإسلام الا دين الغزاة الفاتحين .

تربيـة البنـات

لم يتكلم الغزالى عن تربية البنات ، وكان عليه أن يمهمنَّ نصيحاً من عنايته . ولكن الرجل تأثر بعصره ، وبقومه ، فقد كانت تربية البنات مما لا يهتم به الأولون .

وسترى حين تتكلم عن حقوق المرأة أنه يحتم على الرجل أن يعلم زوجه ، فان لم يعرف ناب عنها فى سؤال العلماء ، ولكنك سترى كذلك أن هذا العلم الواجب على الرجل لامرأته لا يزيد عن معرفة الفرائض من صلاة وصوم . ومعرفة الفرائض هذه لا تقيد المرأة شيئاً فى الحياة المنزلية ، وهي العبء الملقى على عواتق النساء .

الفصل الرابع

آداب المعلمين

قد رأيت المنهج الذي وضعه الغزالى لتربيه الطفل ، ورأيت ماحظته لبرنامجه التدرسي في المكاب الصغيرة ؟ والآن نفك على رأيه في تربية الطلاب ، ونريد بهم من رأوا الاستزادة من العليم بعد انتهاء ذلك الامد القصير ، الذي أعد للأطفال .

والغزالى كان أستاذًا في المدرسة النظامية ، وكان يختلف إلى درسه مثلثة من التلاميذ ، وكان له بالطبع زملاء ، وكان لهؤلاء الزملاء تلاميذ ، فمن البعيد أن لا تكون هذه الحرفة ألمته البحث في التعليم من حيث انه مهنة ، وهو قد ابلى بمهنته التعليم !

ولقد تكلم الغزالى عن التعليم ، وأطال في كتاب الاحياء ، وتكلم عنه في الاملاء على ما أشكل من الاحياء ، وذكر أنه (أفضل من سائز الحرف والصناعات) وبين وجه هذه الأفضلية بالتفصيل .

وكل ما تقييد به هذه الحرفة فيما يرى أنه يجب أن يقصد بها وجه الله ، ويقول في ذلك : (وأنما المعلم هو المفید للحياة الأخروية الدائمة ، أعني معلم علوم الآخرة ، أو علوم الدنيا على قصد الآخرة ، لا على قصد الدنيا . فاما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك واهلاك نعوذ بالله منه)^(١) .

علوم الدنيا هي في رأيه ما يشمل الطب والحساب والهندسة وتقويم البلدان ، وعلى الجملة كل ما عدا العليم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . فالذى يعلم علوم الدنيا هذه هو بلا شك محترف . ويكتفى أن يقصد بتعليمه الآخرة ، ليكون من الناجين .

١) ص ٦٠ ج ١ .

اضف الى هذا أن الغزالى - لورعه - يشبه العلم بالمال ، فكما أن
لصاحب المال حال استفادة ، وحال ادخار ، وحال انفاق على نفسه ،
وحال بذل لغيره ، وهو أشرف أحواله ، فكذلك لصاحب العلم حال
طلب ، وحال تحصيل ، وحال استبصار ، وحال تبصير ، وهو أشرف
الأحوال .

وبالتبصير هو التعليم . والغزالى لا ينكر أن يكون المرء معلما ، فقد
كان من المعلمين ، وإنما يطالب المعلم بتعليم علوم الآخرة أو علوم الدنيا
على فصل الآخرة ، وسترى فيما يذكر من آداب المعلم عدمأخذ الأجر ،
ولكن هذا لا يقدح في نظره إلى التعليم كمهنة ، فإنه يكتفي أن يدرك
أن التعليم صناعة ، تحتمل الإجاده ، كما تحتمل القصور ، وأنه يجب
على المعلم كيت وكيت ، ليحسن أداء مهمته ، على وجه تافع مقبول .

وقد وضع للمعلم الآداب الآتية :

(١) أن يشفق على المتعلمين ، ويجر لهم مجرى بنيه . ويقول
الغزالى في توابع هذه البنوة : وكما أن حق ابناء الرجل الواحد أن
يتخابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها ، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد
التحاب والتواد .

(٢) أن يقتدى بصاحب الشرع ، صلوات الله عليه وسلم ، فلا
يطلب أجرا على أفاده العلم ، ولا يقصد به جراء ولا شكورا .

(٣) أن لا يدع من تصح المتعلم شيئا ، وذلك بأن يمنعه من التصدى
لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من العلم الجلى .

(٤) أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق ، بطريق التلميح والرحمة ،
لا بطريق التوبیخ ، فإن التصریخ يهتك حجاب الهيئة ، ویورث العجرأة
على الهجوم بالخلاف ، ویهیج الحرث على الاصرار .

(٥) أن لا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراء علمه : فليس

لعلم اللغة أن يصبح في نفس التعلم علم الفقه مثلاً ، بل ينبغي أن يوضع عليه طريق التعليم في غيره . وإن كان مت Kaufala بعدة علوم فينبغي أن يراعي التدريج في ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة .

(٦) أن يقتصر بالتعلم على قدر فهمه ، ولا يلقى إليه ما لا يلينه عقله .

(٧) أن يلقى للمتعلم القاصر الجلى الالائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا الجلى تدققا يدخله عنه .

(٨) أن يعمل بعلمه : فلا يكذب قوله فعله . وهذا الأدب الأخير غير خاص بالعلميين ، ولكنهم أحوج الناس إليه ، وأولاهم به ، إذ كانوا مرشدين ، ومن حسن السياسة على الأقل أن يعمل المرشد بما يقول .

(٩) أن يجعل نفسه كى يعظم فى نفوس طلبه فلا يستصغروه ، ولم يذكر الغزالى هذا فى آداب المعلم . ولكن ذكره استطرادا فى بنى النظافة حيث قال : « كان رسول الله مأمورا بالدعوة ، وكان من وظائفه أن يسعى فى تعظيم أمر نفسه فى قلوبهم كيلا تزدريه نفوسهم . ويحسن صورته فى أعينهم كيلا تستصغره عيونهم . وهذاقصد واجب على كل عالم تصدقى لدعوة الخلق الى الله : وهو أن يرعى من ظاهره ما لا يوجب نفرة الناس عنه » .

(١٠) أن ينظر في نية المتعلم : فإن رأها حسنة علمه ، وإن رآها سيئة أعرض عنه . فلا يجوز فيما يرى الغزالى أن نعلم من نرى في أقواله ، أو أفعاله ، أو مطعمه ، أو ملبيه ، أو مسكنه ، مما يدل على فساد نيته ، وسوء قصده . ولا يكفى فيما يرى الغزالى أن يقول المعلم : إنما أريد نشر العلم ، وللمتعلم بعد ذلك الخيار ، إن شاء أحسن وإن شاء أساء ، بل يشبهه بمن يهب سيفا لقطاع الطريق ، ثم يقول : إنما أريد

السخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة ، وأن أعينه على الجهاد ، فان استعمل .
السيف في الأذى فهو وحده المسئول .

وربما كان يحسن بالغزالي أن ينصح المعلم بذلك الجهد في غزو
الغرائز السيئة التي يراها في تلميذه ، فاما الفتن عليه بالعلم فهو فيما ارى
هروب من الواجب ، وعمل سلبي لا يبني ولا ينيد .

الفصل الخامس

آداب المتعلمين

وعلى المتعلم ما يأتي من الواجبات :

- (١) أن يقدم طهارة النفس من رذائل الأخلاق ومن نوم الأوصاف .
- (٢) أن يقلل علاقته من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن
فأنه مهما توفرت الفكرة قصرت عن درك الحقائق .
- (٣) أن يدع عن نصيحة المعلم اذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق
الحادق .

(٤) أن يحترز في مبدأ أمره عن الاصناف إلى اختلاف الناس فان
ذلك يغير ذهنه ويقترب رأيه ، بل عليه أن يتقن أولاً طريقة أستاذه ، ثم
يصنف بعد ذلك إلى الشبه والمذاهب .

(٥) أن لا يدع فناً من الفنون المحمودة إلا وينظر فيه نظراً يطلع
به على مقاصده وغاياته ، ثم ان ساعده العمر طلب التبحر فيه ، والا اشتعل
بالأهم واستوفاه ، وتطرّف من البقية .

(٦) أن لا يخوض في فن من الفنون دفعه ، بل يراعي الترتيب .

(٧) أن لا يخوض في فن حتى يستوفى الفن الذي قبله ، فان العلوم

مرتبة ترتيبا ضروريا وبعضا طريق الى بعض ، وهذه الطريقة فيما أرى
انما تصلح في الفنون التي كان يعرفها الغزالي اذ ذاك ، فمن الواضح ان
الفقه مثلا طريق للأصول ، ولكن هل يصح لدينا الآن أن المنطق طريق
الحساب ، أو أن النحو طريق الجغرافيا ، ووصف الشعوب ؟

(٨) أن يعرف أن شرف العلم إنما يرجع إلى شرف الثمرة أو قوة
الدليل فعلم الدين فيما يرى الغزالي أشرف من علم الطب ، لأن ثمرة
الأول السعادة الأخروية ، وثمرة الثاني السعادة الدنيوية والآخرة خير
من الأولى . وعلم الحساب أشرف من علم النجوم لقوة أداته . وعلم
الطب أشرف من علم الحساب ، لأن الثمرة أولى من قوة الدليل .

وربما كن يحسن أن يتبع الغزالي أن للحساب ثمرة لا تقل
 شيئاً عن وثاقة دليله ، ولكن عذرنا أنه عاش في عصر قد غاب عن إنسانه
أنه خلق لتعمير الوجود .

الباب العاشر

في الحقوق والواجبات

الحق هو ما لك ، والواجب هو ما عليك . فتقول : من حقى أن
أتعلم ، ومن واجبى أن أعمل بما أعلم .
ولكن الغزالي يضع كلمة حق ، موضع كلمة واجب . وربما
استغنى عنهما جمِيعاً بكلمة أدب .
وقد فصل الغزالي حقوق المرأة نحو نفسه ، ونحو ربه ، ونحو
أخيه ، ونحو جاره ، ونحو والديه ، ونحو أبنائه ، وبين آداب التاجر ،
والصانع ، والمسافر ، وكاد يستوعب ما للمرء ، وما عليه .
ونحن ذاكرون خلاصة تمثل وجهة نظره في الحقوق والواجبات ،
لليعرف القارئ اتجاه الفكر الإسلامي في ذلك الحين .

- ١ -

واجب المرأة نحو نفسها

يجب على المرأة فيما يرى الغزالي أن يجتهد في أن لا يراه مولاها
حيث نهاء ، وأن لا يفقده حيث أمره ، ولن يقدر على ذلك إلا بتوزيع
أوقاته ، وترتيب أوراده ، من صباحه إلى مسائه .
ويحسن فيما يرى الغزالي أن يستيقظ المرأة قبل طلوع الفجر ،
وأن يكون أول ما يجري على لسانه ذكر الله ، وأن لا يترك السواك :
فإنه مطهرة للثم ، ومرضاة للرب ، ومسخرة للشيطان .

ولا يفوتنا أن نقرر أن عناسية الغزال بالحث على ما تدعوه إليه
الشريعة الإسلامية من الوضوء والغسل وما اليهما من انواع الطهارة ،
انما هو دعوة صريحة إلى الحياة . فان الاسلام بفرضه الوضوء عند كل
صلوة ، والغسل عند الاحتلام والواقع ، انما يرفع عن الناس اصار الباطلة
والخمول .

ولا يعلم الا الله ما كانت تصل اليه حالة الشرق لو لم يتشر في
الاسلام ، فإنه يعيش على أهله ما فات أكثرهم من سلامة النوم ، اذ
لا يعرفون للنظافة قيمة ، ولا يقيّمون للطهارة وزنا . حتى تجد من
العلماء من ينص على أن نية النظافة تقلل من قيمة الوضوء ، لأن الطهارة
في نظرهم عبادة اليه ، لا تتعلق بها الأغراض ، وسبحان من وهب
المقول !!

غير أننا لا نوافق الغزالى فيما ذكر من آداب النوم ، اذ يحضر الماء
على أن ينام على يمينه كما يضطبع الميت في لحده ، وأن يتذكر أن النوم
مثل الموت ، واليقطة مثلبعث ولعل الله يقبض روحه في ليلته ، وان
ينام على طهارة ، وأن تكون وصيته مكتوبة تحت رأسه . الخ .

وما كنت لأُوافق الغزالى على ذلك ، لأنه يجب اقصاء فكرة الموت
عن الأحياء فإن التفكير في الموت مدعاة إلى الزهادة والجمود . وهو كذلك
نقص في العزائم ، وخمود في القرائح .

وهناك سبل أخرى غير الموت للحضر على الطبيات ، فلماذا لا تزرين
الخير للناس ، بيان ما يفعل الخير في رفع الأقدار ، وسمو النفوس ؟
وقد فصل الغزالى آداب الماء نحو نفسه في أكثر كتبه في الأخلاق .
ولا عيب عليه غير الإفراط في تحثير الدنيا ، وهو عيب فظيع ، فان الدنيا
أجل وأعظم مما يتصور هو وأمثاله من يرون الموت من جملة الارزاق
وهل كان الله عابثا يوم خلق هذه الدنيا الجميلة ، التي رميتم
عشاقها بالأنم والفسق ؟

واهب الماء نحو اخوانه في الدين

وضع الغزالى عدة آداب للرجل مع أخيه فى الدين ، بعضها خاص
بـكيفية المعاملة ، والآخر خاص بتنقية النفس من الضغائن وجزء منها
ينتسب ب التربية المرأة على كف الأذى واسداء المعروف .

ويخطر بالبال هذا السؤال : ألا يرى الغزالى وجوداً لغير المسلم ؟
وألا فما رأيه في معاملة من ليسوا بـمسلمين ؟

وفي جواب هذا السؤال نذكر ما جاء في أحدى فتاويه^(١) من أن
الذمى كالسلم فيما يرجع إلى الإيذاء . لأن الشرع عصم بهم وأموالهم .
فيفهم من هذا أن الذمى والمسلم يعاملان معاملة تكاد تكون واحدة ، وإن
لم ينص على ذلك في الأحياء .

والى القارئ خلاصة ما على المسلم لأخيه من الواجبات :

(١) أن لا يؤذى أحداً منهم بفعل أو قول .

(٢) أن يتواضع لكل منهم ، ولا يتكبر عليه .

(٣) أن لا يزيد في الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام ، مهما غضب
عليه .

(٤) أن يحسن إلى كل من قدر على الاحسان إليه منهم ، بلا
تمييز .

(٥) أن لا يدخل على أحد منهم إلا باذنه ، بل يستأذن ثلاثة فإن لم
يؤذن له انصرف .

(٦) أن يخالق الجميع بخلق حسن ، ويعامل كل امرىء بحسب

(١) انظر ص ١٥ ج ١ من شرح الزبيدي .

طريقته : فإنه ان أراد لقاء الجاهل بالعلم ، والأمي بالفقه ، والعيى باليان به آذى وتأذى .

- (٧) أن يوقر المشايخ ، ويرحم الصياغ .
- (٨) أن يكون مع الدافع مستبشرًا طلق الوجه رقيقة .
- (٩) أن لا يعد مسلماً بوعد إلا وفيه به .
- (١٠) أن ينصف الناس من نفسه ، فلا يعاملهم إلا كما يحب أن يعاملوه .
- (١١) أن يزيد في توقيفه من تدل هيئته وثيابه على علو منزلته .
- (١٢) أن يصلح ذات البين مهما وجد إلى ذلك سبلاً .
- (١٣) أن يستر عورات المسلمين كلهم . وقد استشهد الفزالي بهذا الحديث البديع : (يا معاشر من أمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ! لا تقابوا الناس ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو كان في جوف بيته) .
- (١٤) أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة ، ويسعى في قضاء حاجته بما يقدر .
- (١٥) أن يصون عرض أخيه المسلم ، ونفسه ، وماله ، عن ظلم غيره ، مهما قدر . ويرد عنه ، ويناضل دونه ، وينصره ، قياماً بأخوة الإسلام .
- (١٦) أن يتقدى مواضع التهم ، صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ، ولأستانهم عن الغيبة .
- (١٧) أن يجامن أخاه ويواسيه إذا بلى بشر .
- (١٨) أن يجتنب مخالطة الأغبياء ، ويختلط بالفقراء والمساكين . ويرى القارئ في هذه الحقوق شيئاً من التكرار . وهذا أيضاً

ـ مثل وجهة الفزالي في الأخلاق : فهو كثير الحذر ، شديد الحيطة ، ولا يزال بالمعنى يردد في كتبه ، بل في الكتاب الواحد حتى يرسخ في نفس المستفيد .

- ٣ -

حقوق الجوار

ويرى الفزالي أن الجوار يقتضي حقاً وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام، ف يستحق الجار المسلم ، ما يستحقه المسلم وزيادة ، ويرى قوله عليه السلام : (الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق) فالجار الذي له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذو الرحم : فله حق الجوار ، وحق الإسلام ، وحق الرحم ؟ وأما الذي له حقان فالجار المسلم : له حق الجوار ، وحق الإسلام ؟ وأما الذي له حق واحد فالجار المشرك) .

ويقول تعليقاً على هذا الحديث : فانظر كيف أثبت للمشرك حقاً بمجرد الجوار !

وقد وضع للجار ما يأتي من الواجبات :

- (١) أن يبدأ جاره بالسلام .
- (٢) وأن لا يطيل معه الكلام .
- (٣) وأن لا يكثر عنه السؤال . ولا يتبعه النظر فيما يحمل إلى حداته .
- (٤) وأن يعوده في المرض .
- (٥) وأن يعزيه في المصيبة ، ويقيم معه في العزاء .

- (٦) وأن يهشه في الفرح ، ويظهر الشركة في السرور معه •
 (٧) وأن يصفح عن زلاته ، ولا يسمع فيه كلاما •
 (٨) وأن لا يطلع من السطح على عوراته ، بل يستر ما ينكشف له •
 (٩) وأن لا يضايقه بوضع الجذع على جداره •
 (١٠) وأن لا يصب الماء في ميزابه ، ولا يطرح التراب في فنائه •
 (١١) وأن لا يضيق طريقه إلى الدار •
 (١٢) وأن ينشه من صرعته إذا نابتة نائبة •
 (١٣) وأن لا يغفل عن ملاحظة داره في غيته •
 (١٤) وأن يغض بصره عن حرمته ، ولا يديم النظر إلى خادمه •
 (١٥) وأن يتلطف لولده في كلمته •
 (١٦) وأن يرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه •
- يقول الغزالى : هذا إلى جملة الحقوق التي ذكرناها للمسلمين \Rightarrow
 ولم يستثن المشرك في جملة هذه الحقوق ، ولكنك رأيت أنه خص
 الذميين بهذه المساواة ، إذ كان ايمانه الحربى عنده غير حرام •

- ٤ -

حقوق الأقارب

ثبت حق المشرك بالجوار • وكذلك يثبت حقه بالقرابة • ويروى
 الغزالى في هذا أن أسماء بنت أبي بكر قالت : « قدمت على أمى ، فقلت
 يا رسول الله : إن أمى قدمت على وهى مشركة ، فأصلحها ؟ قال نعم • وفي
 روایة : أَفَأَعْطِيهَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، صَلِّهَا » •

ومن الواضح أن القريب المسلم أو الجار يثبت له فوق حق القرابة
 ما يثبت بأخوة الإسلام وبالجوار من الحقوق •

- ٥ -

حقوق الوالدين

يقول الغزالى : كيفية القيام بحق الوالدين تُعرف مما ذكرنا في حق الاخوة ، فان هذه الرابطة أكدر من الاخوة ، بل أكثر العلماء على أن طاعة الآبوبين واجبة في الشبهات ، وإن لم تجب في الحرام الممحض ، لأن ترك الشبهة ورع ، ورضاء الوالدين حتم .

ويرى الغزالى ان ليس للإنسان أن يبادر بالحج وهو فرض الا باذن والديه ، لأن المبادرة نفل . وكذلك ليس له أن يخرج لطلب العلم إلا باذنهما ، ويستثنى علم الفرائض من الصلاة والصوم اذا لم يكن في البلد من يعلمه . وليته عم هذا الحكم في جميع العلوم الضرورية في الحياة .

وينقل الغزالى عن رسول الله أن لزوم الوالدة أفضل من الجهد وهو يقدم الوالدة في البر على الوالد .

- ٦ -

حقوق الأبناء

يجب على الوالد :

(١) أن يسمى ابنه اسماً حسناً .

(٢) وأن يؤدبها إذا بلغ ست سنين ، فإذا بلغ تسع سنين عزل فراشه ، فإذا بلغ ثلاط عشرة سنة ضربه على الصلاة ، فإذا بلغ ست عشرة سنة زوجه .

(٣) وأن يعيشه على بره ، فلا يحمله على العقوق بسوء عمله .

(٤) وأن يسوى بين أولاده .

(٥) وأن يبدأ بالإناث إذا حمل لأولاده طرفة من السوق .

- ٧ -
واجب التجار

وعلى التجار فيما يرى الغزالي ما ياتى من الواجبات :

(١) ان لا يحتكر ، فيدخل الطعام يتضرر به علاء الاسعار وهذا مطرد
في اجناس الافواه . أما ما ليس بقوت ، ولا هو معين على القوت كالادوية
والعقاقير ، والزعفران وامثاله ، فلا يتعدى النهي اليه وان كان مطعوما .
واما ما يعين على القوت كاللحم والدواكه وما يسد مسد القوت في بعض
الاحيان وان كان لا يمكن المداومة عليه فيه نظر . ومن العلماء من طرد
التحرير في السمن والمسل والشريح والجبن والزيت وما يجري مجراءه
على أن احتكار الأطعمة جائز اذا استغنى الناس عنها ولم يخش من
احتقارها قحط . وبقدر درجات الاضرار تتفاوت درجات الكراهة
والتحرير .

وكان على الغزالي أن يبين حكم احتكار الأدوية اذا وجد وباء ، أو
انتشر مرض من الامراض . فقد تصبح الأدوية أهم من الاطعمة ، ويسمى
احتقارها من عظام الامور ^(١) .

(٢) ان لا يتنى على السلعة بما ليس فيها .

(٣) ان لا يكتنم من عيوبها وخفايا صفاتها شيئاً .

(٤) ان لا يكتنم في وزنها ومقدارها شيئاً .

(٥) ان لا يكتنم من سعرها ما لو عرفه العامل لامتنع عنه .

(٦) ان لا يروج الزيف من الدرارهم أثناء النقد ، اذ يستضرر به

(١) ليس بمستحسن على الانسان ان يفهم ذلك من كلام الغزالي . اذ هو يدبر كلامه على
محور واحد هو الرفق بالناس ورفع المرج عنهم وعدم ارهاقهم بما يكون فيه مشقة
عليهم .

المعامل ان لم يعرف ، وان عرف فسيروجه على غيره ٠ وهكذا دواليل ، ومن هنا وجب على التجار تعلم التقد ، لا ليستقصى لنفسه فحسب ، ولكن ثلاثة يسلم الى مسلم زيفا وهو لا يدرى فيكون آثما بتقصيده فى تعلم ذلك العلم ٠

(٧) أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به في العادة ، فأما أصل المغابة فمأذون فيه ، لأن البيع للربح ، ولا يمكن إلا بغبن ما ، ولكن يراعى فيه التقريب ٠

(٨) أن يحسن نيته في ابتداء التجارة ، فينوى بها الاستعفاف عن السؤال ، وكف الطمع عن الناس ، والقيام بكفاية الأولاد ٠

(٩) أن يقصد القيام في تجاراته أو صنعته بفرض من فروض الكفايات ، فإن الصناعات والتجارات لو تركت لهلك أكثر الناس ٠

(١٠) أن لا يكون شديد المحرص على السوق والتجارة ، بأن يكون أول داخل في السوق وأخر خارج منه ، بل عليه ذلك ، وعليه أن يركب البحر في التجارة ، وأن يسلك إلى الربح كل سبيل ٠ والربح وال عمرة ، والغزو ، كل أولئك من وسائل الحياة ٠ ولكن أكثر الناس لا يفقهون ٠

هكذا يرى الغزالي ٠ وهذه منه نزعة ضوفية لا تختلف مع واجب الرجل الأخلاقي في الحياة الاجتماعية ٠ فلتاجر أن يكون أول داخل في السوق وأخر خارج منه ، بل عليه ذلك ، وعليه أن يركب البحر في التجارة ، وأن يسلك إلى الربح كل سبيل ٠ والربح وال عمرة ، والغزو ، كل أولئك من وسائل الحياة ٠ ولكن أكثر الناس لا يفقهون ٠

(١١) أن لا يقتصر على اجتناب الحرام ، بل يتقد مواضع الشبهات ، ومقطان الريب ، ولا ينظر إلى الفتوى ، بل يستقى قلبه ٠ وإذا حملت إليه سلعة رابه أمرها سأله عنها حتى يعرف والا أكل الشبهة ٠

(١٢) أن يراقب جميع مجارى معاملته مع كل واحد من معامليه ويُعد جوابه ل يوم الحساب والعقاب ٠

(١٣) أن يقبل من يستقبله ، فإنه لا يستقبل إلا متندم مستضر بالبيع ،
ولا ينبغي أن يكون سبب استضرار أخيه .

(١٤) أن يخص في معاملته جماعة من الفقراء بالنسبيّة ، وهو في
الحال عازم على ألا يطالعهم إن لم تظهر لهم ميسرة .

(١٥) أن يحسن في استيفاء الثمن ، وسائل الديون ، فتسامح مرة ،
ويمهل مرة ، ويحط البعض مرة .

وبعد سرد هذه الآداب ، لا يفوتنا أن ننوه بعنية الغزالي بصالح الهيئة
الاجتماعية ، فإن التجار الذي يتأنب بهذه الآداب تمسى تجارتة ولا شك
ربحا عاماً للناس ، ويصبح خادماً لأهل بلده من حيث لا يعلمون .

هذا وجه الجمال في هذه الآداب التي خص بها التجارة وما انكر أن
فيها جانبان من الضعف باعتقاد التجار بكثير من التكاليف الظاهرة ، والمستور ،
في حين أنه يجب تمرينه على المخاطرة في سبيل الحياة ، ولكن الغزالي
لا يعدل بالسلامة شيئاً والسعيد عنده من نجا بدينه ، وإن خسر دنياه .

- ٨ -

آداب المسافر

وضع الغزالي فصولاً مطولة عن السفر ، وفوائده ، وآفاته ، وعدده
تنوعاً من الحركة والمحافظة . وبين الباعث عليه من هرب أو طلب ، وأطال
في ذلك وأجاد .

نحن ذاكرون هنا طائفه مما وضع للمسافر من الآداب :

(١) أن يبدأ برد المطالب ، وقضاء الديون ، وإعداد النفقه لمن تلزمـه
تفقته وبرد ما عنـده من الودائع ، ولا يأخذ لزـاده إلا الحال الطـيبـ،
وليأخذ قدرـاً يوسعـه على رفـقـائـه .

- (٢) أن يختار رفيقا ، فلا يخرج وحده ، ول يكن رفيقه من أهل الدين ، فان المرأة على دين خليله .
- (٣) أن يودع رفقاء الحضر ، والأهل ، والآصدقاء .
- (٤) أن يرحل من المنزل بكرة ، فان الخير في البكور .
- (٥) أن يجعل أكثر سيره بالليل ، فان الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار .
- (٦) أن يحتاط بالنهار ، فلا يمشي منفردا خارج القافلة ، فربما ينقطع ، أو يفتال ، وأن يتحفظ عند النوم بالليل .
- (٧) أن يرافق بالدابة فلا يحملها ما لا تطيق ، ولا يضر بها في وجهها ، وأن يرتوحها بالنزول عنها غدوة وعشية .
- (٨) أن يحمل معه مرآة ، ومكحلة ومراضا ، ومسواكا ومشطا ، وقارورة ، وركوة ، وجللا .
- (٩) أن ينوي في دخول كل بلدة أن يرى شيوخها ، ويجهد في أن يسمع من كل والحد كلمة ، أو أدبا يتتفع به .
- (١٠) أن لا يزيد على ثلاثة أيام في زيارة أخ له ، وإذا زار أحد أساتذته في سفره ، فلا يقم عنده أكثر من يوم وليلة .
- (١١) أن يرجع من سفره إذا رأى في نفسه نقصانا عما كان عليه في الحضر .
- وأحب أن يتبعه القارئ إلى دقة هذا الأدب الأخير .

- ٨ -

حقوق المرأة

لا يرى الغزالي أن المرأة تساوى الرجل ، بل يرى أن الرجل سيد المرأة . ويقول فيمن أطاع زوجه ، وملكتها نفسه « أنه عكس القضية » .

وأطاع الشيطان لما فال : « ولأمرنهم فليغرين خلق الله » + أذ حق الرجل،
أن يكون متبوعا لا تابعا + وفدي سمي الله « الرجال قوامون على النساء » ،
وسمى الزوج سيدا فقال : « وألفيا سيدها لدى الباب » + فإذا انقلب السيد
مسخرا فقد بدل نعمة الله كفرا ^(١) .

ولم يقتصر الغزالى على ذلك ، بل حدم على طبيعة المرأة حدما اقسى
من الصخر ، فقد قال فى معرض الحديث عن ادب النساء (والغالب عليهم
سوء الخلق وركاكة العقل) واستدل بحديث لا اعلم مبلغه من الصحة ،
وهو قوله عليه السلام : (مثل المرأة الصالحة دلت الغراب الاعصم بين
مائة غراب) .

والىك جملة ما وضع الغزالى للمرأة من الحقوق :

اولا - على الرجل ان يحسن الخلق معها ، وان يتحمل الاذى منها
ترحما عليها لقصور عقليها . ويقول الغزالى : « واعلم انه ليس حسن
الخلق مع المرأة نف الاذى عنها ، بل احتمال الاذى منها ، والحلم عند
طيشها وغضبها » .

ثانيا - أن يزيد على احتمال الاذى بالمداعبة ، والمزاح ، والملاءعة ،
فهي التى تطيب قلوب النساء . ويقول الغزالى : « وفدي دان رسول الله
يمزح معهن ، وينزل الى درجات عقولهن في الاعمال والاخلاق » وهذا
تأكيد لرأيه فى طبيعة المرأة .

ثالثا - الاعتدال فى الفيرة ، فلا يتغافل الرجل عن مبادئ الأمور

(١) ان النساء يغلب عليهن الزجاج الصبى . فمن يتأثرن بالتأله من الامور ويجلبن من
المهوة الصغيرة امرا خطيرا وبصیرن الحبة من مخالفتهن قبة وبينن علال الشناق على
أوهن اساس . وهذا أمر لا يعرفه الا مجريب ممارس لأحوال الزوجات وبخاصة من
كان لهن في البيت نظائر ومنافسات كزوجة أخي الزوج وأخته ونحو ذلك من أمه
زوج . وهكذا فيهاك الشناق الدائم والخصام الذى لا ينتهي . ولا دواء لذلك سوى
أن يكون الزوج قاهر الحكم ، ناند الكلمة ، مطاع الامر ، فإذا ضعف او وهن
فلا انقضاض لشقاوة البيت .

التي تخشى غوايدهما ، ولا يبالغ في اساءة الظن ، والتعنت وتجسس
البواطن .

رابعا - الاعتدال في النفقه ، فلا ينبغي أن يقترب عليها في الإنفاق ،
ولا ينبغي أن يسرف ، ولا ينبغي ترك الملوى بالكلية ، وينبغي أن يأمر
الرجل أهله بالتصدق ببقايا الطعام ، وما يفسد لو ترك . وللمرأة أن
تفعل ذلك بحكم الحال من غير إذن الزوج . ولا ينبغي أن يستثير الرجل
عن أهله بماكول طيب ، فان ذلك ينافي المعاشرة بالمعروف .

خامسا - على الرجل أن يعلم زوجه أحكام الصلاة ، فان لم يعرف
ناب عنها في سؤال العلماء ، وليس لها أن تخرج لطلب العلم ما دام الزوج
لم يقصر في تعليمها الفرائض - فان قصر فعلها الخروج للاستفادة ، بل
عليها ذلك ، ويعصى الرجل بمنعها . ومتى تعلمت الفرائض فليس لها أن
تخرج لتعلم فضل الا برضاه . وللرجل الحق في أن لا يدخل عليها
الرجال ، وان يمنعها من الخروج الى المساجد والأسواق .

وهنا نلتفت النظر الى أن الفزالي يقرر ويلح في تحريم خلوة الرجل
بالمرأة الأجنبية ، ولم يفرق بين العلماء وغير العلماء ، والمرأة العجوز فقط
هي التي يجوز لها عنده زيارة المساجد وان خالف ذلك بعض الشيء
ما كان على عهد رسول الله . ويؤكد يجم بـأن النبي لو شاهد أهل عصره
لشدّد في التضييق على المرأة .

سادسا - اذا كان له نسوة فينبغي أن يعدل ، فإذا خرج الى سفر
وأراد استصحاب واحدة أقرع بينهن ، والعدل واجب في العطاء والمييت ،
واما في الحب والواقع فهو تكليف بما لا يطاق .

سابعا - اذا وقع بين الزوجين خصم ولم يتلتم أمرهما ، فان كان من
جانبهما جميعا ، أو من الرجل فلا بد من حكمين : أحدهما من أهله
والآخر من أهلهما ، لينظرا بينهما ويصلحا أمرهما ، وليس للمرأة أن

تتوى تأديب الرجل حين يكون الخصم من جانبه لثلا سلط فلا يقدر على اصلاحها كما يقول الغزالى .

وأما اذا كان النشوز من المرأة خاصة ، فللرجل أن يؤدبها ، ويحملها على الطاعة قهراً ، ولكن ينبغي أن يتدرج في تأديبها . فيقدم أولاً الوعظ ، والتحذير ، والتخييف ، فإن لم ينجح أولاًها ظهره في المضجع ، وانفرد عنها بالفراش ، وهجرها وهو في البيت معها من ليلة إلى ثلاثة ليال ، فإن لم ينجح ذلك ضربها ضربا شديرا مبرح بحيث يؤلمها ، ولا يكسر لها عظاما ، ولا يدمي لها جسما ، ولا يضرب وجهها فإن ذلك منهى عنه .

ثامنا - أن ينظر الرجل في حاجة امرأته إلى التحسين ، فإن تحسينها واجب عليه . وللغزالى في هذا الموضوع كلام كله سذاجة : اذ تراه يضع طائفة من الأدعية يقوم بها الرجل عند الوفاع ، حتى ليذكر أن بعض أصحاب الحديث كان يكبر حتى يسمع أهل الدار صوته !! وما أدرى كيف تصلح هذه اللحظة للأدعية والأوراد ، وما إلى ذلك مما يضعف الشهوة ، ويبعث على الخمود !

تاسعا - الطلاق مباح ، ولكنه ايماء . ولا يباح للرجل ايماء المرأة إلا بجنائية من جانبها أو ضرورة من جانبها . ومهما آذت زوجها أو بذلت على أهله فهي جانية ، وكذلك مهما كانت سيئة الخلق أو فاسدة الدين . ويرى الغزالى أن حق الوالد مقدم على حق الزوجة ، فإذا كرهها الوالد لفرض غير فاسد فقد جاز الطلاق . وإن كان الأذى من الزوج فلها أن أن تفتدى بمال ، ويكره للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى ، فإن ذلك اجحاف بها وتحامل عليها وتجارة على البعض . وعلى الزوج أن يتلطف في التعذر بتطبيق زوجته من غير تعنيف واستخفاف . وأن يطيب قلبها بهدية على سبيل العجبر والامتناع ، وأن لا يُمشى سرها لا في الطلاق ولا عند النكاح .

وما سلف بيانه ، نعرف أن الغزالى لم يفكر في المرأة الا من حيث
هي زوجة ، فلم يذكر شيئاً عن حقوقها الاجتماعية ، ولم يتكلّم عن تعليمها
قبل الزواج ، ولم يسمح للمتزوجة بشيء من العلم أكثر من الفرائض ،
وهي غاية بسيطة بالطبع ، لأن تعلم الفرائض لم يكن موضع خلاف .
وكل هذا نتيجة محتملة لرأيه في طبيعة المرأة ، إذ كانت عنده في مقام
التابع ، ومن طاعة الشيطان أن تصبح في مقام المتبوع !

٦ - الرفق بالمرأة

ولم يكتف الغزالى بهذه الحقوق في صيانة المرأة ، بل حض الرجل
على الرفق بها في كل حال ، فذكر في ص ١٢١ من كتابه «التبير المسبوك»
أن من أحب أن يكون مشفقاً على زوجته رحيمها بها ، فليذكر أن المرأة
لا تقدر أن تطلقه ، وهو قادر على طلاقها متى شاء ، وأنها لا تقدر أن
تأخذ شيئاً بغير اذنه ، وهو قادر على ذلك وأنها ما دامت في حياله لا تقدر
على زوج سواه ، وهو قادر على أن يتزوج عليها ، وأنه لا يخافها وهي
تتغافل ، وأنها تقنع منه بطلاقه وجهه ، وبالكلام اللين ، وهو لا يرضى
بجميع أفعالها ، وأنها تفارق أمها وأباها وبجميع أقاربهما لأجله ، وهو
لا يفارق لأجلها أحداً ، وأنه يقدر أن يتسرى ويختص بالجواري دونها ،
 وأنها تخدمه دائماً وهو لا يخدمها ، وأنها تتلف نفسها إذا كان مريضاً
وهو لا يفتن لها ولو مات .

والأحظ أن هذه النصيحة الشعرية تفترض أن يكون الرجل
مسطراً على المرأة ، وأنها كالمحمل الوديع . ومن الواضح أن الرجل
لا يكون دائماً على هذه السيطرة ، والمرأة لن تكون دائماً بهذه الوداعة :
ولكن عذر الغزالى في اطلاق هذا النصح ، أن الغالب وقوع هذه الحال ،

قال رجل في الغالب يأمر وينهى ، والمرأة تسمع وتطيع ، وما عدا ذلك
شذوذ ، وهم لا يضعون القواعد للشواذ !

والذى لا شك فيه ، من بين ما قال الفزالي ، أن الرجل يملك رقبة
المرأة ، ويستطيع أن يتزوج من غيرها إن شاء ، ويتصرف في البيت بلا
رقيب ولا حسيب ، وأن المرأة تركت من أجله أمها وأباها وأقاربها ، وهو
لم يفارق لأجلها أحداً من العالمين .

- ١٠ -

واجبات المرأة

النکاح نوع رق – كما يقول الفزالي – فالزوجة رقيقة الزوج ،
وعليها طاعته في كل ما يطلب ، مما لا معصية فيه . واليك خلاصة ماعليها
من الواجبات :

(١) أن تكون قاعدة في قصر بيتها ، ملزمة لمنزلها ، لا يكثر صعودها
وطلاقها على سطوح الجيران .

(٢) وأن تكون قليلة الكلام بجيرانها ، ولا تدخل عليهم إلا في حال
يوجب الدخول .

(٣) وأن تحفظ بعلها في غيته وحضرته ، وتطلب مسرته في جميع
أمورها ، ولا تخونه ، لا في نفسها ولا في ماله .

(٤) وأن لا تخرج من بيتها إلا باذنه ، فان خرجت باذنه فمحظية
في هيئة ربة ، تطلب الموضع الخالية ، دون الشوارع والأسواق ، محترزة
من أن يسمع غريب صوتها أو يعرفها بشخصها .

(٥) وأن لا تعرف الى صديق بعلها في حاجاتها ، بل تستقر على
من تظن أنه يعرفها أو تعرفه .

(٦) وإذا استأذن صديق بعلها على الباب ، وليس البعل حاضراً
لم تستفهم ولم تعاوده في الكلام ، غيره على نفسها وبعلها وأن تقنع من
زوجها بما رزقه الله .

(٧) وأن تقدم حقه على حقها وحقوق سائر أقاربها .

(٨) وأن تكون متنظفة في نفسها مستعدة في جميع الأحوال ليتمتع
بها إن شاء .

(٩) وأن تشفع على أولادها .

(١٠) وأن تكون قصيرة اللسان عن مراجعة الزوج وسب الأولاد .

(١١) وأن تقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها .

(١٢) وأن لا تذهب إلى الحمام ، إلا إذا لم يكن في البيت مستحم
وكان نساء أو مريضة ، وإن دخلت فلا تدخل إلا بمئزر سابق .

- ١١ -

آداب الكتاب

ومما يوضح بعض الجوانب في تصور الغزالي للحياة ، وحرصه على
النظام ، ما وضعه من آداب الكتاب ، فقد تبين بذلك وجهة نظره فيما
ينبغي أن يكون عليه الكاتب من الخبرة والكفاية ، ولم تنشأ إلا مثل ذلك
كليات الصحافة في العهد الحديث .

ويرى الغزالي أن الكاتب يجب عليه :

(١) أن يعرف بعد الماء وقربه تحت الأرض .

(٢) وأن يعرف زيادة الليل والنهار ، ونقصانهما ، في الصيف
والشتاء ، ومسير الشمس ، والقمر ، والنجوم .

- (٣) وأن يعرف الحساب ، والهندسة ، والقويم .
- (٤) وأن يعرف اختيارات الأيام ، وما يصلح للمزارعين .
- (٥) وأن يعرف الطب والأدوية .
- (٦) وأن يعرف دين الشمال والجنوب .
- (٧) وأن يعرف الشعر والقوافي .
- (٨) وأن يكون حفيظ الروح ، طيب اللقاء .
- (٩) وأن يحسن برى القلم وقطه ، ورفعه وحطه ، كما قال !
- (١٠) وأن يحرس نفسه من طغيان قلمه .
- (١١) وأن يظهر بشبا قلمه ما يجول في نفسه .
- (١٢) وأن يعرف ما يمد من الحروف .
- (١٣) وأن يبين الخط ، ويعطي كل حرف حقه .

وقد وضع الغزالى فوق ما تقدم صورة لما يمد أو يقصر من الحروف ، ووضع طريقة لبرى الأقلام العربية ، والفارسية ، والعبرية ، وما يجب أن يكون عليه المقط من الصلابة ، وما ينبغي أن يتماز به القرطاس من التساوى والصقالة ، وما يحسن من تشابه صورة الأحرف ، ليقرب الخط من العجمال . وكل ما تقدم هو بالطبع صورة لرأيهم اذ ذاك فيما ينبغي أن يكون عليه الكتاب .

- ١٣ -

واجبات الملوك

يتكلم الغزالى كثيرا عن « الأمراء والسلطين » ويدرك ما لهم وما عليهم ، وتتجدد في حقوق المحتسب من هذا الكتاب ما وضعه من الفرق بين ارشاد العامة ، وارشاد الأمراء والسلطين كما يقول ، وقد وضع لهم

كتابا خاصا سماه « التبر المسبوك في نصيحة الملوك » ، وهو الذي قدمه للسلطان محمد بن ملك شاه ، وقد فصلنا رأينا فيه ، فلا نعود اليه الآن .

ويستحسن الغزالي أن يقسم الملك تهاره إلى أربعة أقسام : قسم لعبادة الله وطاعته . وقسم للنظر في أمور السلطنة ، وانصاف المظلومين ، والجلوس مع العلماء والفقلاع لتذليل الأمور ، وسياسة الجمورو ، وتنفيذ الأوامر ، والمراسيم ، والكتابة ، وانفاذ الرسل ، وقسم للأكل والنوم . والتزويد من الدنيا ، وأخذ الحظوظ من الفرح والسرور . وقسم للصيد . ولعب الكرة والصوبلان وما أشبه ذلك .

وينصح الغزالي للملك بأن لا يستغل دائما بـ **الشطرنج** ، والترد ، وشرب الخمر وضرب الكرة والصيد ، لأن هذه تمنعه عن الأعمال ، ولكل عمل وقت ، فإذا فات عاد الربح خسارانا .

ويفهم من هذا أن الملك يجوز له شرب الخمر مع الأقلال ، ولكن هذا ينافي حرص الغزالي واصراره على حرب المسكرات ، فلا يبعد أن تكون هذه الكلمة دست أو وقعت سهوا في كتاب « التبر المسبوك » .

ويجب فيما يرى الغزالي أن يراعي الملك ما يأتي من الأصول :

(١) أن يعرف قدر الولاية وخطورها ، وما يكون من سعادته إذا أحسن ، ومن شقائه إذا أساء .

(٢) أن لا يقنع برفع يده عن الظلم . بل يهذب غلمانه ، وأصحابه . وعماله ، ونوابه ، فإنه عن ظلمهم مسئول .

(٣) أن لا يتكبر ، فإن التكبر داعية الغضب والانتقام .

(٤) أن يفرض نفسه واحداً من الرعية في كل ما يعرض عليه . فما لا يرضاه لنفسه لا ينتهي أن يرضاه لأحد من المسلمين .

(٥) أن لا يشغل بنوائل العبادة ، وببابه أحد من أرباب الحوائج .

(٦) أن لا يعود نفسه الاشتغال بالشهوات : من لبس الثياب الفاخرة ، وأكل الأطعمة الطيبة ؟ بل يتعدى القناعة في جميع الأشياء ، فلا عدل بلا قناعة .

(٧) أن يتتجنب الشدة ، والعنف كلما أمكنه الرفق .

(٨) أن يجتهد في أن ترضى عنه الرعية بموافقة الشرع .

(٩) أن لا يطلب رضا أحد من الناس بمخالفة الشرع .

(١٠) أن يعين رعيته إذا وقعت في ضائقة ، وأن ينفق عليهما من خزائنه ، إذا وقعت في قحط أو غلاء ، لأن في ذلك استبقاء لطاعتهم ودرءاً لطامع المحتكرين .

والغزال لا يستنكرون قسوة الملك ، إذا لؤمت الرعية ، بل يدعون إلى أن تهابه الرعية وهو بعيد ، ويقول : « وسلطان هذا الزمان يجب أن تكون له أوفي سياسة ، وأتم هيبة ، لأن أناس هذا الزمان ليسوا كالمقددين ، فان زماننا هذا زمان ذوى الواقحة والسفهاء ، وأهل القساوة والشحنة . وإذا كان السلطان والعياذ بالله بينهم ضعيفاً أو كان غير ذى سياسة فلا شك أن ذلك يكون سبب خراب البلاد ، وأن الخلل يعود على الدنيا والدين » ^(١) .

والسياسة في كلامه هذا معناها العزم في شدة وقسوة ، ليتتهى المفسدون .

- ١٣ -

حقوق الوزراء

وعلى الملك أن يعامل الوزير بثلاثة أشياء :

الأول - إذا ظهرت منه زلة ، أو وجدت منه هفوة ، فلا يعاجله

بالعقوبة .

(١) من ٥٥ « التبر المسبوك ».

الثاني - اذا اتسعت حاله فى خدمته واستعنى ، فلا يطمع فى ماله
وثراته .

الثالث - اذا سأله حاجة فلا يتوقف فى قضائها .

ويينبغى أن يمنحه ثلاثة أشياء :

الأول - أن لا يمتنع عن رؤيته متى اختار أن يراه .

الثانى - أن لا يسمع فى حقه كلام مفسد .

الثالث - أن لا يكتم عنه شيئاً من سره ، لأنه مدبر الدخل وبه عمارة
الخزائن والولايات .

ويجب على الوزير :

أولاً - أن يكون محبًا للخير ، بمنفعته للنشر .

ثانياً - أن يعين الملك على الشفقة بالرعاية اذا رأى منه الميل لذلك .

ثالثاً - أن يرشده باللطف اذا رأى منه ميلاً للظلم .

ويقول الغزالى فى نصح الملك الذى أهداه كتابه : « وينبغى أن تعلم
أن دوام الملك بالوزير ، وأن دوام الدين بالملك ، وينبغى أن تعلم أنه
لا يجوز له أن يهتم بغير الخير » ص ٧٩

وهذه الواجبات التى وضعها للملوك والوزراء تعتبر فى الواقع مجملة
بالنسبة لما يحتاجون اليه من شتى الآداب فى معاملة الرعية ، ومعاملة
جيرانهم من الدول ، ولكن يلاحظ كذلك أنه حكم الشرع فى جملة
هذه الآداب ، وقد وضع الفقهاء عدة أحكام تخص الخلفاء والولاة ، وما
أحسبه يخالفهم فى هذا الباب .

- ١٤ -

معاملة الملوك والظالمين

ومما يوضح جانباً من جوانب الأخلاق عند الغزالى رأيه فى معاملة
الظلمة من الأمراء والسلطانين ، فقد حتم على من يأخذ مالاً منهم أن ينظر

كيف وصل اليهم ، وأن يتأمل الصفة التي استحق بها الأخذ ، والمقدار الذي يأخذه ، وهل يستحقه إذا أضيف إلى حاله وحال شر كاته في الاستحقاق ، وبين أنه إذا لم يعرف للسلطان دخل إلا من الحرام ، فالأخذ منه سحت ممحض . وأن واجب الورع يقضى بأن لا يأخذ المرء شيئاً من مال الطالم على الاطلاق ، فان لم يستطع فيأخذ ما يتأكد أنه حلال .

أما الدخول على الظلمة وغشيان مجالسهم فهو محظوظ . ولا تجوز زيارة الملك الجائر الا بعدرين : الأول – أن يكون من جهتهم أمر الزام ، لا أمر اكرام ، ويعلم الرجل أنه ان امتنع أوذى ، أو فسدت طاعة الرعية : فتجب عليه الاجابة ، لا طاعة لهم بل مراعاة لصلاحة الخلق ، حتى لا تضطرب الولاية .

الثاني – أن يدخل عليهم في دفع ظلم عن مسلم سواه . أو عن نفسه ، بطريق الحسبة ، أو بطريق التظلم .

وإذا دخل عليك السلطان الطالم زائراً فجواب السلام لا بد منه ، والقيام له غير حرام ، والأولى تركه إن لم يكن معه أحد . ثم تأخذ في تعريفيه ما يجهله ، وتخويفه فيما هو مستجرى عليه . وارشاده إلى ما هو غافل عنه .

والأفضل فيما يرى الغزالي أن يعتزلهم المرء فلا يراهم ولا يرونـه !
والأمر كذلك في معاملة قضائهم ، وعمالهم ، وخدمهم .

وللغزالي في هذا الباب تفاصيل عجيبة فيما يتعلق بما يقيمهـون من القنطر والطرقـات والمساجد وألسقيـات والأـسوق . وأـخص ما يلاحظ أنه إنما يدعـو إلى أن يخلصـ المرء ذـمته ، معـ البعـد عـما يـقضـى إلىـ فـتـنة أوـ اـضـطـراب .

حقوق الأخوة

المراد بالأخوة الصحبة والصداقه ، الى غير ذلك مما تشر الألفة - والألفة - كما نص الغزالى - ثمرة حسن الخلق ، اذ يوجب التحاب والتآلف والتوافق ، كما أن سوء الخلق يثمر التبغض ، والتحاسد .
والتدابر .

ويجب فيما يرى الغزالى أن يكون للرجل أعداء يبغضهم في الله ،
كما يجب ان يكون له أصدقاء يحبهم في الله .

ولكن الحب في الله ، والبغض في الله غامض ، ولكشف الغطاء عنه ، قسم الصحبة الى : ما يقع بالاتفاق ، كالصحبة بسبب الجوار ، أو بسبب الاجتماع في المكتب ، وفي المدرسة ، أو في السوق ، أو على باب السلطان ، أو في الاسفار ، والى ما ينشأ اختياراً وقصد ، وهو المراد . اذ لا نواب ولا عقاب الا على الأفعال الاختيارية . والصحبة عبارة عن المجالسة ، والمخالطة ، والمجاورة . وهذه الأمور لا يقصد بها الإنسان غيره الا اذا أحبه . والذى يحب : اما أن يحب لذاته ، واما أن يحب للتوصل به الى مقصود ، وذلك المقصود : اما أن يكون مقصورا على الدنيا وحظوظها . واما أن يكون متعلقا بالآخرة ، واما أن يكون متعلقا بالله تعالى .

حب المرأة لذاته وجماله

يرى الغزالى أن الإنسان قد يحب لذاته ، لا لفائدة تناهى عنه في حال أو مآل ، بل لمجرد المجانسة ، والمناسبة في الطبع الباطنة والأخلاق الخفية ، ويدخل في هذا القسم ، فيما يرى ، الحب للجمال اذا لم يكن للمحب غرض خييث ، فان الجمال مستملاج لذاته ، وان قدر فقد أصل

الشهوة • والغزالى يضرب المثل لهذا بالنظر الى الفواكه ، والأنوار ،
والازهار ، والتلخچ المشرب بالحمرة ، والى الماء الجارى ، والخضراء من
غير غرض مذموم اذ تحب لعينها • وهذا الحب كم يقول الغزالى لا يدخل
فيه الحب لله ، بل هو حب الطبع ، وشهوة النفس ، وهو مباح لا يوصف
بسمح ولا بضم •

الطب للمنافع الدنيا

وقد يحب الإنسان لينسال من ذاته غير ذاته ، كما يحب الرجل سلطاناً لانتفاعه بماله ، أو جاهه ، ويحب خواصه لتحسينهم حاله عنده .

والمتوسل اليه - كما يقول الفزالي - ان كان مقصور الفائدة على الدنيا ، لم يدن حبه من جملة الحب فى الله ، وان لم يكن مقصور الفائدة على الدنيا ، ولكنه لا يقصد به الا الدنيا كحب التلميذ لاستاذه ، فهو أيضا خارج عن الحب لله ، فانه ائما يحبه ليحصل منه العلم لنفسه ، فمحبوبه العلم .

وينقسم هذا الحب فيما يرى النزالي الى مذموم ومباح ، فان كان يقصد به التوصل لأغراض مذمومة كقهر الأفران، وحيازة اموال اليتامي، وظلم الرعية بولايته القضاة او غيره ، كان الحب مذموما . وان كان يقصد به التوصل الى مباح فهو مباح .

الحب للمنافع الأخروية

وقد يحب الانسان ، لا لذاته بل لغيره ، وذلك الغير ليس راجعا الى حظوظه في الدنيا ، بل يرجع الى حظوظه في الآخرة ، كمن يحب أستاذه لأنّه يتوصل به الى تحصيل العلم وتحسين العمل ومقصوده من العلم والعمل الفوز في الآخرة . وهذا من جملة المحبين في الله . ومثله من أحب زوجته لأنها آلة الى مقاصد دينه ، كالتحسن والولد الصالح .

الحب لمنافع الدنيا والآخرة

ويقول الفزالي : ليس من شرط حب الله أن لا يحب في العاجلة حظاً آليته . ويقول : اذا اجتمع في قلبه محبتان : محبة الله ، ومحبة الدنيا . فاجتمع في شخص واحد المعنيان جميعا حتى صلح لأن يتوصل به الى الله والى الدنيا ، فإذا أحبه لصلاحه للأمررين جميعا فهو من المحبين في الله ، كمن يحب أستاذه الذي يعلمه الدين ، ويكتفي به مهمات الدنيا بالمواصلة في المال .

الدنيا خلية بارتباط

ولا يفوتنا أن نتوه بما وفق إليه الفزالي حين قال : « وعلى الجملة ، فإذا لم يكن حب السعادة في الآخرة مناقضاً لحب الله تعالى ، فحب السلام ، والصحة والكفاية والكرامة في الدنيا ، كيف يكون مناقضاً لحب الله ؟ وإن الدنيا والآخرة عبارة عن حالتين احدهما أقرب من الأخرى . فكيف يتصور أن يحب الإنسان حظوظ نفسه غداً ولا يحبها اليوم ؟ وإنما يحبها غداً لأن الفد سيصير حالاً راهنة . فالحالة الراهنة لا بد أن تكون مطلوبة . إلا أن الحظوظ العاجلة منقسمة إلى ما يضاد حظوظ الآخرة ويمتنع منها ، وهو الذي احترز عنه الأنبياء ، وأمروا بالاحتراز عنه . والى مالا يضاد ، وهو الذي لم يستعنوا به كالنکاح الصحيح وأكل الحلال .

« وليس بمستكر أن يشتد حبك لانسان جملة أغراض لك ترتبط به ، ولا يستحيل اجتماع الأغراض الدنيوية والأخروية ، فهو داخل في جملة الحب لله » .

وانما نوهنا بهذه الفقرة لأنها في صوابها تناقض ما يردده الفزالي من احتقار الأغراض الدنيوية ، والاشادة بالحياة الأخروية مما يخيّل إلى القارئ أن الدنيا عنده أحقر من أن تتعلق بها الأغراض !

الحب لله

وقد يحب الإنسان في الله والله دون أن ينال منه شيء ، أو يتسلل به إلى أمر وراء ذاته ، وهذا أعلى الدرجات ، وهو غاية في الدقة والغموض .

ميزان الحب

بين الغزالي أن المرء قد يحب لذاته ، وقد يحب المقصود دنيوي أو آخر دنيوي ينال منه ، وقد يحب الله ، لا لغرض يقصد في حال أو مآل .

ولكن ما هي دلائل ذلك الحب ، حميداً كان أو غير حميد ؟ وبأي ميزان يوزن ذلك الميل ، حتى تعرف درجات المحبين ؟

لقد وضع الغزالي ميزاناً هو أدق موازين الحب في هذا الوجود ، وهو المال ! وانظر قوله : « ومن أحب ملكاً أو شخصاً جميلاً أحب خواصه وخدمه ، وأحب من أحبه ، إلا أنه يمتحن الحب بال مقابلة بحظوظ النفس ، وقد يغلب بحيث لا يبقى للنفس حظاً إلا فيما هو حظ المحبوب ، وعنده عبر من قال :

أريد وصاله ويريد هجرى فترك ما أريد لما يريده

وقول من قال :

فما لجرح اذا أرضاكُمْ ألم

وقد يكون الحب بحيث يترك به بعض الحظوظ دون بعض ، كما نسمح نفسه بأن يشاطر محبوبه في نصف ماله ، أو في ثلثه ، أو في عشره . فمقادير الأموال موازين المحبة ، إذ لا تعرف درجة المحبوب إلا بمحبوب يترك في مقابلته فمن استغرب الحب جميع قلبه لم يبق له محبوب سواء فلا يملك لنفسه شيئاً .

المال هو أدق موازين الحب في هذا الوجود ، وقد أفصح عن ذلك
الغزالى ، وان سبقه قول جميل :

سليني مالي يا بين فانما يبين عند المال كل ضئيل

نها غالاخ على أخيه

وبعد الميزان الذى وضعه الغزالى للمحبة . لا نراها في حاجه الى
اجمال ما فعله من حقوق الاخوة ، ويكتفى أن نذكر انه يرى للاخ حقا
على أخيه : في نفسه ، وماله ، وفليه ، ولسانه ؟ ولكل حق من هذه
الحقوق درجات تتناسب مع ما تتطوى عليه الصدور من حب قوى او
ضعيف .

حقوق الاخ المذنب

على أنى أرى من الواجب أن أذكر رأى الغزالى في حقوق الأخ
المذنب . فإنه فيما أعتقد رأى كله صواب ، وهو في الوقت نفسه كثير
على عصر كالعصر الذي عاش فيه الغزالى ، فلستنا نجهل أن الناس كانوا اذ
ذلك قليل التسامح ، وأنهم كانوا مملوئين بالريبة والظنون .

يرى الغزالى أن الصدقة لحمة كل حمة النسب . والقريب لا ينبغي
أن يهجر بالمعصية . فقد قال تعالى للنبي في عشيرته : « فان عصوك فقل
انى برىء مما تعملون » ولم يقل انى برىء منكم ، مراعاة لحق القرابة ،
ولحمة النسب . قال الغزالى « ومن حيث أن الاخوة عقد ينزل منزلة
القرابة ، فإذا انعقدت تأكيد الحق ، ووجب الوفاء بموجب العقد . ومن
الوفاء به أن لا يهمل أيام حاجته وفقره . وفقر الدين أشد من فقر المال .
وقد أصابته جائحة ، وألمت به آفة الفقر بسيتها في دينه ، فينبغي أن يرافق
ويراعي ، ولا يهمل ، بل لا يزال يتلطف به ليعان على الخلاص من تلك
اللوامة التي ألمت به ، فالأخوة عدة للنائبات ، وهذا من أشد التواب » .

وقد توقع الغزالى أن يقول قائل : ان مقارف المعصية لا تجوز مؤاخاته ابتداء فتجب مقاطعته انتهاء ، لأن الحكم اذا ثبت بعلة فالقياس أن يزول بزوالها ، وعلة عقد الأخوة التعاون في الدين ، ولا يستمر ذلك مع مقارفة المعصية . وقد أجاب بأن المعصية إنما منعت ابتداء المؤاخة مع الفاسق لانه لم يتقدم له حق ، أما الآخ المذنب فقد ثبتت أخواته ، فلا تسقط بالعصي ، لما لا تسقط القرابة ، ومتى بقيت فقد بقي ما كان لها من الحقوق .

ويزيد الغزالى أن مصاحبة الفاسق خير من مجانته ، اذ كانت الصحبة داعية الرجوع الى الحق ، والاقلاع عن الباطل ، بخلاف المجافة ، فقد تقوى فيه الاصرار والعناد .

وهذه عطة بالغة ، لا ولئك الذين كلما رأوا مبطلا فروا منه باسم الدين ، وهم يفرون من الواجب لو يعلمون !

- ١٦ -

البغض في الله

يقول الغزالى : « كل من يبغض في الله لا بد أن يبغض في الله ، فانك ان أحبيت انسانا لأنه مطيع لله ، ومحبوب عند الله ، فان عصاه لا بد أن تبغضه ، لأنه عاص لله وممقوت عند الله ، ومن أحب لسبب بالضرورة يبغض لضده » ولكن البغض كما رأيت لا يوجب المجافة .

العصيان بالاعتقاد

والمخالف لأمر الله اما أن يكون مخالفًا في عقده أو في عمله ، والمخالف في العقد اما مبتدع أو كافر ، والمبتدع اما داع إلى بدعه أو ساكت ، اما بعجزه أو باختياره ، فأقسام الفساد في الاعتقاد ثلاثة : -

الاول - الكفر والكافر ان كان محاربا فهو يستحق القتل والارقاق ،
وان كان ذميا فلا يجوز اينداوه الا بالاعراض عنه والتحفير له .

الثاني - المبتدع الذى يدعو الى بدعته . فان كانت البدعة بحيث
يکفر بها فامرها اشد من الذمى . لانه لا يقر بجزية ، ولا يسامح بعفده
ذمه . وان كان مما لا يکفر به فامرها بينه وبين الله أخف من أمر الكافر
لا محالة ، ولكن الامر في الانكار عليه اشد منه على الكافر ، لأن شر
الذافر غير متعد . أما المبتدع الذى يدعو الى البدعة ويزعم أن ما يدعوه
اليه حق فهو سبب لفساده الخلق وسره متعد ، فالاستجواب في اظهار
بغضه ، ومعاداته ، والانقطاع عنه ، وتحقيره ، والتشنيع عليه ، وتغفير
الناس منه ، أشد .

الثالث - المبتدع العامى ، الذى لا يقدر على الدعوة ، ولا يخاف
الاقداء به ، فامرها اهون . والاولى أن لا يفتح بالتلطيف والاهانة ، بل
يتلطف به في النصح ، فان قلوب العوام سريعة التقلب .

العصيان بالفعل

أما العصيان بالفعل لا بالاعتقاد فأنواعه ثلاثة :

الأول - وهو أشدتها ، ما يتضرر به الناس في دنياهم ، كالظلم
والنصب . وشهادة الزور ، والغيبة . والنمية ؟ وهذه معاصر شديدة ،
لأنها ترجع إلى إيناده الخلق . وأصحاب هذه المعاصر ينقسمون إلى من
يظلم في الدماء ، وإلى من يظلم في الأموال ، وإلى من يظلم في الأعراض ،
بعضها أشد من بعض ، والاستجواب في اهاتهم ، والاعراض عنهم مؤكدة .
جدا .

الثاني - ما يتضرر به الناس في أخرتهم لا في دنياهم ، كعمل
صاحب الماخور الذى يهىء أسباب الفساد ويسهل طرقها على الخلق .
وهو قريب من الأول ، ولكنه أخف منه .

وأنا لا أفهم كيف يرى الغزالي أن هذا العمل لا يضر الناس في
جنياهم^(١) .

الثالث - عمل الذى يفسق فى نفسه ، بشرب خمر ، أو ترك
واجب ، أو مقارفة محظور يخصه ، والامر فيه أخف مما سبقه ، ولكنه
أن صودف وقت مباشرة العمل يجب منعه بما يمتنع به منه ، ولو بالضرب
والاستخفاف .

نتيجة

ويحسن بالقارئ أن يضم الحب فى الله ، والبغض فى الله ، إلى
ما قرره الغزالي من وجوب الاحتساب ، فان ضم هذه الأبواب بعضها إلى
بعض يعطينا صورة واضحة لما يجب أن يكون عليه المسلم أو المريد أو
ذو الخلق الحسن فيما يرى الغزالي .

والرجل الذى أحاطه بالحسبة ، والحب فى الله ، والبغض فى الله ،
هو رجل يعرف ما يجب عليه للهيئة الاجتماعية ، التى تصلح بصلاح
الأفراد ، فيهدى نفسه أولاً ليفهم بالضبط ماله وما عليه ، ثم يدعو الناس
إلى حفظ أموالهم وأنفسهم ، وينهىهم عن اقتراف ما يضر بهم وبآخوانهم
فى الدين ، ثم يبغض بقلبه وبجوارحه من يغض من العقيدة ، أو يظلم
الناس . وقد فعل الغزالي ذلك كله بأسلوب بالغ التأثير ، ودعم كلامه
بكثير من الآيات والأحاديث والأخبار .

- ١٧ -

آداب الزواج

يسميها الغزالي آداب النكاح ، وهو أصح فى التعبير ، لأن النكاح

(١) لم يكن للزنا فى عهده من المضار الدينية من الأمراض الفتاكـة كالزهـري ونحوـه مـالهـ
اليـوم فـلـم يـرقـ بـنظـرـه إـلـى أـكـثـرـ مـنـ الضـرـرـ الـديـنـيـ لـأـنـ هـوـ المـائـلـ أـنـامـهـ
عبد الوهـابـ التجـارـ

في كتب التشريع لا يراد به الجماع ، وإنما يقصد به العقد ٠ ولكننا فلنا أداب الزواج ، مجازة للعرف الحديث ٠

وقد وضع الفزالي عدة أداب للنكاح ، تعد في الواقع ترغيباً فيه ، وهي في جملتها من الآداب العادلة ٠ ويهمني منها أدب واحد ، أصاب الفزالي في الاهتمام به ، وهو تربية النفس بالزواج على احتمال أعباء المعاش ٠ فقد ذكر أن الفائدة الخامسة من فوائد النكاح « هي مواجهة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقهن ، واحتمال الأذى منهن ، والسعى في إصلاحهن ، وارشادهن إلى طريق الدين ، والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن ، والقيام بتربيته لأولاده : فكل هذه أعمال عظيمة الفضل ، فإنها رعاية وولاية ، والأهل والولد رعية ، وفضل الرعاية عظيم ٠ وإنما يحترز منها من يحترز خيفة من القصور عن القيام بحقها ٠ والا فقد قال عليه السلام : « يوم من والـ عدل أفضل من عبادة سبعين سنة » ٠ ثم قال : « آلا كلام راعٍ ، وكلكم مسؤول عن رعيته » وليس من اشتغل بإصلاح نفسه وغيره ثمن اشتغل بإصلاح نفسه فقط ، ولا من صبر على الأذى كمن رفه نفسه وراحها فمقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد في سبيل الله ٠ ولذلك قال بشر : فضل علىـ أحمد بن حنبل ثلاث : أحدها أنه يطلب الحلال لنفسه ولغيره ٠ وقد قال عليه السلام : « ما أنفقه الرجل على أهله فهو صدقة ، وان الرجل ليؤجر في اللقمة يرفعها إلى فى أمراته » ٠

ويقر الفزالي بعد هذا أن في الصبر على الأهل رياضة للنفس ، وكسرأ للفضب ، وتحسينا للخلق ٠ ويدركني هذا الأدب بما يكرره سيدى الاستاذ الدكتور منصور فهمى فى رسائله من كلمة « غرم الحياة وغمها » ويريد بذلك الترحيب بما فى الحياة من متاعب ، فى سبيل ما فيها من الطيبات ٠ والحق أن احتمال الأهل والولد من عزائم الأمور ٠ والشبان الذين ينفرون من الزواج ايثارا للراحة ، إنما هم جبناء ، ضعفاء لا يصلحون للمجادل فى ميدان الحياة ٠

- ١٨ -

خروج من المظالم

ونريد أن نبين رأى الفزالي فيما يجب على التائب الذى ظلم الناس .
لأن في ذلك بياناً لرأيه في احترام ما يلزم المرأة من مختلف الحقوق .
وقد بدأ الكلام في هذا الموضوع بقوله عليه السلام : (من كانت له عنده
أخيه مظلمة في عرض أو مال ، فليتحللها منه من قبل أن يأتي يوم ليس
هناك دينار ولا درهم) .

مظلمة العرض

فإن كانت المظلمة متعلقة بالعرض ، فواجِب على المُتَابَ أَنْ يَنْدِمْ
وَيَتُوبْ ، وَيَتَأْسِفْ عَلَى مَا فَعَلَهْ ، لِيَخْرُجْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ . ثُمَّ يَسْتَحْلِمُ الْمُتَابَ
لِيَحْلِهْ ، فَيَخْرُجْ مِنْ مُظْلِمَتِهِ . وَيَبْنِي أَنْ يَسْتَحْلِمَهُ وَهُوَ حَزِينٌ مُتَأْسِفٌ
نَادِمٌ عَلَى فَعْلَهِ . ثُلَّا يَقَارِفُ بِرِيَاهِهِ مُعْصِيَةً جَدِيدَةً .

مظلمة المال

وإن كانت المظلمة في المال فعليه أن يميز الحرام ، وأن ينظر في
مصرفه .

فإن كان الحرام معلوم العين : من غصب ، أو وديعة ، أو غير ذلك ،
فأمره سهل . وإن كان متلبساً فلا يخلو أمره من أن يكون في مال هو
من ذات الأمثال ، كالحبوب والتقد والأدهان ، أو أن يكون في أعيان
متميزة : كالعيدي والدور والثياب .

فإن كان في المثلثات ، أو كان شائعاً في المال كله ، كمن اكتسب
المال بتجارة يعلم أنه قد كذب في بعضها بالمرابحة ، وصدق في بعضها ،
أو من غصب دهنا وخلطه بدهن نفسه ، وفعل ذلك في الحبوب والدراجم

والدنا نير ، فلا يخلو أمره من أن يكون معلوم القدر أو مجهولا . فان كان معلوم القدر : كأن يعلم أن قدر النصف من جملة ماله حرام ، فعليه تمييز النصف . وان أشكل فله طريقان : أحدهما الأخذ باليقين ، والآخر الأخذ بغالب الظن ، وكلاهما قال به العلماء .

وفي الأعيان المتمايزة : كالدور والبيد ، يوزع القاضي الثمن بقدر النسبة . وان كانت متفاوتة ، أخذ من طالب اليع قيمة نفس الدور مثلاً وصرف إلى الممتنع منه مقدار قيمة الأقل ويقدر التفاوت بالعرف .

صرف المال الحرام

فإذا أخرج الحرام فلا يخلو أمره :

(أ) اما أن يكون له مالك معين ، فيجب الصرف إليه أو إلى وارثيه . وان كان غائباً فيتظر حضوره . وان كانت له زيادة ومنفعة فلتجمع فوائده إلى وقت حضوره .

(ب) واما أن يكون مالك غير معين ميؤوس منه لا يدرى أمات عن وارث أم لا . فهذا لا يمكن الرد فيه للمالك ، ويوقف حتى يتضح الأمر فيه . فان لم يعرف المالك تصدق بالمال ، وله أن ينفقه على نفسه وعلى أولاده ان كان فقيرا . ومثل ذلك ما لو تعذر الرد لكثره المالك ، كفلول الغنيمة ، فإنه كيف يقدر على جمع الغزاوة بعد تفرقهم ؟ وان قدر فكيف يفرق ديناراً واحداً على ألف أو ألفين .

(ح) واما أن يكون من مال الفيء والأموال المرصدة لصالح المسلمين كافة ، فيصرف ذلك إلى القنابر ، والمساجد ، والطرق ، وأمثال هذه الأمور التي يشترك في الاتفاع بها عامة المسلمين .

مقطمة النفس

وان كانت المظلمة في النفس ، كالقتل ، فينظر في نوعه ، فان كان خطأً فليس له دية ، وان كان عمداً موجباً للقصاص بالقصاص وله أن

يُتَعْرَفُ إِلَى وَلِيِ الْدِمْ وَيُحَكَّمُهُ فِي رُوْحِهِ ، فَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ قُتِلَهُ •
وَفَدَ تَبَّهُ الغَزَالِيُّ إِلَى أَنَّ هُنَاكَ ذُنُوبًا يَجِبُ أَنْ تُسْتَرُ ، فَلَا يَصْحُ أَنْ يُظْهِرَ
فِيهَا الْاسْتِحْلَالَ ، لَأَنَّ فِي اُظْهَارِهِ جُنَاحَةٌ جَدِيدَةٌ • وَالْخُرُوجُ مِنْ مُثْلِ هَذِهِ
الْمُظَالَّمِ يَكُونُ بِالْمُجَاهَدَةِ ، وَرِيَاضَةِ النَّفْسِ ، وَالْإِحْسَانِ الْمُوَصَّلِ إِلَى مِنْ
أَسَاءِ الْمَرْءِ إِلَيْهِ ، فَإِنْ فِي الْإِحْسَانِ جُبْرًا لِلْإِسَاعَةِ ، وَهُوَ دَلْلٌ مَا يُسْتَطِيعُهُ
الثَّائِبُ فِي مُثْلِ هَذِهِ الْحَالِ •

- ١٩ -

واجب الاحتساب

الْحَسْبَةُ وَالْاحْتِسَابُ فِي عَرْفِ الْمُسْلِمِينَ عِبَارَةٌ عَنِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ
إِذَا ظَهَرَ تَرْدُهُ ، وَالنَّهِيِّ عَنِ الْمُنْكَرِ إِذَا ظَهَرَ فَعْلُهُ • لِقَوْلِهِ تَعَالَى : « وَلَتَكُنْ
مِنْكُمْ أَمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ » .
وَالْاحْتِسَابُ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ فَادِرٍ ، وَهُوَ فَرْضٌ كَفَائِيٌّ ، إِذَا قَامَ بِهِ
وَاحِدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَقْطٌ عَنِ الْجَمِيعِ ، وَيَصِيرُ فَرْضٌ عَيْنٌ عَلَى الْقَادِرِ الَّذِي
لَمْ يَقِمْ بِهِ غَيْرُهُ • وَإِذْ كَانَتِ الْقَدْرَةُ شَرْطاً لِلْحَسْبَةِ فَقَدْ أَصْبَحَتْ عَلَى ذُوِّي
الْسُّلْطَانِ أُوْجَبٌ ، لَأَنَّهُمْ أَقْدَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ • وَمَتَى أَقَامَتِ الْحُكْمُومَةُ مُحْتَسِبَةً
كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَبْحُثَ عَنِ الْمُنْكَرِ الظَّاهِرِ لِيَصُلِّ إِلَى اِنْكَارِهِ ، وَالْمَعْرُوفِ.
الْمُتَرَوِّكُ لِيَأْمُرَ بِاِقْتَامِهِ ، وَكَانَ لِكُلِّ مُسْلِمٍ الْحَقُّ فِي أَنْ يَسْتَعْدِيهِ فِيمَا يَجِبُ
اِنْكَارُهُ •

وَمِنَ الْفَرْوَقِ بَيْنَ الْحَسْبَةِ وَالْقَضَاءِ ، أَنَّ الْمُحْتَسِبَ يَجِدُوا لَهُ أَنَّ
يَتَعَرَّضُ لِتَصْفِحٍ مَا يَأْمُرُ بِهِ مِنَ الْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَإِنْ لَمْ
يَحْضُرْهُ خَصْمٌ مُسْتَعْدَ ، وَلَيْسَ لِلْقَاضِي أَنْ يَتَعَرَّضَ لِذَلِكَ إِلَّا بِحُضُورِ
خَصْمٍ يَجِدُ لَهُ سَاعَ الدُّعَوِيِّ مِنْهُ • وَأَنَّهُ يَجِدُ لِلْمُحْتَسِبَ أَنْ يَسْتَعْمِلَ
الْقُوَّةَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْمُنْكَرَاتِ ، وَلَيْسَ لِلْقَاضِي غَيْرَ فَحْصِ الْقَضِيَّةِ بِالْأَنَاءِ
وَالْوَقَارِ •

ويطول بنا القول لو أردنا سرد الفروق بين الحسبة ، وأحكام
القضاء ، وأحكام المظالم ، في الحكومات الإسلامية ، فلنكتف بهذا القدر ،
تمهيداً لرأي الغزالى في شروط الاحتساب ٠

شروط المحتسب

ولا يجب على أمرىء فيما يرى الغزالى أن يأمر بخير ، أو ينهى عن
شر ، الا بالشروط الآتية :

أولاً - أن يكون مكلفاً ٠ فلا يجب على الصبي أمر بمعروف ، ولا
نهى عن منكر بل يجوز له ذلك ، وليس لأحد أن يمنعه ٠

ثانياً - أن يكون مؤمناً ٠ ومفهوم أن الغزالى لا يعترض للجاحد بشيء
حتى يصلح للارشاد ٠

ثالثاً - أن يكون عدلاً ٠ ويناقش الغزالى هذا الشرط ، ويدرك أن
الأئماء قد اختلفوا في عصمتهم عن الخطايا ، والقرآن العزيز دال على
نسبة آدم عليه السلام إلى المعصية ، وكذا جماعة من الأئماء ، فلو اشتربنا
في الارشاد أن يكون متعاطيه معصوماً عن المعاصي لأنغلق هذا الباب ٠

رابعاً - أن يكون مأذوناً من الإمام والوالى ٠ وقد ناقش الغزالى هذا
الشرط ، ورأى أن تخصيص الاحتساب باذن الوالى بعد اطلاقه في
الأحاديث والآيات ، تحكم لا أصل له ٠ وقرر أنه يجب على المرء زجر
العصى أينما رأه ، وكيفما رأه ٠

خامساً - أن يكون قادرًا ٠ فليس على العاجز حسبة إلا قبله ٠ ولا
يقف سقوط الوجوب عند العجز الحسى ، بل يتحقق به ما يخاف منه
مكرهها يناله ، فذلك في معنى العجز ، وكذلك إذا لم يخف مكرهها وعلم
أن انكاره لا ينفع - وقد اختلفت كلمة الغزالى في هذه النقطة ففي
ص ٣٢٢ ج ٣ من الاحياء ينص على سقوط وجوب الحسبة حين يعلم أنها

لا تفيد ٠ وفي ص ١٥٣ ج ١ يقول في النهي عن كشف الصورة في الحمام « فاما قوله : اعلم أن ذلك لا يفيد ولا يعمل به فهذا لا يكون عذرا ، بل لا بد من الذكر ، فلا يخلو قلب امرئ عن التأثر من سماع الانكار واستشعار الاحتراز عند التلبس بالعاصي ٠ وذلك يؤثر في تقييم الامر في عينه وتغير نفسه عنه فلا يجوز تركه » ٠

وقد توقع الغزالى أن يقول قائل : ان المكروه المتوقع ما حده الانسان ٠ فان الانسان قد يكره كلمة ، وقد يكره ضربة ، وقد يكره طول لسان المحتسب عليه في حقه بالغيبة ، وما من شخص يؤمر بالمعروف الا ويتوقع منه نوع من الأذى ٠ وقد يكون منه أن يسعى به إلى سلطان ، أو يقع فيه في مجلس يتضرر بقدحه فيه ، فما حد المكروه الذي يسقط الوجوب به ؟

وأجاب الغزالى بأن الحسبة لا تسقط الا بالمكروه الظاهر كمن يعلم أنه يضر بضر ما مؤلمًا يتآذى به ، أو يعلم بأنه تهبه داره ، ويخرب بيته ، وتسليط ثيابه ^(١) ٠

النكر النهي عنه

ولا ينهى عن شيء فيما يرى الغزالى الا بالشروط الآتية :

أولا - أن يكون منكرا ، أي محذور الواقع في الشرع ٠ قال الغزالى « وانما عدلنا عن لفظ المعصية إلى هذا ، لأن المكر أعم من المعصية ، اذ من رأى صبيا أو مجنونا يشرب الخمر فعليه أن يريق خمره ويفعله ، وكذا ان رأى مجنونا يزنى بمجنونة أو بهيمة ، فعليه أن يمنعه ٠ ثم قال : ولا تخصل الحسبة بالكبار ، بل كشف الصورة في الحمام ، والخلوة بالأجنية ، واتباع النظر للنسوة الأجنبية ، كل ذلك من الصفات ويفجب النهي عنه » ٠

^(١) انظر من ٣٢٣ ج ٢ احياء .

ثانيا - أن يكون المنكر موجودا في الحال ، فلا حسبة على من فرغ من شرب الخمر ، ولا على من يعلم من قرينة حاله أنه عازم على الشرب في ليلته .

ثالثا - أن يكون المنكر ظاهرا . فكل من ستر معصية في داره وأغلق بابه لا يجوز أن يتجرس عليه ، وقد أمرنا أن نستر ما ستر الله ، وننكر على من أبدى لنا صفحته .

رابعا - أن يكون المنكر معلوما بغير اجتهاد ، فكل ما هو في محل الاجتهاد فلا حسبة فيه ، وهذا الشرط الأخير يدل على قدر الفرزالي الحرية الرأى والتفكير ، وما أحوج المصلحين إلى تأمله والعمل بمقتضاه !

صفات المرشد

ويجب أن يتتصف المرشد بالعلم ، والورع ، وحسن الخلق

أما العلم فيعلم موقع الحسبة ، وحدودها ، ومجاريها ، وموانعها ، ليقتصر على حد الشرع . وأما الورع فليردعه عن مخالففة معلومه ، فربما يعلم أنه مسرف في الحسبة ، وزائد على الحد المأذون فيه شرعا ، ولكن يحمله عليه غرض من الأغراض ، وأما حسن الخلق فليتمكن به من اللطف والرفق ، وهو أصل هذا الباب .

قال الفرزالي : « فهذه الصفات الثلاث بها تصير الحسبة من التربات وبها تتدفع المنكرات ، وإن فقدت لم يندفع المنكر ، بل ربما كانت الحسبة أيضا منكرة لتجاوزة حد الشرع فيها » ^(١) .

وقد نص على أن اشتراط الورع ليس معناه أن الأمر بالمعروف يصير ممنوعا بالفسق ، وإنما يسقط أثره من القلوب بظهوره للناس .

(١) ص ٣٣٧ ج ٣ أحياء .

أنواع المنكرات

قسم الفرالي المنكرات الى مكروهه ومحظورة ، وبين أن منع المكروه مستحب ، والسكوت عليه مكروه ، وليس بحرام الا اذا لم يعلم الفاعل أنه مكروه فيجب ذكره له ، لأن الكراهة حكم في الشرع يجب تبليغه الى من لا يعرفه ، وأن منع المحظور واجب والسكوت عليه حرام ٠

ثم ذكر طائفة من المنكرات التي تجري في المساجد ، والأسواق ، والشوارع ، والحمامات ، والضيافة ٠ وأرأوه في هذا الباب مسددة ، ترجع الى الحرص على سلامه الناس في دينهم ومعاشرهم ، واصلاح ذات بينهم ٠ فمنها دعوته الى منع ما يؤدي الى تضيق الطرق واستضمار المارة ، ودعوته الى منع الملاك من تحميل الدواب ما لا تطيقه ، وهو رفق بالحيوان ٠ ودعوته الى منع الاسراف في الطعام والبناء ٠ والذى يتأمل ما سرده الفرالي من المنكرات يدرك مبلغ حرصه على غرس الرجلة والشرف في نفوس الأفراد والجماعات ٠

درجات الاحتساب

للحساب درجات ، وهي :

(١) التعريف (٢) ثم النهي (٣) ثم الوعظ (٤) ثم النصح (٥) ثم السب والتعنيف (٦) ثم التغيير باليد (٧) ثم التهديد بالضرب (٨) ثم ايقاع الضرب وتحقيقه (٩) ثم شهر السلاح (١٠) ثم الاستظهار بالأعون وجمع الجنود ٠

وفي الدرجة الأخيرة يقول الفرالي : « وربما يستمر الفاسق أيضا بأعوانه ، ويؤدي ذلك الى أن يتقابل الصفان ويتقاتلا ٠ فهذا قد ظهر الاختلاف في احتياجه الى اذن الامام ٠ فقال قائلون : لا يستقل أحد الرعية بذلك ، لأنه يؤدي الى تحريك الفتنة وهيجان الفساد وخراب

البلاد • وقال آخرون : لا يحتاج الى الاذن • وهو الأقيس ، لأنه جاز للآحاد الامر بالمعروف ، وأوائل درجاته قد تجر الى ثوان وثوالث ، وقد يتنهى لا محالة الى التضارب ، والتضارب يدعو الى التعاون • فلا ينبغي أن يبالى بلوازم الامر بالمعروف ، ومتنهاه تجسيد الجنود في رضا الله ودفع معاصيه » ص ٣٣٦ ج ٣

ارشاد الامراء

ولا يجوز من درجات الاحتساب مع الامراء والسلطين – فيما يرى الغزالى – الا الرتبتان الاوليان وهما التعريف والوعظ • أما المنع بالقهير فليس لآحاد الرعية مع السلطان ، فان ذلك يحرك الفتنة ويهيج الشر ، ويكون ما يتولد عنه من المحذور أكثر •

واما التخشين فى القول ، كقوله : يا ظالم ، يا من لا يخاف الله » وما يجري مجرىء ، فذلك ان كان يحرك فتنة يتعدى شرها الى غيره لم يجز ، وان كان لا يخاف الا على نفسه ، فهو جائز ، بل مندوب اليه ، ومن قتل فى هذا فهو شهيد •

الباب الحادى عشر

في تأثير الغزالى في عصره

وما نلاه من العصور

أثر الغزالى في عصره أثرا غير قليل : فشطر أهل العلم ، والولاة ،
شطرين : أحدهما ينصره ، والآخر يخذه ، وما زال الفريقان يختصمان
حتى طيرا شهرته في جميع الآفاق .

وقد رأى الغزالى في حياته من يقدسه ، ويقدمه على جميع العلماء ؟
ورأى في الوقت نفسه كتبه تحرق في بعض الاقطارات الإسلامية ، رميًا
لها بالدعوة الخفية إلى الكفر والالحاد !

- ١ -

تجديده للقرن الخامس

وكان جمهور المسلمين فيما سلف يعتقد أن الله يبعث على رأس كل
مائة سنة من يجدد أمر الدين ، ولهم في هذه العقيدة كلام طويل ، وفيها
يقول الجلال السيوطي في أرجوزته :

والشرط في ذلك أن تمضي المائة وهو على حياته بين الشة
يشار بالعلم إلى مقامه وينصر السنة في كلامه
 وأن يكون جاما لكل فن وأن يعم حمدته أهل الزمن

وأن يكون في حديث قدروى من أهل بيت المصطفى وقد قوى وكونه فردا هو المشهور قد نطق الحديث والجمهور وهم يعتقدون أن مبعث المائة الأولى عمر بن عبد العزيز وبمبعث الثانية الشافعى ، والثالثة الأشعري أو ابن سريج ، والرابعة الاسفراينى أو الصعلوكى أو الباقلانى . ويتفقون على أن مبعث المائة الخامسة هو الغزالى ، ويقول السيوطى فى ذلك :

والخامس الجبر هو الغزالى وعده ما فيه من جدال ^(١)

وأنا لا أريد الآن تحقيق هذه الفكرة ، وبيان ما ترتكز عليه من أساس قوى أو ضعيف ، فهى فى ذاتها فكرة سخيفة ، ونظم السيوطى فيها أسفى ، ويكتفى أن يعلم القارئ أن الغزالى بد معاصريه ، وأخلتهم حتى جاء المؤخرن فعدوه مجدد المائة الخامسة ، وقد يكونون مخطئين !

- ٣ -

المنامات والاحلام

ومما يدل على أن الغزالى شغل الناس ، واحتل أفضتهم ، وصار موضع وساوسهم ، وهواجسهم ، وأحلامهم ، ما رأيناه لنمير واحد من المنامات المشابهة فى تأييد الغزالى ، ونشر فضله .

فهذا السبکى يذكر فى طبقاته أنه كان فى زمانه شخص يكره الغزالى ويذمه ويعييه فى الديار المصرية ، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم فى المنام ، وأبو بكر وعمر رضى الله عنهمما بجانبه ، والغزالى جالس بين يديه وهو يقول : يا رسول الله هذا يتكلم فى ! وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : هاتوا السياط ، وأمر به فضرب لأجل الغزالى ، وقام هذا الرجل من النوم وأثر السياط على ظهره ، ولم يزل ، وكان يبكي ويحكى للناس (!) .

(١) راجع شرح الربيدى ص ٢٦ ج ١ .

ويدرك السبكي أيضاً أن أبا الحسن بن حرزهم لما وقف على الاحياء وتأمله ، قال هذا بدعة ، مخالف للسنة ، وكان شيخاً مطاعاً في يlad المغرب ، فأمر باحضار كل ما فيها من نسخ الاحياء ، وطلب من السلطان أن يلزم الناس بذلك ، فكتب إلى التواحي ، وشدد في ذلك ، وتوعد من يخفى شيئاً منه ، فأحضر الناس ما عندهم واجتمع الفقهاء ، ونظروا فيه ، ثم أجمعوا على احرافه يوم الجمعة وكان ذلك يوم الخميس ، فلما كانت ليلة الجمعة رأى ابن حرزهم في المنام كأنه دخل من باب الجامع الذي تعود الدخول منه ، فرأى في ركن المسجد نوراً ، وإذا بالنبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما جلوساً ، والامام أبو حامد قائم وبيه الاحياء فقال يا رسول الله : هذا خصمي ! ثم جثا على ركبتيه وزحف عليهم إلى أن وصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فناوله كتاب الاحياء ، وقال : يا رسول الله انظر فيه ، فان كان بدعه مخالف لستك كما زعمت ، تبت إلى الله تعالى ، وإن كان شيئاً تستحسن حصل لي من بركتك ، فانصفني من خصمي ! فنظر فيه رسول الله ورقة ورقة إلى آخره ، ثم قال : إن هذا شيء حسن ، ثم ناوله أبو بكر فنظر فيه كذلك ، ثم قال : نعم ! والذى بعثك بالحق يا رسول الله انه حسن ! ثم ناوله عمر فنظر فيه كذلك ، ثم قال كما قال أبو بكر : فأمر رسول الله بتجريد أبي الحسن بن حرزهم من ثيابه : وضرره حد المفترى ، فجبره وضربه ، ثم شفع فيه أبو بكر بعد خمسة أسواط ، وقال يا رسول الله ، إنما حصل ذلك منه اجتهاداً في سنته وتطليماً . فعما عنه أبو حامد عند ذلك ، فلما استيقظ من منامه ، وأصبح ، أعلم أصحابه بما جرى ، ومكت قريباً من الشهرين متلماً من الضرب ، ثم سكن عنه الالم ، ومكت إلى أن مات ، وأنثر السياط على ظهره (؟) .

وهناك المنام الذي رأى فيه أبو الفتح الساوى أنه تلا بين يدي رسول الله قواعد العقائد الذي صنفه الغزالى ، وهو منام طويل نقله السبكي

في طبقاته . وقد كنت وضعت قائمة لأمثال هذه المنامات ، ثم بدا لي أن اقتصر على ما ذكرت رغبة في الإيجاز .

وأنا لا أتخذ من هذه الأحلام دليلاً على أن الغزالى من أصحاب الكرامات ، كما نوه بذلك مترجموه ، كلا ! وإنما اتخذها دليلاً على ما وصلت إليه منزلة الرجل في قلوب المسلمين ، فإن لما يراه المرء في منامه صلة قوية بما يلوح به في يقظته ؟ وهؤلاء الذين جلدوا في منامهم ، لا يبعد أن يكونوا استشعروا خوف الغزالى وهم أيقاظ ، وعلى الأخص إذا لاحظنا ما شاع بين المسلمين في تلك العصور الخوالى من سلطة الأولياء ، وتصرفهم المطلق في عالم الاحياء ، وسبحان من جلَّ عن الشريك ! .

- ٣ -

تلامذة الغزالى وأصحابه

ومما يبين عن أثر العالم في عصره ، تلامذته وأصحابه : فهم في علمهم ، وأدبهم ، أثر من آثاره . وقد أثر الغزالى تأثيراً حسناً في جمهور كبير من تلامذته وأصحابه ، ذكرهم الزبيدي ، منهم القاضى أبو نصر أحمد بن عبد الله الخمقرى (نسبة إلى خمس قرى التي تعرف بسيخ رية) ولد سنة ٤٦٦ وتوفي سنة ٥٤٤ هـ ومنهم الإمام أبو الفتح أحمد ابن على بن محمد بن برهان - بفتح الباء - ولد سنة ٤٧٦ وتوفي سنة ٥١٨ ومنهم أبو منصور محمد بن اسماعيل بن القاسم الطوسي توفي سنة ٤٨٦ ومنهم أبو سعيد محمد بن أسعد بن محمد التوفانى قتل في مشهد على بن موسى الرضا سنة ٥٥٤ في واقعة النفر ومنهم أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن تومرت المصودى الملقب بالمهدى صاحب دعوة سلطان المسلمين عبد المؤمن بن علي ملك المقرب ، دخل الشرق وتفقه على الغزالى . ومنهم أبو حامد محمد بن عبد الله بن محمد الجوزقانى

الاسفراينى . و منهم أبو سعيد محمد بن علي الجاوانى الكردى حدت بكتاب « الجام العوام » للغزالى عنه . و منهم الامام أبو سعيد محمد بن يحيى بن منصور ولد سنة ٤٧٦ وهو من أشهر تلامذة الغزالى ، نفقه عليه و شرح كتابه « البسيط » .

وما أريد أن أطيل فى هذا الباب ، وانما أنص هنا على أن تلامذة الغزالى أحدثوا أثراً كبيراً فى الحياة الاسلامية ، وأكثرهم ماتوا شهداء ، وليس اشتراك العلماء فى الحركات العامة ، الا أثراً لقوتهم المعنوية ، وایمانهم بما يدعون إليه . وأنص أيضاً على أن تلامذة الغزالى لم يعرفوه غالباً الا بم مؤلف الأحياء ، فهم لم يصحبوا مؤلفاته فى الفقه أو المنطق أو الأصول ، وانما صحبوه على أنه داع إلى الله ، ومرشد ل高尚的道德品质 .

- ٤ -

مؤلفاته وفتواه

ومما يدل على مبلغ تأثير الغزالى فى الحياة الاسلامية ، عنایة الناس بمؤلفاته وفتواه . فانا نجد مثلاً كتابه الوجيز فى الفقه وضع له نحو سبعين شرحاً كما قال الزبيدي ، وقد قيل : لو كان الغزالى نبياً لكان معجزته الوجيز ! ومن شرح هذا الكتاب الفخر الرازى وأبو الثناء محمود ابن أبي بكر الأرموى ، والعماد أبو حماد بن يونس الاربلى وأبو القتوح العجلى ، وأبو القاسم عبد الكريم بن محمد القزوينى الراففى ، وقد اختصر النوى من شرح الراففى كتاباً سماه الروضة ، وخرج أحادشه ابن الملقن فى سبع مجلدات ، سماه البدر المنير ، ثم اختصره فى أربع مجلدات سماه الخلاصة ، ثم لخصه فى جزء ، وسماه المنقى . ولخصمه أيضاً الحافظ بن حجر ، وشرح الوجيز أيضاً البدر الزركشى ، والبدر ابن جماعة ، والشهاب البوصيرى ، والجلال السيوطى .
ونجد أيضاً كتابه « الوسيط » فى الفقه ، شرحه تلميذه محمد بن

يحيى التيسابورى شرحا سماه «المحيط» فى ستة عشر مجلداً ، وشرحه نجم الدين أحمد بن على بن الرفة فى سبعين مجلداً وسماه «المطلب» وشرحه النجم القمولى وسماه «البحر المحيط» ، وشرحه عدد غير هؤلاء ذكرهم الزبيدى فى ص ٤٣ ج ١ شرح الاحياء ٠

وقال عمر بن عبد العزيز بن يوسف الطراپلسى يمدح كتبه الأربع
فى الفقه :

هذب المذهب حبر أحسن الله خلاصه
بسیط ووسيط ووجيز وخلاصه

ونجد كذلك كتابه «المستصفى» فى الأصول موضع عناية العلماء ،
فقد اختصره أبو العباس أحمد بن محمد الأشيلى المتوفى سنة ٦٥١ هـ .
وشرحه أبو على الحسن بن عبد العزيز الفهرى المتوفى سنة ٧٧٦ هـ ،
وعليه تعلیقات لسلیمان بن داود الغرناطى المتوفى سنة ٨٣٢ هـ ٠

ونجد كتابه «تهاافت الفلسفه» قد أحده رجه عنفية بين فلاسفه
المسلمين ، فقام ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ هـ ، وألف كتاباً فى نقاده ،
ومقام ابن رشد فى عالم الفلسفه غير مجهول . ثم جاء خوجه زاده المتوفى
سنة ٨٩٣ هـ ، وألف كتاباً فى التحكيم بين الفرزالى وابن رشد باشارة
السلطان محمد الفاتح العثماني . ووضع علاء الدين بن على الطوسى كتاباً
فى المحاكمة بين الفرزالى وابن رشد سماه «الذخيرة» ومنه نسخة بدار
الكتب المصرية نمرة ١٧٤ ٠

ونجد كتابه «قواعد العقائد» شرحه ركن الدين الاسترابادى ومحمد
أمين بن صدر الدين الشروانى ٠

ونجد العلماء عنوا بتحقيق نسبة (المضنوون به على غير أهله) إلى
الفرزالى . ومن بحث ذلك السبکى وصاحب «تحفة الارشاد» وصنف

أبو بكر محمد بن عبد الله المالقى المتوفى سنة ٧٥٠ كتابا فى رده ، وهذا مظهر لعنية العلماء بنفى ما دس عليه .

وليس عنية العلماء بفتواه بأقل من عنایتهم بكتبه ، فقد يجمعها غير واحد ، بل رأينا من كتب دروسه التي كان يعظ بها الناس في بغداد ، ورأيناهم يحفظون ما نقل عنه من القصائد المترفة (انظر نمرة ٢٤٣ ، ١٢٨ ، ٥٦٢ ، ٢٧٦٢ من فهرست دار الكتب المصرية) .

ولو رجعنا الى ما ألف في الوعظ والفقه في الأعصر الأخيرة لرأينا أكثر المؤلفين يرجعون الى الغزالى في أكثر الأبواب .

وقد أخبرنى صديقى عبد القوى أفندي الحلبي أن من النادر أن تنشأ مكتبة في أي قطر من الأقطار الإسلامية ، ولا تشتمل قائمتها على طائفة من كتب الغزالى في الفقه والأخلاق .

- ٥ -

علاقة الفقه بالأخلاق

وقد يبدو لأول نظرة ، أن لا صلة بين اهتمام العلماء بمؤلفاته في الفقه وبين تأثيرهم بما كتب في الأخلاق ، ولكننا لو عرفنا أن الروح السائدة في ذلك العصر كان يجمع بين الفقه والتتصوف ، لرأينا أن اهتمام المؤلفين بشرح مصنفات الغزالى إنما كان أثراً لا يمانهم بصلاحه وتقواه ، وقد كانت الأوساط الفقهية ولا تزال تعتقد أن لصلاح المؤلف تأثيراً في الاتناع بمؤلفاته ، ولو كتب في الحساب والنجوم .

أضف إلى هذا أن الغزالى نفسه كان يُعني بالفقه والتوحيد في مؤلفاته الأخلاقية ، فكأنه يرى هذين الفنين جزءاً أو مقدمة لعلم الأخلاق .

والذين عنوا بنقد كتبه انما التفتوا أيضا الى الوجهة الأخلاقية ؟ فالقضاة منهم كانوا يرون خطرا على الأخلاق ، لأنه يجاذب الشريعة ، وهي فيما يرون أساس الأخلاق . والفلسفه منهم كانوا يخافونه على الأخلاق ، لأن لها قواعد متينة تلقوها عن معلميهم ، وصاحبنا هذا يريد أن يأتي على تلك القواعد باذاته وساوس المتصوفة ، وقد وقع ما كانوا يحدرون .

- ٦ -

تأثير الاحياء

وليش قالوا في « الوجيز » ما قالوا ، ووضعوا عليه ما شاعوا من عشرات الشروح ، وفعلوا مثل ذلك أو قريبا منه في مؤلفاته في الفقه ، والتوحيد ، والأصول ، فان أبعد كتبه أثرا ، وأسيرها ذكرا ، وأبقاها على وجه الدهر ، هو كتابه « احياء علوم الدين » بلا جدال .

كتب الغزالى في الفقه ، ولكن لم يجدد مذهبه الا بمقدار ، فلم يشر فتنة . وكتب في النطق ، ولكنه لم يزد عن سواه غير الابانة والايضاح . وكتب في الأصول ، ولكن بحيث لا يشير الخصومة ، ولا يهيج اللدد . وكتب في الفلسفة . ولكنه لم يزد على أن تفني بليلي معاصريه . وكتب في التوحيد ، فلم يخالف الأشاعرة الا قليلا ، فظل مستور الحال .

وما كتب « الاحياء » حتى التفت الناس اليه من كل جانب ، وسار اسمه مسيير الشمس ، وشغلت به جميع القلوب ، شوقا اليه أو عتابا عليه ، أو بنضاً له ، أو رفقاً به . وقد شهد هذه الضجة ، وسمع هذه الصيحة ، وهو حى يرزق . وحاول أن يهدى ناقديه بكتاب يوضح فيه ما غمض في الاحياء ، وهو « الاملاء على اشكالات الاحياء » ولكنه فى الواقع لم

يزده الا اشكالا الى اشكالا فلنج الناس في المراء فوضع كتابه «المنهاج» على أن يكون موضع وفاق ، فكان في الواقع أيضا ضفتاً على ابالة ، ثم مات الغزالى قبل أن يحسن هذا النزاع ، فلم تهدأ العاصفة بمותו ، بل قامت قيمة الجدل بين تلامذته وبين خصومه ، ولا يزالون مختلفين !

ويمكن الحكم بأن الخصومة التي كانت بين أنصار الغزالى وبين خصومه كانت خصومة بين الشريعة والتتصوف ، فان أنصار الغزالى جميا صوفية ، أو شبه صوفية ، وخصومه جميرا من علماء الشريعة . وأبعدهم غورا في النيل منه هم المتتصدون للفتيا والقضاء .

فيينا نجد ابن القيم يرميه (بالتخليط والهذيان) نجد أبا الحسن الشاذلى يذكر أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه وقد باهى موسى وعيسى بالغزالى . وقال : أفى أمتكم حبر كهذا ؟ فقالا . لا ! ونجد أبا العباس المرسى يشهد له بالصدقية العظمى ! وليت شعرى ماهيه ؟

والفرق كبير بين من يرميه بالتخليط والهذيان وبين من يحمل بأن لا نظير له في أمة موسى وعيسى عليهمما السلام .

وقد قدمت لك شيئا من المنامات المتعلقة به ، وبيّنت مالها من أسباب ، وأزيد الآن أن كل هذه المنامات مسيبة عن « الاحياء » فهي تارة تقع لنقدي ذاك الكتاب ، وتارة تقع للمتعفين به من علماء الاسلام .

والذين أحرقوا « الاحياء » لم يحرقوه لأنه كتاب هين ؟ والذين ألفوا الكتب في نقه ، لم يفعلوا ذلك لأنه كتاب هين ؟ وإنما نقه هؤلاء ، وأحرقوه أولئك ، لأنه فيما يرون كتاب خطير ، وليكن خطرا على الاسلام والمسلمين ، وليكن كتاب شر وفتنة ، وليكن كتلة زندقة والحاد ، فهو على كل حال كتاب رهيب خشيه أولئك الناس ، وهذا ما يعنينا الآن .

وأشهر من نقه « الاحياء » الامام أبو عبد الله المازري المالكي

المتوفى سنة ٥٣٦ هـ وقد ناقشه السبكي في طبقاته ، فليرجع اليه من شاءه
ويتلخص نقد المازري في أن الفزالي غير ثقة فيما تعرض له من الفتنون ،
وأن كتابه (متعدد بين مذاهب الموجدين والفلسفه وأصحاب الاشارات)
ويتلخص رد السبكي في رمي المازري بالحسد والكيد للصوفية في شخص
الفزالي ، ومن نقه أبو الوليد الطرسوسي وتجده جملة من نقه في
الجزء الأول من شرح « الاحياء » للزبيدي . فلما الذين كتبوا في فضل
الاحياء فهم كثير : منهم الشيخ عبد القادر العيدروس ، وضع كتابا سماه :
« تعريف الاحياء » بفضائل الاحياء ، وفي أيدي الناس كتاب بعض
الفضلاء اسمه : « بغية القاصدين لفضائل احياء علوم الدين » .

وأطال السبكي في مدحه حتى نقل عن بعض المحققين أنه قال :
« لو لم يكن للناس في الكتب التي صنفها الفقهاء الجامعون في تصانيفهم
بين النقل والنظر والفكر والأثر غيره لكفى » ثم قال : « وهو من الكتب
التي ينبغي للمسلمين الاعتناء بها واشاعتتها ليهتدى بها كثير من الخلق ،
وقلما ينظر فيه ناظر الا ويتعذر به في الحال .

ويدل على مبلغ تأثير « الاحياء » عناده العلماء به ، فانا نجد الحافظ
الراقي خرج أحاديثه في كتابين : أحدهما كبير الحجم في مجلدين ،
وهو الذي صنفه في سنة ٧٥١ هـ ثم اختصره في مجلد وسماه « المغني عن
حمل الاسفار » . تم اتهى تلميذه شهاب الدين بن حجر العسقلاني
فاستدرك عليه مافاته في مجلد . ونصف الشيخ قاسم بن قططوبغا الحنفي
كتابا سماه : « تحفة الاحياء فيما فات من تخريج أحاديث الاحياء » وقد
سبقت كلمتنا فيما نقل السبكي من الأحاديث الموضوعة .

ومن اختصر « الاحياء » أبو الفتوح أحمد بن محمد الفزالي
المتوفى بقزوين سنة ٥٢٠ هـ وسماه « لباب الاحياء » وأحمد هذا هو أخوه
الفزالي . ثم اختصره أحمد بن موسى الموصلى المتوفى سنة ٥٦٢٢ هـ ثم
محمد بن سعيد اليمنى ، ويحيى بن أبي الخير اليمنى ، ومحمد بن عمر

ابن عثمان البلاخي وسماه «عين العلم وزين الحلم» (انظر نمرة ١٠٩ من فهرست دار الكتب المصرية) . واختصره عبد الوهاب بن علي الخطيب المراغي وسماه «باب الاحياء» واختصره الشمس محمد بن علي بن جعفر العجلوني المشهور بالبلائى شيخ خانقه سعيد السعداء بمصر المتوفى سنة

٨٢٠

واختصره ابن الجوزى في كتاب سماه : « منهاج القاصدين » ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية نمرة ١٦٧ .

وللحياء شرح مطول يقع في عشر مجلدات ، وفيما شاء الله من الصفحات ، ألفه الزبيدي ، وقد اعتمدت على هذا الشرح في تحقيق كثير من مواطن الخلاف .

ولم يقف الأمر عند شرح الاحياء ، واختصاره ، وتخريج أحاديثه ، بل وضعت الأبحاث المفردة ، لشرح كلمة وردت في الاحياء ، وهي : « ليس في الامكان ابداع مما كان » ومن شرح هذه الكلمة : عبد الوهاب الشعراوى ، وعبد الكريم الجليل ، ومحمد المغربي شيخ الجلال السيوطى ، وأحمد بن مبارك السجلماسى ، وأبو بكر بن عربى . ووضع ناصر الدين بن المير الاسكندرى رسالة في هذه المسألة سماها : « الضياء المتلائى » في تعقب الاحياء للغزالى » وفي مناقضة هذه الرسالة ألف السيد السمهودى رسالة تقع في سبعة كراسيس كما قال الزبيدي . وألف البرهان البقاعى رسالة في هذه المسألة سماها « تهذيم الأركان » وألف الجلال السيوطى رسالة ناقض بها البقاعى سماها « تشيد الأركان » .

- ٧ -

الانتفاع بهؤلفات الغزالى

ولقد تتبعت العصور التي تلت عصر الغزالى فوجدت الانتفاع بهؤلفاته ظاهرا كل الظهور في حياة علماء الدين والتصوف والأخلاق .

ولقد رأيت من بينهم من يحفظ كتاب الاحياء عن ظهر قلب . ورأيت منهم من كان يقرب الى الله بنسخ هذا الكتاب . وتتجدد في ص ٦٩ ج ٣ من « خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادى عشر » مظهراً لأثر الفرزالي في ذلك العصر ، اذ تجد من العلماء من يتخذ ورداً من الاحياء كما يتخذ ورداً من القرآن ولو لا خوف الاطالة لضررت للقاريء عشرات الأمثال .

وفي العصر الحاضر يدرس كتاب الاحياء في الأزهر والمعاهد الدينية ، وكان الأستاذ الشيخ محمد عبده قرر أن يدرس معه كتاب ابن مسکویہ فی تهذیب الأخلاق ، ولكن رأى العلماء فيه آراء فلسفية ، فقرروا لذلك حذفه ، ثلاثة يفسد الطلاب .

والأستاذ الشيخ يوسف الدجوى ينصح للامذته دائمًا بالاتقىاع
بكتاب الاحياء . و كنت من أوصاهم بذلك ، ولكن الله لم يشاً أن أكون
كما أراد الأستاذ ، فقد رأيت كيف صورت الفزالي بصورة الرجل الذى
قد يخطىء وقد يصيب ، وهذا من مثلى كثير !

وأثر الغزالى ظاهر فى مؤلفات الشيخ الدجوى ، وهو أيضا سبب ضعف تلك المؤلفات : فان كتاب « سبيل السعادة » الذى وضعه الأستاذ منذ بعض سنين يشبه أن يكون خلاصة مشوهه للأراء الحديثة فى فهم أصول الأخلاق ، وفضيلة الشيخ مذكور لأنها لا يعرف لغة أجنبية ، ولأنه يبغض المدنية الحديثة من أعماق صدره، ويستبعد الاهتداء بأراء الفلسفه الحديث !

ويمكن الحكم بأن دراسة كتاب الاحياء في الأزهر مجرد من آراء المفكرين في نقده ، وتميز عنده من سميته ، كانت السبب في افساد العقلية الازهرية ، وجعلها غير صالحة لأن تسمى بأصحابها إلى الطمع في أن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

والأمل كبير في أن يصل هذا الصوت إلى من يدهم الأمر في

الازهر والمعاهد الدينية : فيغيروا ذلك النهج القديم في دراسة الأخلاق،
فإن في الأزهر ولو احتجه نحو عشرين ألفاً من الطلبة تميّthem تلك المذاهب
البالية ، التي يعولون عليها في فهم نزعات النفوس ، وخلجات القلوب .
وسبحان من لو شاء لهداانا واياهم سواء السبيل !

- ٨ -

عنية الأجانب بالغزالى

ومما يتصل بتأثير الغزالى في الحياة العلمية ، عنية الأجانب به :
فقد كتبت عنه عدة مؤلفات : بالفرنسية ، والإنجليزية ، والألمانية .
ومنهم من يتصبّ له فوق ما يفعل المسلمون . ويعده الدكتور زويمر
واحداً من أربعة ويقول : « كل باحث في تاريخ الإسلام يلتقي بأربعة
من أولئك الفطاحل العظام . وهم محمد بن المسلمين نفسه ، والبخاري ،
والأشعرى ، والغزالى » .

والدكتور زويمر من المستشرقين الانجليز الذين درسوا العقليّة
الشرقية ، وكتابه عن الغزالى من الكتب القيمة ؟ وتتجدد فيه من مظاهر
العنية بالغزالى ما كتبه عن قبره ، نقلاً عن خطاب وصله من القسن
دونالدسن في ١٧ يناير سنة ١٩١٧ ، وقد زار قبر الغزالى ووجد في
أحدى زوايا الحجر كلمة (غزالى) و (بوجا) وأصلها بالطبع أبوحامد .
وهذا هو الرسم الذي أرسله قس دونالدسن إلى الدكتور زويمر عن قبر
الغزالى .

ومن أجود ما كتب بالفرنسية عن الغزالى كتاب *Carra de Vaux* والمسيو « كارادي فو » هذا رجل خبير بالحياة الإسلامية ، وله كتاب عن
ابن سينا أحب أن يطلع عليه من يود أن يعرف شيئاً عن المدارس
الفلسفية عند المسلمين ، وانى لآسف حين أقر أن المستشرقين يفهمون

مذاهب أهل السنة والمعزلة أكثر من علماء الأزهر الذين اذا عرض لهم ذكر المعزلة لم يزيدوا على أن يقولوا (قبحهم الله) وقد أخبرني حضرة الأستاذ الدكتور طه حسين أن المسيو كازانوفا وضع كتاباً عن الغزالى ، وانى لللوم فى أن غفلت عن هذا الكتاب ، فان الطريقة التى جرى عليها المسيو كازانوفا فى كتابه « محمد ونهاية العالم » طريقة تغنى الباحث بتعقب ما يكتب هذا الرجل الدقيق . وآسف أيضاً على أن الظروف لاتسمح بأن أترجم شيئاً من آراء هذا الرجل ، لأن البحث العلمي عنده فوق كل مقام . وإنما أدعى من يحب الاطلاع الى مراجعة *Mohamed et la fin du monde* فان فيه من المباحث ما يواتي شهوات العقول ، وللمقول شهوات !! .

وهناك كتاب للمسيو Moher موضوعه :

Etudes sur la philosophie d'Averroës concernant son rapport avec celle d'Avicenne et Gazali

ويحسن الرجوع الى المقدمة التى وضعها المسيو Lucien Gautier حين نقل « الدرة الفاخرة » الى الفرنسوية *Traité d'eschatologie* ويسعى الاطلاع على *الجزء التاسع من المجموعة musulmane* السابعة من *Journal asiatique* وفي مقدور القارئ أن يرجع الى *Encyclopédie de l'Islam 20 Livre* اذا أراد أن يعرف ما كتب عن الغزالى بالفرنسية والإنجليزية والألمانية . وقد أخبرني حضرة الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرزاق أنه علم أن في اللغة التركية عدة مؤلفات عن الغزالى . وأحسب أن السبيل اليها ممهد لمن شاء .

وأحب أن يعييني القارئ من تفصيل ما أعرف عن نظر المستشرقين الى الغزالى ومذاهبه الصوفية ، فلن مضطر الى الاكتفاء بارشاده الى طريق الاطلاع .

الفوز للحياة

وبالرغم من تأثير الغزالي في الشرق والغرب ، وتغلفه في أعماق الحياة العلمية ، فإن الفوز فيما يظهر لن يكون لآرائه في الأخلاق . ولكن سيكون الفوز للحياة .

ألا ان الأخلاق كالشرائع . فكما تنهزم الشريعة أمام الحياة ، كما انهزمت المسيحية لخروجها على ما للحياة من قوانين ، كذلك تنهزم الأخلاق أمام الحياة ، حين تخلو عما في الحياة من عناصر وأصول .

وهكذا انهزم الغزالي حين نازل الحياة !

حرم النقش والتصوير ، ولكن النزعات البشرية مشت في طريقها يقوة . ولم تصدق عن التقوش وال تصاوير !

وحرم الغباء . ولكن مشت الأذواق في سبيلها بقوه ، ولم تزل ظامنة الى الأنفاس والألحان !

وليته حين حرم النقش والتصوير والغباء ، وضع لذلك عللاً معقوله ! ولكنه حرم التصوير لأنه يدعو الى الوثنية ، وهذا كذب على الواقع ، فطالما أحينا تهاويا الصور ، ولم نفكر في الوثنية . وحرم الغباء لأنه يدعو الى شرب الخمر . وهذا ظن مردود ، فطالما سمعنا عبد اللطيف أفندي البناء وابراهيم أفندي القباني والشيخ عبد السميع عيسى ، ولم نفكر في الخمر ، ولا في مجالس الخمر !!

ليست الأخلاق شيئا آخر غير مناهج الحياة . والأخلاق التي تبني بها الأمم ليست ما يعرفه الغزالي من التواضع ، والتوكّل ، والخمول ، وإنما هي فهم قوانين الحياة وأحب أن أكرر كلمة الحياة : لأنها عندي نهاية الأخلاق .

والفضائل السلبية كالصبر ، والزهد ، والقناعة ، لن تكون فضائل

حتى تقضى الظروف باعتبارها أسلحة ماضية في سبيل الحياة • فقد يكون
الخمول من أسباب النهاية وذبوع الشهرة ، كما يكون الصيت أحياناً من
أسباب الخمول •

ولا قيمة للحياة بغير القوة • فيجب أن تكون الأخلاق باباً إلى الحياة
القوية • وطالما شكت في قوله عليه السلام : « اللهم أحيني مسكينا ،
وأمسي مسكينا • واحشرني في زمرة المساكين » !

الباب الثاني عشر

في أنصار الغزالى وخصومه

قدمنا أن الخصومة كان مثارها الفرق بين الفقه والتصوف ، وأن أنصار الغزالى كانوا في الأغلب صوفية ، وأن خصومه كانوا في الأكثر من الفقهاء . ونريد الآن أن ننقلك على ترجمة طائفية من أنصار الغزالى وخصومه ، ونبين بجانب ذلك شيئاً مما اختص به أولئك العلماء الذين حاربوا الغزالى أو أيدوه ، لنمهد لك السبيل إلى فهم الحركة العقلية التي أوجدتها مؤلفات الغزالى ، وسيلنا الإيجاز في هذا الباب ، لأن المقام لا يسمح بالتطويل .

ابن رشد

ولد في قرطبة سنة ٥٩٥ هـ ١١٢٦ مـ ودرس في صغره الفقه والتوحيد والأصول . ثم أقبل على دراسة الطب والفلسفة . وكان له بسبب علمه وفضله عدد من الحساد يتقولون عليه الأفوايل . توفى رحمه الله بمراكن في أوائل سنة ٥٩٥ هـ بعد أن ذاق الأمرين من نهى واضطهاد ، جزاء ما قدمت يداه من شرح فلسفة القدماء !

والذى يقرأ حياة ابن رشد ، ويرى ما لقيه في زمانه ، يعلم أن العرب كانوا يُمحضرون ، وأن دولتهم كانت تمثى إلى الفناء ، لأن الذين يحاربون الفكر الحر ، ويضطهدون المفكرين الأحرار ، لا يصلحون مطلقاً للحياة . وكذلك دالت دولة العرب بعد قليل .
وخصومة ابن رشد للغزالى تكاد تكون فلسفية ، فقد وضع الغزالى

كتابا سماه « تهافت الفلاسفة » ، والغرض من الكتاب ظاهر من عنوانه ، فعارضه ابن رشد بكتاب سماه « تهافت التهافت » ، والذى يهمنى من معارضة ابن رشد للغزالى انما هو دفاعه عن ابن سينا والفارابى ، فقد كان الغزالى يراهما من الكفار .

ويتلخص دفاع ابن رشد فى أن مسألة قدم العالم وحدوده التى كانت متار الخلاف ، اىما كان الاختلاف فيما بين المتكلمين من الاشعرية وبين الحكماء المتقدمين يكاد يكون راجعا لاختلاف فى التسمية وبخاصة عند بعض القدماء . فان هناك ثلاثة أصناف من الموجودات طرفاً وواسطة بين الطرفين . وقد انفقوا في الطرفين واحتلقو في الواسطة . اما الطرف الاول فهو موجود وجده عن شيء ومن شيء ، اي عن سبب فاعل ومن مادة ، والزمان متقدم على وجوده وهذه هي حال الاجسام التي يدرك تكونها بالحس مثل الماء والهواء والأرض والحيوان والنبات . وهذا الصنف اتفق الجميع على أنه محدث . وأما الطرف المقابل لهذا فهو موجود لم يكن من شيء ولا عن شيء ولا تقدمه زمان . وهذا الصنف اتفق الجميع على أنه قديم وهو الله . وأما الصنف الثالث فهو موجود لم يكن من شيء ولا تقدمه زمان ، ولكنه موجود عن شيء أي عن فاعل ، وهذا هو العالم باسره . والكل متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم ، فان المتكلمين يسلمون بان الزمان غير متقدم عليه لأن الزمان عندهم شيء مقارن للحركات والاجسام ، وهم أيضا متفقون مع القدماء على ان الزمان المستقبل غير متاه وكذلك الوجود المستقبل ، وانما يختلفون في الزمان الماضي والوجود الماضي فالمتكلمون يرون أنه متاه ، وهذا هو مذهب أفلاطون وشيعته وأرسطو وفرقته يرون أنه غير متاه كال الحال في المستقبل . يقول ابن رشد : « فهذا الوجود الأخير الأمر فيه بين أنه قد أخذ شبهًا من الوجود الكائن الحقيقى ومن الوجود القديم . فمن غالب عليه ما فيه من شبه القديم على ما فيه من شبه المحدث سماه قديما . ومن غالب عليه ما فيه من

تبه المحدث سماه محدثاً • وهو في الحقيقة ليس محدثاً حقيقياً ولا قد يدعا
حقيراً • فالمذاهب في العالم ليست تباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها ولا
يُكفر ، فان الآراء التي شأنها هذا يجب أن تكون في الغاية من التباعد ،
أعني أن تكون متقابلة كما ظن المتكلمون في هذه المسألة » .

ولم يقف ابن رشد عند هذا الحد ، بل انتقل إلى كلام هو في الواقع
صفع لأدعية العلم الذين يحسبون قدم العالم وحدوده من الأمور الهيبة
التي يصدرون عنها الفتوى كأنها مسألة طلاق !! وعليك ما يقول في ذلك:

« مع أن هذه الآراء في العالم ليست على ظاهر الشرع ، فان ظاهر
الشرع اذا تصفح ظهر في الآيات الواردة في الانباء عن ايجاد العالم أن
صورته محدثة بالحقيقة • وأن نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين
أعني غير منقطع • وذلك أن قوله تعالى : (وهو الذي خلق السموات
والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) • يقتضي بظاهره وجوداً
قبل هذا الوجود ، وهو العرش والماء ، وزماناً قبل هذا الزمان ، أعني
المترن بصورة هذا الوجود ، الذي هو عدد حركة الفلك • وقوله
تعالى : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) • يقتضي بظاهره
وجوداً ثانياً بعد هذا الوجود • وقوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهي
دخان) • يقتضي بظاهره أن السموات خلقت من شيء » .

وهناك صفحة ثانية تفضل بها ابن رشد على علماء التوحيد • ذلك
بأن هؤلاء القوم يختلفون من الأساليب والاصطلاحات مالا يعرفه الدين ،
نم يقولون : من تعدى هذه الحدود فهو كافر « فما لهؤلاء القوم لا يكادون
يُفهون حديثاً » !؟

واليك ما يقول ابن رشد في ذلك :

« والمتكلمون ليسوا في قولهم أيضاً في العالم على ظاهر الشرع ،

بل متأوليون ، فإنه ليس في الشرع أن الله كان موجوداً مع العدم المحسن ، ولا يوجد هذا فيه نصاً أبداً ، فكيف يتصور في تأويل المتكلمين في هذه الآيات أن الاجماع انعقد عليه ؟ ثم قال : والظاهر الذي قلناه من الشرع في وجود العالم قد قال به فرقة من الحكماء . ويشبه أن يكون المخالفون في هذه المسائل العويسقة اما مصيّبين مأجورين ، واما مخطئين معذورين فان التصديق بالشيء من قبل الدليل القائم في النفس هو شيء اضطراري لا اختياري ، أعني أنه ليس لنا أن نصدق أو لا نصدق ، كما لنا أن نقوم أو لا نقوم ، وإذا كان من شرط التكليف الاختيار ، فالمصدق بالخطأ من قبل شبيهة عرضت له إذا كان من أهل العلم معذور ، ولذلك قال عليه السلام : « اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وان أخطأ فله أجر » .

وبمناسبة كلام ابن رشد نقرر أن علماء التوحيد أسرفوا في تكفير الفلسفه بل أسرفوا في تكير بعضهم البعض ، بأسباب ضعيفة لا يعرفها الاسلام ، وما زالوا يسرفون حتى حفظ عنهم الرأي العام جملة تعبير هي مناط الكفر والايمان . وفي كتاب « فيصل التفرقة » للغزالى مظہر لهذه الآراء الفاسدة التي ظنها الأولون حقائق ، وهي في الواقع أباطيل .

والذى أراه أن مجازفة علماء التوحيد في الحكم بحدوث العالم ، وفي وصف الله بصفات معينة محدودة ، وفي تعين مصير العالم بشكل خاص ، كل أولئك يدل على أن هؤلاء الناس كانوا في غاية السذاجة ، وأن نظرهم كان غير بعيد . وستسخر المقادير منهم يوم تطوى كتبهم وأراؤهم ، ويدخلون فيما يسمى قبل التاريخ ، كما دخل من قبلهم ألف الألوف من أصحاب الشرائع والقوانين .

ابن تيمية

ولد بحران يوم الاثنين عاشر ربيع الأول سنة ٥٦٦ . وقدم به والده إلى دمشق في سنة ٥٦٧ حين استولى التتار على حزان . وقد تلقى

عن والده الفقه والأصول، ثم عنى بالنظر في الحساب والجبر والفلسفة، وتقديم للتدريس وسنه دون العشرين . وقد بلغت مصنفاته ثلاثة مصنف . منها تعارض العقل والنقد والجواب الصحيح في الرد على النصارى وأئمـاتـ المعـادـ والـردـ عـلـىـ ابنـ سـيـنـاـ وـأـيـاتـ الصـفـاتـ وـالـردـ عـلـىـ الـإـامـيـةـ ٠٠٠ النـ

قال الحافظ ابن كثير : وفي رجب سنة ٧٠٤ هـ راح الشيخ تقى الدين بن تيمية إلى مسجد الفارنجي وأمر أصحابه وتلامذته بقطع صخرة كانت تزار وينذر لها هناك . فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها ، فازال عن المسلمين شبهة كان شرها عظيماً . وبهذا وأمثاله أبرزوا له العداوة . وكذلك بكلامه في ابن عربى وأتباعه ، فحسد وعودى ، ومع هذا لا تأخذنـهـ فـىـ اللهـ لـوـمـهـ لـائـمـ ، وـلـمـ يـبـالـ بـمـنـ عـادـهـ . وـلـمـ يـصـلـوـ إـلـيـهـ بـمـكـروـهـ . وـأـكـثـرـ ماـ نـالـوـ مـنـهـ الـجـسـ ، معـ أـنـهـ لـمـ يـنـقـطـعـ عـنـ الـبـحـثـ لـاـ بـمـصـرـ وـلـاـ بـالـشـامـ .

وكان ابن تيمية كثيراً ما ينشد هذه الأبيات :

لو لم تكن لي في القلوب مهابة^{١)}
لم يطعن الأعداء فيَّ ويدحوا
كالليث لما هيب خط له الربى^(١)
وعوت لهيته الكلاب النبع
يرموتنى شزر العيون لأننى
غلست في طلب العلاج وصبحوا

وقد توفي رحمة الله في صباح الاثنين عاشر ذي القعدة سنة ٧٢٨ هـ وهو في السجن . فأخرج إلى الجامع في يوم مشهود لم يعهد في دمشق مثله ، وقد تبرك الناس بما غسله ، و Ashton الزحام على نعشـهـ ، ودفن بمقابر الصوفية بعد أن صلوا عليه مراراً ، وقدر من حضر جنازـتهـ من الرجال بمائـىـ أـلـفـ وـمـنـ النـسـاءـ بـخـمـسـةـ عـشـرـ أـلـفـ وـرـثـاءـ كـثـيرـ منـ الـعـلـمـاءـ مـنـهـمـ ابن الوردى .

١) الربى : جمع زيبة وهي الحفرة .

والذى يعود الى ترجمة ابن تيمية فى الكتب التى عنى مؤلفوها بترجمته يعرف كثيرا عن العقلية الاسلامية فى القرن الثامن ، ويكتفى أن نلفت القارئ الى قولهم « ودفن بمقابر الصوفية » فان لذلك معانى لاتقرب عن ذهن الليب ، وما أزيد أن أزيد .

وابن تيمية من كبار المفكرين فى الاسلام ، ولكنه لا يخلو من سذاجة . فانك بينما تراه يتغلب فى المدركات المعقولة ، تراه ينحدر فجأة فى هاوية الأوهام . من ذلك قوله « العلماء هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم فى ظلمات البر والبحر . وفд أجمع المسلمين على هدايتهم ودرايتهم ، اذ كل أمة قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم فعلماؤها شرارها الا المسلمين فان علماءهم خيارهم ^(١) » وهذا بالطبع حكم لا سند له من معقول ، أو منقول .

ويعد ابن تيمية من خصوم الغزالى لأنه كتب فصولا كثيرة فى تناقضه ، وتسويقه بعض آرائه . ومن أعجب ما رأيت له ، حكمه بأن الغزالى هجر طريق الصوفية فى آخريات أيامه ، وفي ذلك يقول : « ولهذا تبين له فى آخر عمره أن طريق الصوفية لا تحصل مقصوده فطلب الهدى من طريق الآثار النبوية ، وأخذ يشتغل بالبخارى فمسلم ومات فى أثناء ذلك على أحسن أحواله ، وكان كارها ما وقع فى كتبه من نحو هذه الأمور مما أنكره الناس عليه . »

وأنا لا أستبعد كلام ابن تيمية ، فان الغزالى كان متقلبًا فى آرائه لا يستقر على حال . فهو تارة فقيه ، وتارة صوفي ، وتارة فيلسوف . وسبب هجوم ابن تيمية على الصوفية أنه رأى منهم من يفضل الولى على النبي ، كما رأى من الفلاسفة من يفضل الفيلسوف على النبي . فانها نراه يمدح ابن سينا لأنه يفضل النبي على الفيلسوف ، ويسمى طريقه

(١) انظر مقدمة وضع الملام .

طريق العلاء ، ويذم الفارابي لأنّه يفضل الفيلسوف على النبي ، ويسمى طريقه طريق الغلاة . ويذم محيي الدين بن عربى لأنّه كان يدعى أنه كان يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى النبي ، لأنّ الملك على أصلهم هو الحال الذي في نفس النبي ، والنبي في زعمهم يأخذ عن ذلك الحال ، والحال يأخذ عن العقل ، فهو على ذلك أفضل من النبي لأنّه لا يحتاج إلى وسيط .

وأحب أن أنبئ القارئ إلى أنّما أذكر تاريخ فكرة من الأفكار الإسلامية ، لا أكثر ولا أقل ، والمؤرخ غير مسئول .

ابن القيم

هو من تلامذة ابن تيمية . ولد في سنة ٥٧١ هـ وتوفي سنة ٥٩١هـ لقي في حياته ضرباً من الشدة بسبب آرائه الحرجة . فقد جبس مدة لأنكاره أن تشد الرحال إلى قبر الخليل . وقد جبس مع ابن تيمية في المدة الأخيرة ، ولم يفرج عنه إلا بعد موته . وله عدة تصانيف . منها «مدارج السالكين» ، و«شرح أسماء الكتاب العزيز» ، و«نقد المقول» ، «والمحك المميز بين المردود والمقبول» ، و«أعلام المؤمنين»
وابن القيم هذا من ألد خصوم الغزالى ، وقد نقلنا جملة من آرائه حين تكلمنا عن أغلاط الاحياء ، فلا نعود إليها الآن .

وأكرر ما قلته من أنّى أوجز كل الإيجاز في هذا الباب . فلهؤلاء الذين أترجمهم آراء هي غاية في الخطورة ، من حيث ما فيها من الدقة ، ومن الجرأة ، مع أنّهم فيما أرى كانوا يبالغون في الاحتياط ، لأنّ العالم الإسلامي كان يضطهد الفلسفه اذ ذاك . ولو سمح لنا الدهر بوضع كتاب في الفلسفة الإسلامية لاستطعنا أن نرفع عن هؤلاء الأفذاذ آثار الخمول .

السبكي

هو تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقى الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١ هـ والسبكي هذا من كبار المؤلفين وكتابه « جمع الجوامع » فى الأصول يدل على نده وكتابه فى سبيل العسلم ، وان كان غاية فى اللبس والغموض وكتابه « طبقات الشافعية الكبرى » كتاب جيد ، من حيث ما فيه من عيون المسائل الفقهية ، ومن حيث الترتيب . وعيوب السبكي يرجع الى ضعفه فى النقد والتمييز ، ولو خلت كتبه من الآراء التى اعتمد فيها على ذاكرته فقط ، لكان لها شأن كبير .

ويعتبر السبكي من أنصار الفزالي ، وقد كتب عنه فى الطبقات أكثر من ثمانين صفحة ، « دفاع عن دفاع الأبطال » حين عرض لخصومه . وهو يعتقد بكل سذاجة أنه لو لم يكن لدى المسلمين غير كتاب الإحياء لكفى !! وما أريد أن أطيل فى الكلام عن السبكي ، فقد عرضنا له عدة مرات .

الزبيدي

هو محمد بن محمد الحسيني الزبيدي و هو من علماء القرن الثاني عشر ، وقد وضع شرحاً مطولاً للإحياء فى عشر مجلدات ، انتهى من تأليف الجزء الأول منه فى يوم الجمعة ٢٥ محرم سنة ١١٩٣ هـ . وفي هذا الجزء كتب دفاعه عن الفزالي .

وهو من أشد أنصار الفزالي ، ولكن دفاعه عنه دفاع سخيف ، لا قيمة له ، لا فى نظر الشرع ولا فى نظر العقل . من ذلك قوله فى تأييد ما يراه الفزالي من أن الزواج ميل الى الدنيا :

« وأما كون التزويع من جملة الميل الى الدنيا فهو ظاهر ، لأنه فى الغالب يتطلب للاستمتاع : وذلك لا يحصل الا بالوقوع فى الآفات التى كان

عنها بمعزل أيام عزوبته ، لا سيما ان كان متجردا عن القيام بالأسباب التي تجلب له أمر معاشه فإنه يتلف بالكلية ، ويلزمه الرياء لكل من أحسن إليه بلقمة أو خرقة أو غيرهما فأبغض الخلق إليه من يخدمه عنده خوفا من أن يتغير اعتقاده فيه فيقطع عنه بره فكأن عبادة هذا كلها لأجل الذي أحسن إليه » .

وهذا كلام غير مفهوم في الواقع ، فضلا عن أن يكون دفاعا عن رأى يرى الناس أنه غير صواب .

الباب الثالث عشر

في الموزنة بين الغزالي وبين الفلسفة المحدثين

هذا باب اذا أطلته طال ، لأن لآراء الغزالى أشباهها كثيرة ، في الفلسفة الحديثة ، وتحملنى الرغبة في الإيجاز على الاكتفاء بأهم وجوه المقابلة بينه وبين الفلسفة المحدثين . وحسبى أن أدل القارئ على كيفية السير فى هذا الطريق .

- ١ -

Descartes الغزالى وديكارت

أقرب الفلاسفة شبيها بالغزالى هو « ديكارت » لأنه ارتاد كما ارتاد الغزالى ، وبقى فى شكه وارتباته زمنا غير قليل .

ولد « ديكارت » فى لاهى سنة ١٥٩٦ م آى بعد الغزالى ب نحو ٥٣٠ سنة . تلقى العلم فى مدرسة يسوعية ، كأكثر الأطفال لعنه ، وحمله جده ونشاطه على دراسة اللغات القديمة ، والأساطير والتاريخ ، والبلاغة ، والشعر ، والرياضيات ، والأخلاق ، واللاهوت . ولم يقنع بذلك ، بل قرأ كل ما وقع فى يده من نادر المؤلفات ، كما حدث عن نفسه . ورحل إلى باريس فى السادسة عشرة من عمره ، وتطوع فى الجندية ، وعمل عدة سياحات فى ألمانيا ، والسويد ، والدانمارك ، ثم استقر فى هولندا ، حيث رأى الاقامة فيها أفعى لنشر آرائه بحرية لم تسمح بها فرنسا اذ ذاك .

وبعد أن أقام في هولنده عشرين سنة ، مكتبا على وضع مذهبه ، دعوه كريستين ملكة السويد لتلقى عنده العلم ، ولكنه لم يتحمل برد تلك البلاد ، فقضى نحبه في سنة ١٦٥٠ بعد أن أمضى نحو سنة في ستوكهلم ثم حملت جثته إلى فرنسا في سنة ١٦٦٧ ودفن بكنيسة Saint-Etienne

مؤلفات ديكارت

يعتبر ديكارت في نظر مؤرخي الآداب الفرنسوية أول رجل عبر عن آراءه الفلسفية بلغة واضحة ، وجعل لغة الفرنسيين لغة فلسفية ، بعد أن كان الفلاسفة من قبله يكتبون فلسفتهم باللغة اللاتينية • وأهم ما يعنينا من مؤلفاته •

Règles pour la direction de l'esprit	أولاً -
Discours de la méthode	ثانياً -
Méditations métaphysiques	ثالثاً -
Les principes de la philosophie	رابعاً -
Les passions de l'âme	خامساً -

ففي هذه المؤلفات بسط ديكارت آراءه الفلسفية • فيرجع إليها من شاء ، فإنه لا يوجد عنه شيء مقنع بالعربية •

شكوك ديكارت

وكم ارتاب الغزالي حين رأى صبيان النصارى لا نشوء لهم إلا على التنصير ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام ، فقد ارتاب ديكارت حين رأى شيوخ التقليد ، ورأى الناس في الأكثر أما أن يكونوا ضعفاء لا يقدرون على تمييز الحق من الباطل ، فيتبعوا آراء غيرهم بلا بصيرة ، وماما أن يكونوا أقوىاء

فيسرعوا الى الحكم ثقة بقوتهم ، فإذا شكوا بعد ذلك ، فقد لا يهتدون الى سواء السبيل .

ومما حمل ديكارت على الشك ، ما رأه في أسفاره من اختلاف العادات والأراء ، وتبين العقائد والمدركات ، وما تبنته من تأثير التربية ، في التفرقة بين أخلاق الشعوب .

وأهم ما تبته له في رحلاته ، الشك في قيمة الرأى العام ، والاستهانة بكثرة الأصوات . لأن اجماع الامة على رأى ، لا يدل على أنه رأى الامة ، فقد يكون رأى فرد واحد ، حُملت عليه الامة لسبب من الأسباب .

وآراء الفلاسفة كانت مما حمل « ديكارت » على الارتياب ، اذ قلما يوجد رأى غريب بعيد التصديق الا وقد قال به فيلسوف .

ولكن ديكارت كان في ارتياه أصرح من الغزالي . فيینما نجد الغزالي يحدتنا بأنه دام قریبا من شهرين على مذهب السفسطة « بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال » أي أنه لم يكتشف الناس بشكه الا حين أجمعوا أو كادوا يجتمعون على تقدیسه ، نجد ديكارت يتطلب الأماكن الصالحة لنشر شكوكه ، ونجد أنه يحكم ببطلان الآراء التي بنى عليها آراءه حين ظنها حقة ، وبوجوب التخلی مرة واحدة عن جميع آرائه ، ليضع بناء جديدا على أساس جديد .

ونرى الغزالي شك في المحسوسات ، لأنه ينظر الى الظل فيراه وافقا لا يتحرك ، فيحكم بإنفي الحركة ، ثم يعرف بالتجربة والمشاهدة ، انه يتحرك ولكن بالتدريج . ثم نراه هم بالشك في المقليات ، لأنه يعتقد في النوم أمورا ، ويتخيل أحوالا يعتقد لها ثباتا واستقرارا ، ثم يستيقظ فيعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاته وعتقداته أصل ، فيسأل : بم تأمن أن يكون جميع ما تعتقد في يقظتك بحسن أو عقل هو حق بالإضافة الى حالتك ،

وقد يمكن أن تطأً عليك حالة أخرى تكون نسبتها إلى يقظتك كسبة يقظتك إلى منامك؟

كذلك نجد ديكارت يقرر أن الأشياء التي سلم بأنها أثبتت من غيرها وأصح، إنما كان اعتمد في صحتها وبنائها على الحواس، وقد تبين غير مرة أن الحواس خداعة – وهو كذلك يرى في نومه تصورات يعلم حين يستيقظ أنها باطلة، فمن أين يعرف فضل اليقظة على النام، أو فضل النام على اليقظة، وهو في كليهما مضللاً مخدوعاً؟!

الفرق بين الغزالى وديكارت

الفرق عظيم جداً بين الغزالى وديكارت، فإن الغزالى خرج من شكه بطريقة لا تصل بأحد إلى يقين، خرج من شكه بنور الله، ونور الله هذا لا يعرفه العلم، حتى يضممه إلى ما لديه من أصول، والغزالى نفسه يشعر بذلك، فقد نراه يحكم بأن من ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة، فقد ضيق رحمة الله الواسعة، وينقل أن رسول الله لما سُئل عن «الشرح» ومعنىه في قوله تعالى: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) قال: نور يقذفه الله في القلب فيشرح به الصدر، فقيل وما علامته؟ قال: التجافى عن دار الغرور، والانابة إلى دار الخلود، يقول الغزالى: وهو الذي قال صلى الله عليه وسلم فيه (إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة نم درش عليهم من نوره) فمن ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف! ..

وما دام الغزالى لم يرجع عن شكه «بنظم دليل وترتيب كلام» كما قال، فمن العبث أن نستعين العقل والمنطق لخرج من ظلمات الشكوك، وهذا ينافق كل المناقضة ما فعله ديكارت للخروج من شكوكه، وكذلك كان الغزالى سبباً لخسoda الفلسفية في الشرق كما كان «ديكارت» سبباً لنهايتها في الغرب ..

اسلوب ديكارت

لم ير ديكارت من الحكمة أن يخرج على ما في بلاده من عادات وقوانين ، بل رأى من الخير أن يحافظ على الدين الذي نشأ عليه ، وأن يسير على أكثر الأمور قبولاً واعتدالاً عند أهل عصره ، حتى يتمكن من وضع مذهبة في طمأنينة وسكون .

ويقول بول جانيه Paul Janet ان ديكارت حين اقتنع بعدم كفاية العلوم المعروفة لعصره ، لم يركن الى الارتياب كما فعل موتنيني Montaigne بل رأى من الواجب أن يبني صرح العلم على أساس جديد . وكذلك يمكن أن نقول ان الغزال انهزم أمام شكوكه ، ولكنه لم يركن الى الارتياب كما فعل موتنيني ، ولم يفكر في وضع العلم على أساس جديد كما فعل ديكارت ، ولكنه انتظر هداية الله ، والله يهدى من يشاء !

وأول ما يبدأ به « ديكارت » هو الدعوة الى بنذ الكتب وتحكيم العقل ، لأنه يرى أن المؤلفات التي تتطوى على مختلف الآراء ، ليست أقرب الى الحقيقة من التعقلات البسيطة التي يقوم بها رجل سليم الذوق ، وقد لسن الأشياء بيديه . والمهم عنده أن تحسن التفكير ، لا أن تعرف كيف فكر الناس . والبناء الذي قام به مهندس واحد ، خير عنده من البناء الذي يقوم به عدد من المهندسين ، فان وحدة الذوق من موجبات الجمال .

ويرى « ديكارت » أنه لوضع فلسفة جديدة ، يجب أن يوضع أسلوب جديد . والأسلوب المختار لديه هو الأسلوب الرياضي ، لأنه يعصم الفكر عن الخطأ والضلal .

وقد وضع لأسلوبه هذه القواعد الأربع :

أولاً - لا يصح قبول شيء على أنه حق ، ما لم يعرف (ما هو) بغاية الوضوح .

- ثانيا - تقسم كل مسألة صعبة الى ما يمكن أن تستمن عليه من الأجزاء ، تكون ادراكها سهل المنال ٠
- ثالثا - ترتيب التفكير ، والابتداء بالموضوعات السهلة البسيطة ، للوصول الى الموضوعات المركبة ٠
- رابعا - فرض نظام في الموضوعات التي لا يسبق بعضها بعضا في الطبع ٠

يقول « بول جانيه » : « ولهذه القواعد الأربع في ذهن ديكارت معنى جد محدود ٠ والقاعدة الأولى تظهر كأنها عادلة ، وليس كذلك ، فإن أفعال كل سلطة ، واقرار الاستقلال المطلق للعقل ، كان في أوائل القرن السابع عشر جرأة وبدعة ^(١) ٠

ومن جانب آخر ينبغي أن نفهم كلمة (وضوح) فإن كل ما نعتقد بقوه ليس واضحا ، والأجل وضوحة ينبغي أن يخلص العقل من كل تأثير للحواس والخيال ، ليدرك الأفكار بوضوح وتميز ، فإن مدركات الحواس مختلطة ، والآراء المعقولة هي التي تولد من أعماق العقل واضحة مميزة ٠ وكذلك لا يوجد واضح محسوس ، اذ كل واضح معقول ٠

والجارحة التي تدرك الحقيقة مباشرة هي البصيرة *intuition* لا يريد بها ديكارت ما يتغير من أحکام الحواس والخيال ، وإنما يريد بها ادراك العقل السليم اليقظ : الادراك السهل الواضح الذي لا يتطرق اليه أى شك ، الادراك الحازم الذي يولد فقط من أصوات العقل ٠

وبموجب هذه البصيرة يستطيع كل انسان فيما يرى ديكارت أن يعلم أنه موجود ، وأنه يفكر ٠ ويستطيع كذلك أن يعلم أن الواحد نصف الاثنين ، وأن $2 + 3 = 4$ كما أن $1 + 3 = 4$ لأن هذه الأحكام مدركة بغایة الوضوح والجلاء ٠

(١) بدعة : هي الكلمة التي اخترناها لترجمة كلمة *nouveauté*) لانها أقرب إلى المراد ٠

وديكارت يبدأ بنفسه فيفرض أن جميع ما يراه باطل ، فماذا يمكن أن يعتبر صحيحاً حيثذا ؟ قد لا يثبت إلا عدم وجود شيء يقيني في العالم ، ولكن يبقى بالطبع أن هناك إنساناً شك ، وأن هذا الإنسان لا محالة موجود وهذا يقول ديكارت كلمته المأثورة *Je pense, donc je suis* أنا أفكّر ، فأنا أذن موجود . ولا بأس فيما يرى ديكارت أن يُفْسَدَ الإنسان ويُخدَع ، فإن هذا يدل فقط على أنه رأى الأشياء مرتّة على غير ما هي عليه ولا ينافي أنه كائن موجود . ويرى ديكارت أنه قد يرغب في أشياء لن تكون فالرغوب فيه موهم ، ولكن الرغبة نفسها حقيقة لا خيال .

وجملة القول في أسلوب ديكارت أنه لا شيء أوضح لديه من فكره ، فهو يؤمن أولاً بوجوده ، ثم ينتقل إلى الأشياء يقيس وجودها بقدر ما فيها من الوضوح ، لأن القاعدة عنده أنه لا يصح قبول شيء على أنه حق حتى يعرف « ما هو » بغاية الجلاء .

وللفلسفة « ديكارت » كثير من الخصوم والأنصار ، ولا يسمح لنا الوقت بتفصيل ما قيل في التلـيل منه ، والدفاع عنه ، وربما عدنا إليه في مؤلف خاص .

- ٣ -

Pascal الغزال وبسكال

ولد بسكال في كليمون في ١٨ يونيو سنة ١٦٢٣ وانتقل به أبوه إلى باريس في سنة ١٦٣١ حيث اتصل بكثير من علماء ذلك العصر ، وكان أول أستاذ لبسكال هو والده الذي عنى بتربيته على قوة الفكر ، وحسن الاستبطاط . وقد شغف بسكال بالزيادة ، وألف فيها وهو يافع . ثم مال إلى الفلسفة ، ولكنه لم يعول على عقله ، بل أسلم نفسه لهوا جنس دينية ، حمل عليها بضعف صحته . واضطراره إلى حياة العزلة والانفراد .

واشتهر بسكال بكتابه « الافكار » *Pensées* وهو مجموعة آراء جمعت وطبعت بعد وفاته ، وكتابه *Lettres provinciales* يمثل رأيه في حياة *Nécessaires et de la Religion* .

ووجه الشبه بين الغزالي وبسكال هو أنَّ كلاً منهما ابتدأ حياته بقوة فهارة ، تم انتهت به صحته إلى الرضا بالمحمول في ظلال التسكُّن والزهد ، فقد رأيت نيف قبل الغزالي على كل علم ، ونيف درس كل التحل ، وعرف بواطن جميع الفرق ، ثم رأيت كيف رضي بوسوس الصوفية ، وعد كل ما سوى مذهبهم ضلالاً في ضلال !!

وكذلك ابتدأ بسكال حياته بتأييد مذهب ديكارت ، والتৎمس نصرة العقل ، ومحاربة الوساوس القديمة . حتى لنجدده يدافع عن الشهوات الكبيرة التي توجد الأعمال العظيمة ، كالحب والطمع . وذلك في رسالته *Discours sur les passions de l'amour* . ولكن صحة بسكال أخذت تسوء يوماً بعد يوم واضطر إلى العزلة في *Port-Roy* واختار الفلسفة الصوفية التي لخصها في محادثه مع مسيو دي ساسي كما قال بول جانيه، ثم عول أخيراً على الانتقام بالإنجيل .

ومما يقرب بسكال من الغزالي شكه في قوة الطبيعة الإنسانية ، فهو يرى أنَّ الإنسان مملوء بالخطأ الغرئي الذي لا يزول إلا بعناد الله . وليس هناك شيء يهدي الإنسان إلى الحقيقة ، بل كل شيء يخدعه . ومع أنَّ العقل والحواس أصلان للحقيقة فإنَّ كلاً منها يخدع صاحبه ، والناس يدعون بعضهم بعضاً إلى الخداع : فهم يتداولون المدح لعلمهم فيما بينهم بكرامة الحقيقة التي تنافي المدح ، وكذلك لا يتكلم امرؤ في حضرتك كما يتكلم في مغبيك ، فالإنسان في نظر بسكال مجموعة من الكذب والزور والنفاق .

وقد بالغ بسكال في احتقار العقل . ثم تمنى لو أنه عرف جميع الأشياء بالوحى والشعور ولم يحتاج أبداً إلى العقل ! ! ويتهم بسكال عقله

باغرائه بالشك ٠ ويعتقد أن الدين لا يأتي مطلقا من ناحية العقل ، وإنما يأتي من شعور القلب ، ومن هداية الله ؟ ويجوز أن يأتي الدين من طريق العقل ، ولكن مثل هذا الدين لا ينفع للنجاة ! وهذا بالطبع اسراف ٠

- ٣ -

الغزالى وهويس Hobbes

ولد هويس فى إنجلترا سنة ١٥٨٨ ورحل الى باريس فى سن الأربعين حيث درس الرياضيات وعلوم الطبيعة ٠ ثم زار فرنسا مرة ثانية وأقام فيها مدة طويلة ، واتصل صلة متينة بالفيلسوف «جستندي» صاحب الفضل على «مولير» و«فولتير» ٠ ثم مات فى إنجلترا سنة ١٦٧٩

La nature humaine

وأشهر مؤلفات هويس هو كتابه

La matière, la forme et l'autorité

Leviarhan أو

du gouvernement

وفي هذا الكتاب الأخير دافع عن الأثرة ، والاستبداد ، فقد كان هويس من غلاة الماديين ، والاحسان عنده ليس الا حرفة من حركات المخ ، وهذه الحركة متى وافقت الوظائف الحيوية أتاحت اللذة ، واللهة تولد الرغبة ، والرغبة توجد الارادة ٠ فليست الارادة اذا الا رغبة مسيطرة ٠ وهويس لا يعرف باعثا للعمل غير طلب اللذة ، أو الهروب من الألم ٠ والمواطف عنده ليست الا صورا لحب الذات ٠

وهويس من أصحاب نظرية العقد الاجتماعي Contrat social التي

عنى بها جاك روسو فيما بعد ٠ ويرى هويس أن الانسان مفظور على الأثرة والشره ، وأن جميع أفعاله انما هي سلم الى مطامعه ٠ وهذه الفطرة جعلت الحياة الطبيعية مرة المذاق ، لطعم القوى في الصيف ٠ ويتخيل هويس أن آباءنا الأولين لم يروا سبيلا الى السلامة من شر الأقواء

غير الانضمام تحت لواء سلطة بشرية تدفع عنهم عاديه المطامع ، وهذه السلطة تمثل في الملك ، ولهذا الملك جميع الحقوق التي كانت لجميع الأفراد قبل التعقد ، وليس عليه الا واجب واحد هو : حفظ الأمن .
ويرى هوبس تأييدا لنظريته أن الدين الحق هو دين الدولة مهما كان جوهره ، وعلى كل فرد الخضوع له ، والخروج عليه كفر ومرopic .
ويظهر مما سلف أن هوبس يريد بنظرية العقد الاجتماعي تأييد الملكية ، ولا كذلك روسو حين يدافع عن هذه النظرية فإنه يرى أن حياة الطبيعة كانت حياة نعيم ، وأن الناس لما أفسدوها بأنفسهم اضطروا إلى أن يتنازل . كل فرد منهم عن جزء من حرية ليتمكن من مجموع هذه الأجزاء قوة مدنية تدافع عن الجميع ، وهذه القوة لا تمثل في الملك كما يرى هوبس ، وإنما تمثل في شخص هو مندوب الأمة ، ولها عزله حين تريده .

إلى هنا لا يرى القارئ أي تناقض بين هوبس وبين الغزالى والواقع أن الجموع بينهما بعيد لأن الغزالى رجل تضحيه وايثار ، والخير عنده يرجع في الأكثر إلى نفع الناس ، في حين أن هوبس يرى الخبر في أن يعمل المرء لنفسه ، قبل أن يحمل بسواء . ولكننيرأيت بعد البحث أنها مانع في تكيف وجهة الطبيعة الإنسانية ، وإن اختلفا في غاية الأخلاق ، فإذا كان هوبس يرى أعمال المرء مظهرا للاثارة ، ويرى حب المرء لجاره ليس إلا ضربا من حب النفس ، وأن طاعته للقوانين الأخلاقية ليست إلا سعيًا في سبيل نفعه ، فكذلك الغزالى يفهم أكثر العاملين بالرياء ، ويرى بهم بمحب الذات .

والغزالى يسيء الظن بالطبيعة الإنسانية ، ويرى العمل في الأغلب لا يراد به إلا نيل الثواب ، أو الفرار من العقاب ، ولا يزال بالطبيعة الإنسانية يفحصها ويسبّر أغوارها بمبادر الشك والارتياب ، حتى يصل بعد الفحص إلى أن هناك رباء « هو أخفى من دبيب النمل » ومن كلامه : « رب عبد يخلص في عمله ، ولا يعتقد الرباء بل يكرهه ويرده ، ولكن

اذا اطلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له ، وهذا السرور يدل على رياء
خفى ، فلو لا التفات القلب الى الناس ما ظهر سروره عند اطلاع الناس » ٠

والفرق بين الغزالى وهوبس ، يرجع الى ان هوبس يريد ان يجعل
وجهة الطبيعة الانسانية اساسا للالخلق ، فيكون الخير ما ينفع المرء ،
والشر ما يضره ٠ ولدن الغزالى يرى ان الخير لا يكون الا حيث يتتفع
المرء ولا يضر غيره ، لأن وجيه الغزالى وجية اسلاميه ، لا ضرر فيها ولا
ضرار ٠

- ٤ -

الفغازى وبوتلير

« بوتلير » هو فيلسوف انجليزى ولد سنة ١٦٩٢ وتوفي سنة ١٧٥٢
وهو يعول أكثر من الغزالى على الفطرة الانسانية وعنه أن المرء يستطيع
بنفسه أن يدرك ما في عمله من الخطأ والصواب قبل أن يقدم عليه ، وان
لم يعلم شيئاً من المباحث الأخلاقية ٠ ويرى أنه لا شيء يدعونا إلى طاعة
قانون الأخلاق غير اعتماده على السريرة ، ولا يرى بوتلير فرقاً بين
السريرة التي تتحتم طاعة الأخلاق وبين حب النفس ما دمنا نفهم سعادتنا
الحقيقية فإن الواجب والمنفعة لا يختلفان عنده ، وهنا يتفق مع الغزالى
بعض الاتفاق ، لأن وجهة نظر الغزالى اسلامية ، والاسلام يرى المنفعة في
الواجب وإن كان لا يرى الواجب في المنفعة ، فإن هذا شيء قد يكون وقد
لا يكون ٠ الا ان أردنا ما هو نافع في الواقع ٠ على أن بوتلير يقيد اتفاق
المنفعة مع الواجب بالأمور الأخروية ، ويرى اتفاقهما في الامور الدنيوية
كثير الوقع ، لا واجب الوجود ٠

وأجمل ما في بوتلير حكمه على الفضائل بأنها قانون الطبيعة في حين
أن الغزالى يراها ضرباً من التكاليف ٠

الغرانى وكارليل Karlyle

ولد كارليل سنة ١٧٩٥ في قرية أكلفكان بجنوب اسكتلندية من والد يشتغل بصناعة البناء . تلقى مبادئ العلم في قريته . ثم دخل جامعة ادنبره في الثالثة عشرة من عمره . وفي التاسعة عشرة من عمره صار مدرسا للرياضيات بمدرسة آنان ، وبعد ثلاث سنين صار رئيس مدرسة بلدة كر كالدى . وفي سنة ١٨١٨ ترك مهنة التعليم . وذهب إلى ادنبره ، وهو لا يدرى ماذا يعمل ، ولكنه درس علم المعادن ، واضطر من أجله إلى تعلم الألمانية التي كانت سبباً لذيوع شهرته . وتوفي سنة ١٨٨١ .

وكارليل هذا من كبار الفلاسفة ، ومن أعظم المدافعين عن الديانات . حتى لنجد له يدافع عن الوثنية ، لأنها في رأيه ليست إلا افراطاً في العجب من الشيء ، حتى ينقلب هذا العجب تقديساً وعبادة ، وأنه يرى أن الأقدمين قدسوا شيئاً إلا أنه الله ، أو رمزاً إلى الله . ومن آثار كارليل كتاب الأبطال الذي ترجمه الاستاذ محمد السباعي . وفي هذا الكتاب فصل ممتع عن النبي محمد صلوات الله عليه وسلم . كان سبيلاً في تغيير وجهة أنظار الاجانب نحو الإسلام . ومن كلامه في ذلك :

« لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد مهذب من أبناء هذا العصر أن يصفى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً خداع مزور . وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة . فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج الميرمة اثنتي عشر قرناً نحو مائتي مليون من الناس أمثالنا ، خلقهم الله الذي خلقنا . أفكأن يظن أحدكم أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائمة الحصر أكذوبة وخدعة؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً ، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج .

ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول . فما الناس الا بله ومجانين ،
وما الحياة الا سخف وعبث وأصلولة ، كان الأولى بها أن لا تخلق .
فواأسفاه ، ما أسوأا مثل هذا الزعم . وما أضعف أهله ، وأحقهم بالرثاء
والمرحمة !! » .

وقد دافع كارليل عن الاسلام خير دفاع ، فناقش من رموه بالقسوة ،
واستعمال السيف ، وبين ان المسيحية نفسها لجأت الى القوة حين لم ينفع
التسامح . ورد على من زعموا ان القرآن مملوء بالتعقيد ، وبين ان سبب
هذه التهمة هو عجز الترجمة عن نقل بلاغة القرآن وحالاته . وعارض
من نسبوا الى رسول الله الهفوات ، وأكد أن طلب العصمة طلب سخيف ،
فإن العصمة لله وحده ، وأكبر الهفوات عنده أن يحسب المرء أنه بريء
من هذه الهفوات .

الكفر والإيمان

يتفق الفرزالي وكارليل في أن كلاًّاً منهمما مؤمن ثابت اليقين ،
ويختلفان في فهم السيرة الانسانية ، وفي نتيجة التفكير . فالفرزالي
لا يعترف للضمير بالصلاحيـة للحكم ، وإنما الشرع هو الفيصل في الحسن
والقبـح ، فـما حـسـنـه الشرع فهو حـسـن ، وما قـبـحـه فهو قـبـح . ولكن
كارليل يرى أن الشعور بالواجب معنى أبدي ، وهو جـزـءـ من الطبيعة
الإنسانية ، فهو قـوـةـ غـرـيزـيةـ لا تحتاج في كـسـبـهاـ إلى شـرـائـعـ ولا قـوـانـينـ .

وتحتـاجـةـ التـفـكـيرـ محـترـمـةـ عندـ كـارـلـيلـ ،ـ وـهـوـ لاـ يـصـدـقـ بـأـنـ الـاحـادـ
وـالـتـفـكـيرـ يـجـتـمـعـانـ فـىـ قـلـبـ رـجـلـ وـاحـدـ .ـ وـالـاخـلـاصـ عـنـدـ هـوـ الـاسـاسـ .ـ
وـمـنـ كـلـامـهـ :ـ «ـ يـرجـىـ لـنـاـ نـفـهـمـ مـعـنـىـ الـوثـنـيـةـ مـتـىـ سـلـمـنـاـ أـوـلـاـ أـنـهـ كـانـتـ
فـىـ حـيـنـ مـنـ الـاحـيـانـ دـيـنـاـ صـحـيـحاـ فـىـ اـعـقـادـ أـهـلـهـاـ .ـ فـلـتـوـقـنـ كـلـ الـيـقـينـ أـنـ
الـنـاسـ كـانـوـاـ يـؤـمـنـوـنـ بـوـثـيـمـ حـقـ الـإـيمـانـ وـلـمـ يـكـنـ بـهـمـ مـنـ ذـهـولـ وـلـاـ
جـنـونـ وـلـاـ نـوـمـ وـلـاـ مـرـضـ ،ـ بـلـ كـانـوـاـ مـعـ ذـلـكـ أـصـحـاءـ الـعـقـولـ وـالـحوـاسـ ،ـ

أيقظاً قد صورهم الله على صورنا ، وخلقهم كخلقنا ، لا فرق بيننا وبينهم في حال من الأحوال . ولنونَ كذلك أنا لو كنا وجدنا معهم ، لأننا بما كانوا يؤمنون به ، ولكننا واياهم سواسية في سائر الأشياء » .

ويتلخص رأي كارليل في أن كل دين فيه عنصر من الحق ، والوثبة عنده ليست إلا رمزاً شرعية ، وتمثيلاً بالمرئيات لما جرى في وجدان الناس وأذهانهم عن الكون ومظاهره ، وكل دين فيما يرى إنما هو رمز وتمثيل ، ولكن الاختلاف هو في المشاعر والأفكار . والفرق بيننا وبين الوثنين يرجع إلى الشكل أكثر مما يرجع إلى الجوهر ، لأن كلامنا يرى التفكير في ملوكوت الله نوعاً من العبادة ، ونحن لو أغترنا بالكون كما أغتر الوثنيون به لرأينا الله في كل نجم ، بل في كل زهرة .

رأي الغزالى في الاجتهد

لا يمكن لأمرىء أن يكفر ، في نظر كارليل ، ما دام مخلصاً في عقيدته ، مهما كانت تلك العقيدة . ولكن الغزالى يرى أن الاجتهد له حد محدود والختار عنده أن الإثم والخطأ متلازمان فكل مخطيء إثم وكل إثم مخطيء ، ومن اتفى عنه الإثم اتفى عنه الخطأ ، وهو يقسم النظريات إلى ظنية وقطعية : ولا إثم في الظنيات إذ لا خطأ فيها . والقطعيات عنده ثلاثة أقسام : كلامية ، وأصولية ، وفقهية . ويعنى بالكلامية العقليات المحسنة ، والحق فيها عنده واحد . ومن أخطأ الحق فيها فهو إثم . ويدخل في هذا القسم حدوث العالم ، وآيات المحدث ، وصفاته الواجبة والجائزة والمستحبة ، وبعثة الرسل وتصديقهم بالمعجزات ، وجواز الرؤوية ، وخلق الأعمال ، وارادة الكائنات ، وجميع ما الكلام فيه مع العزلة والخارج والروافض والمبتدعة . فهذه المسائل الحق فيها عنده واحد ، ومن أخطأ فهو إثم فإن أخطأ فيما يرجع إلى الإيمان بالله ورسوله فهو كافر . وإن أخطأ فيما لا يمنعه من معرفة الله عز وجل ومعرفة رسوله ، كما في مسألة

الرؤبة وخلق الاعمال وارادة الكائنات ، فهو آثم من حيث عدل عن الحق
وضل ، ومخطيء من حيث أخطأ الحق المتيقن ، ومبتدع من حيث قال قوله
مخالفاً للمشهور بين السلف ، ولا يلزمه الكفر . ويعنى بالاصولية كون
الأجماع حجة ، ودون القياس حجة ، دون خبر الواحد حجة ٠٠٠
الخ . وهذه المسائل أدتها عنده قطعية ، والمخالف فيها مخطيء آثم .
والفقهيات بعضها يكفر المرء بانكاره ، وبعضها يأثم بجحوده ، فانكار تحرير
الخمر والسرقة ووجوب الصلاة والصوم ، كفر . وانكار الفقهيات المعلومة
بالاجماع خطأ واثم .

تحرير هذه المسألة

الاصل في الحكم الاخلاقي أن يتبع غرض العامل من عمله : ان
خيرا فخير ، وان شرًا فشر . فالعمل الذي أريد به الخير ، هو خير :
وان كان ضارا في ذاته . والعمل الذي أريد به الشر ، هو شر : وان كان
نافعا في ذاته . ويطلب الرجل فقط بأن يتزوى قبل أن يعمل ، ليعرف
ما في العمل من ضر ونفع ، وخطأ وصواب . ومتى أفرغ الجهد في
البحث فقد أمن المسؤولية ، واستحق حسن الجزاء .

ولقد تبعت ما كتبه علماء المسلمين في هذه المسألة فرأيتهم لا يكادون
يهدون . وسبب ضلالهم يرجع الى أنهم خلطا بين الوجهة الأخلاقية :
والوجهة القضائية ، وكان يجب عليهم أن يفصلوا بين الوجهتين . فالذى
يقتل مسلما خطأ مدين من الوجهة القضائية ولكنه برىء من الوجهة
الأخلاقية ، لأنه لم يقصد القتل . والشرع محق في اعتماده على الوجهة
القضائية ، لأن فيها استصالا للجرائم ، ولأن القاضى متى عذر كل من ادعى
الخطأ فقد يفلت منه كثير من المجرمين .

والذى يدلى على أن وجهة الشرع وجهة قضائية صرفة ، أنه يكتفى
بایمان المقلد . مع أن الإيمان لا ينفع فيه التقليد . ويقول الباجورى في

ص ٣٢ من حاشيته على الجواهرة ما نصه : « والخلاف في ايمان المقلد انما هو بالنظر لأحكام الآخرة وفيما عند الله وأما بالنظر الى أحكام الدنيا فيكفي فيها الاقرار فقط . فمن آقر جرت عليه الاحكام الاسلامية ، ولم يحكم عليه بالكفر ، الا ان اقتنى بشيء يقتضي الكفر كالسجود لصنم » وهذا واضح الدلالة على أن النجاة لا تكون باتباع الشرع . ولكن بالايمان به . و بالإيمان شيء آخر غير ظواهر الاعمال .

الخطأ والعناد

كان على الغزالى أن يفرق بين من يخطئ في العقليات بعد اجتهاده ، وبين من يعاند . فان الأقرب الى الحق أن ينجو من نظر في الشريعة الاسلامية من الفلسفه بنية حسنة وبقصد الاقتناع ، ولكنه بعد البحث لم يقنع ، ولم يقف مع هذا في وجه المسلمين . ولو أن الغزالى نظر هذه النظرة ، لما كفر ابن سينا والفارابى ، الا ان أمكن أن يثبت عندهما العناد مع أنهما لم ينكرا الرسالة المحمدية ، ولكن الناس لهدى الغزالى كانوا فيما يظهر مصابين بداء الشك في عقائد الفلسفه ، ورميهم بالمرroc .

وقد جرت بيني وبين فضيلة الاستاذ الشيخ الدجوى مناقشة في هذه المسألة منذ ثلاث سنين ، فكان فضيلة الاستاذ يرى أن الكفر يكفى فيه الجهل ، وكانت أرى أنه لا يتحقق الا بالعناد ثم رأيت فيما بعد أن الجاحظ يرى هذا الرأى . وقد نقل الغزالى في المستصفى « أنه ذهب الى ان خالف ملة الاسلام ، من اليهود ، والنصارى ، والدهرية ، ان كان معاندا على خلاف اعتقاده فهو آثم ، وان نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم ، وان لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضا معذور . وانما الآثم المعذب هو المعاند فقط ، لأن الله تعالى لا يكلف نفسا الا وسعها ، وهو لاء قد عجزوا عن درك الحق ، ولزموا عقائدهم خوفا من الله تعالى اذ استد عليهم طريق المعرفة » وينسب ابن الحاجب الى الجاحظ أنه

قال : « لا اثم على المجتهد مع أنه مخطيء » وتجرى عليه أحكام الكفار ،
بخلاف المعاند فإنه آثم » وهذا يدل على أن الباجهظ مع حكمه بنفي الاتهام
عن المجتهد المخطيء يرى معاملته كما يعامل الكفار ، وهذه بعينها الوجهة
القضائية التي حدثتك عنها منذ قليل .

ويظهر أنه كان لهذا الرأي أنصار فيما سلف ، فقد جاء في فصول البدائع ص ٤٢٤ ج ٢ ما نصه « وما نقل عن بعض السلف من تصويب كل مجتهد في المسائل الكلامية كخلق القرآن ، ونفي الرؤية ، وخلق الأفعال ، فمعناه نفي الائم والمعذورية ، لاحقية القول وال-majority » وجاء في ارشاد الفحول ص ٣٤١ ما نصه « مسألة الرؤية ، وخلق القرآن ، وخروج الموحدين من النار ، وما يشابه ذلك : الحق فيها واحد ، فمن أصحابه فقد أخطأ ، ومن أخطأه فقيل يكفر . ومن القائلين بذلك الشافعى فمن أصحابه من حمله على ظاهره . ومنهم من حمله على كفران النعم » .

وحكى ابن الحاجب في المختصر عن العبرى أن كل مجتهد مصيب •
قال ابن دقيق العيد : « ما نقل عن العبرى والمجاحد ، ان أرادا أن كل
واحد من المجتهدين مصيب لما فى نفس الأمر » ، فباطل ، وان أرادا أن
من بذلك الواسع ولم يقصر فى الاصوليات يكون معذورا غير معاقب ، فهذا
أقرب . لأنه قد يعتقد فيه أنه لو عوقب وكلف بعد استفراذه غاية الجهد
لزم تكليفه بما لا يطاق » انظر الشوكاني ص ٢٤٢

ترجیح بلا موج

يرى الفزالي في كتاب «فيصل التفرقة» أن الرحمة «شمل كثيراً من الأمم السالفة، وإن كان أكثرهم يعرضون على النار، أما عرضة خفيفة، في لحظة أو في ساعة، وأما في مدة، حتى يطلق عليها اسم بعث النار، ويري أن أكثر نصارى الروم والترك لعهده تشملهم الرحمة، لأن منهم من لم يبلغه اسم محمد، ومنهم من بلغه اسمه مغروناً بأكاذيب تصرف المرء

عن النظر ٠ ويرى في كتاب «الصحبة» أنه لا ثواب ولا عقاب إلا على
الأفعال الاختيارية ٠

ونسأله : لماذا رجوت أن تشمل الرحمة كثيرا من الأمم السالفة ؟
أليس ذلك لأنهم معنورون ؟ ولماذا حكمت بنجاة الترك ونصارى الروم من
لم تبلغهم الدعوة ، أو بلغتهم محرفة مشوهة ؟ أليس ذلك لأنهم معنورون ؟
ولماذا قضيت بأنه لا ثواب ولا عقاب إلا على ما يفعل المرء باختياره ؟ أليس
ذلك لأن عقاب المرء على ما اضطر إليه ، أو أكره عليه ، ظلم وعدوان ؟

وإذا كان ذلك كذلك ، كما يعبر الكتاب الاقديمون ، فلماذا تحكم
بکفر من لم يعلم وجوب النظر ، أو علم بوجوب النظر ، ولكنه بعد البحث
لم يقنع ، ولماذا تحكم ببنفي الآثم عن يجتهد ويخطئ في المسائل الفقهية ،
وتحكم بالآثم والکفر على من يجتهد ويخطئ في المسائل الكلامية ؟ ألا
يسع العذر جميع المفكرين على السواء ؟ فإن لم يسعهم ، أفلا يكون هذا
الفرق ترجيحا بلا مرجع ، وهو في رأيكم غير معقول ؟

ظلم الأبريةاء

وما عجبت لشيء كما عجبت من حكم الباحظ بمعاملة المعدورين كما
يعامل الكفار ٠ فإنه اذا صح لديه أن مخالف ملة الإسلام من اليهود
والنصارى والدهرية ، ان نظر فعجز عن درك الحق فهو معنور غير آثم ،
وان لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضا معنور ، وإنما
الآثم المعدب هو المعاند فقط ، أقول اذا صح عنده ذلك فكيف يحكم بأن
يعامل هؤلاء معاملة الكفار ، وهم عند الله ناجون ؟ أفنكون نحن أغير من
الله على دينه الذي لم يكلف فيه نفسا إلا وسعها ؟

ولقد أعلم أن الباحظ لو كان حيا وسمع هذا السؤال ، لأجاب بأن
في هذا التشديد تقليلا للخوارج على الدين ٠ وهذا جواب معقول ، ولكن
يلاحظ أنه تأيد لما قلناه آنفا من أن علماء المسلمين نظروا إلى هذه

المسائل من وجهة قضائية ، لا من وجهة أخلاقية . وكان عليهم أن يتبعوا إلى الفرق بين القضاء والأخلاق ، فمن الواضح أن القتل الخطأ معاقب عليه من الوجهة القضائية ، مع أن الذى يقتل خطأ برىء أمام نفسه ، وأمام ربها ، وأمام الواقع .

وأحب أن أنبه القارئ إلى أنى فى هذا الحكم لا أتكلم من وجهة شرعية ، فقد يدعى المدعون ان الشرع لا يعرف ذلك . وإنما أتكلم من وجهة فلسفية ، وأفترض أن الشرع ان لم يتتبّه لهذا الحكم ، فقد كان يجب أن يتتبّه له ، وأن يضع له الحدود ، فان المعنور برىء ، ومن الظلم أن يقتل الابرياء .

- ٦ -

الغزالى وسبينوزا Spinoza

ولد « سبينوزا » في أمستردام سنة ١٦٣٢ من عائلة يهودية . وقد اضطهدته اليهود لشكه في تعاليم اليهودية . وهم أحدهم بقتله . فاضطر لذلك إلى أن يعتزل في لاهى . وصار يكسب قوته بالعمل في صقل زجاج التلسکوب والميكروسكوب . وقد عرض عليه أصدقاؤه المساعدة عدة مرات ، ولكنه رفض قبول المعونة بعزة واباء . وعرض عليه منصب أستاذ للفلسفة بجامعة هيدلبرج ، ولكنه لم يقبل . حبا في الاستقلال . وعاش عيش الناسكين . وقد أصيب بمرض الصدر ، فاحتمله بلا شكاية . ثم مات سنة ١٦٧٧ بعد أن حكم أهل عصره بكفره .

وأهم مؤلفاته *Traité théologico-politique* وقد نشر في حياته ، وفيه أخضع الكتب المقدسة للنقد وحرية الفكر . وكتابه *Ethique* ظهر بعد موته ، وفيه بسط مذهبة عما وراء الطبيعة ، وتكلم عن النفس ، والأهواء ، والشهوات .

وسيينوزا من أشد أنصار مذهب الحلول : فهو يرى أن الله هو كل شيء . وان كل شيء هو الله . وهو في ذلك يخالف الغزالي اذ يرى لله وجودا غير وجود العالم . والله في رأيه هو المدبر لهذا الكون ، ولن-den سيينوزا يرى أن الله والعالم شيء واحد ، ويرى الله حالا في كل ذرة ، وفي كل جة ، وفي كل نبطة ، وفي كل برقة ، وفي كل دابة ، إلى آخر ما في الوجود . وليس للإنسان حرية ، وان اعتقد أنه حر ، وإنما يحلم وأعينه مفتوحة !

ومن أجل هذا ثار رجال الدين على سيينوزا ررموه بالزنادقة ، قال الدكتور رابوبرت : « وما كان ابعده عن الاحاد ، فقد كان مملوءا بحب الله ، حبا جاءه عبر الطبيعة ، فمن كأس الطبيعة الطافحة قد شرب الالوهية حتى ثمل ، وحتى أصبح لا يرى أمامه إلا الله ^(١) . وهذا اعتذار يشبه ما اعتذر به المسلمين عن البسطامي والحلاج ، ومن اليهم من القائلين بوحدة الوجود .

وغایة الاخلاق عند سینوزا هي كمال الطبيعة الانسانية ، فكل علم لا يفضي الى ذلك فهو في رأيه غير مفيد ، وهو يتفق مع الغزالى في هذا المعنى الاخير : أي في احتقار كل علم لا يوصل الى السعادة ، وان اختللت غايتهاما بعض الاختلاف . فان غایة الاخلاق عند الغزالى هي السعادة الآخرية .

ومع أن سینوزا يعمل لكمال الطبيعة الانسانية ، فإنه يرى أن التمييز بين النقص والكمال ، والخير والشر ، من الامور الاعتبارية ، اذ ليس بهذا التمييز الا صورة تنتزعها من الموازنة بين الأشياء . فإذا كان الغزالى يرى أن الخير هو ما أمر الله به ، والشر ما نهى الله عنه . فان سینوزا يرى أن الخير هو النافع ، والشر هو البصار . وبعبارة أخرى : الخير هو ما يزيد

(١) مبادئ الفلسفة من ١٦٦ .

قوتنا ويعدها للعمل ، والشر هو ما يضعفها أو يضع في سبيلها العائق •
ويتتجزء من ذلك أن الخير يحدث الفرح ، والشر يحدث الحزن •

وبقى بعد ما سلف أن السعادة كل السعادة في أكمال العقل لأنه
في رأيه هو وجودنا الحق ، ثم يقرر أن السعادة في الواقع هي طمأنينة
النفس ، التي تنشأ من معرفة الله ، فليس الجهل شرًا إلا لأن صاحبه دائم
القلق والاضطراب ، وليس للحكمة فضل أكثر مما تورث أصحابها من
الامن والسكينة ، وهو يتفق مع الغزالى في هذه النقطة الأخيرة •

ومن أظهر الفروق بين الغزالى وسيينوزا نفي الشخصية الإنسانية ،
ونفي المسؤولية • وهذا واضح ، لأن ما دام العالم هو الله ، والله هو العالم ،
فلن يرى سيينوزا للمرء شخصية ، ولن يحكم بأنه مسؤول • أما الغزالى
فيري وجود الشخصية الإنسانية ويرى أهليتها للجزاء ، والثواب ، والعذاب ،
وان كانت عنده أضعف من أن تدرك شيئاً بغير هداية الله •

الغزالى وجستندي Gassendi

ولد « جستاندي » في بروفنس بجنوب فرنسا سنة ١٥٩٢ •

اشغل حيناً بتدريس البلاغة والفلسفة ، ثم صار قسيساً وسافر إلى
هولندا واشتعل بالطبيعيات ولا سيما الفلك والتترنح ، ثم دعى لتدريس
الرياضيات بالمدرسة الملكية في باريس سنة ١٦٤٥ وظل بها إلى أن توفي
سنة ١٦٥٥ •

وأهم ما يمتاز به جستاندي هو دفاعه عن فلسفة أبيقور المتوفى سنة
٢٧٠ قبل الميلاد • وأبيقور هذا يرى أن غاية الأخلاق هي السعادة الذاتية :
فليست الفضيلة فضيلة إلا لأنها تجلب لذة ، وليس الرذيلة رذيلة إلا لأنها
تحدث ألام ، ولا قيمة لأى عمل في نفسه إلا بحسبه إلى اللذائذ والألام •
وقد كان أبيقور يدافع عن مذهبة بطريقة تقربه من رضا العقلاة ، فكان

يرى أنه لا مانع من احتمال الآلام الوقتية في سيل ما يعقبها من اللذائذ الباقيه ، ويحلل الفضائل الشاقة ، ويبين ما فيها في نفس الأمر وحقيقة الواقع من بعد عن الآلام ، لأن ما في الخروج على الفضيلة من اللذة لا يساوى ما يعقبه من الألم ، وكذلك ما في الصبر على ترك الرذيلة من فوات اللذة العاجلة ، يوضع على صاحبه كثيرا من الآلام التي يتعرض لها باقتراف المنكرات .

ولكن الناس فهموا مذهب أبيقور فيما غير صحيح ، فحسبوه فقط داعيا إلى اللذة وأخذوا يصفون الرجل الخليل بأنه (أبيقورى) فجاء « جسندى » فأحيا تعاليم هذا المذهب ودافع عنه . وقد أثر جسندى في عصره تأثيرا شديدا . وحسبه أن كان من تلامذته « مولير » .

والغزالى تكلم عن اللذة ، وعنى بها كما فعل جسندى ، ولكن الفرق بينهما بعيد ، فإن جسندى يرى اللذة غرضا من أهم أغراض الإنسان . ولكن الغزالى يراها صفة من صفاته ، فللعين لذة ، وللاذن لذة ، ولعضو التناسل لذة . ولا قيمة للحياة بغير هذه اللذات . ولكن يجب أن تحد بحدود العقل والشرع ، ومن السهل أن يعرف المرء ما لهما من الحدود . ولكن جسندى يحد اللذة بما لا يصبحه ألم ولا يعقبه ألم . وهذا موضع الخلاف ، فإن الزتا فى نظر الغزالى ليست له أضرار دنيوية ، ولكنه يذهب بصاحبها إلى النار .

الفزالى ومالبرانش Malebranche

ولد « مالبرانش » في باريس سنة ١٦٣٨ ومكث قسريا خمسين سنة . وكان كل همه أن يوحد بين الدين والفلسفة . وقد توفي بعد مرض طويل سنة ١٧١٥ .

وأهم مؤلفاته *Traité de Morale* و *Recherche de la Vérité* وهو من أنصار ديكارت والمعجبين به ، ومن القائلين بوجوب حرية الفكر إلى

اقضى حد ، والقاعدة عنده أنه لا يصح أن نسلم تماماً إلا بالقضايا التي تظهر لنا واضحة إلى حد أنه لا يمكننا أن نرفض التسليم بها ، والا تعرضاً لعقب العقل ، وتأييد القصيم .

والقاعدة الأخلاقية عند مالبراشن أنه لا يصح أن نحب خيراً من الخيرات حباً تماماً ، ما دمنا نستطيع ألا نحبه بلا ندم . وهنا يتافق مع الغزالي ، فيقرر أنه لا يجب أن نحب غير الله حباً تماماً مطلقاً . ونحن نذكر أن الغزالي فرر أن الحب المطلق لا يكون لغير الله ، لأنه لا نظير له ، لافي الامكان ولا في الوجود .

ويتفق مالبراشن مع الغزالي في عدم الثقة بأحكام الخواص ، لأن رأى البصر يختلف حكمه على الأشياء باختلاف القرب والبعد ، ويضيف إلى ذلك شكه في الوحدة الزمنية ، لأنه يرى اليوم على طوله قصيراً بالنسبة إلى الفرح المسرور . ويرى الساعة على قصرها طويلاً بالنسبة إلى المتألم الحزين .

ويتفق الغزالي ومابراشن في فهم الرجل الخير ، فإذا كان الغزالي يقرر أنه ما هلك امرؤ عرف قدره ، فإن مالبراشن يقرر أن الإنسان الخير حقيقة هو من لا يريد أن يكون سعيداً إلا بقدر ما يستحق ، وبقدر ما تسمح له العدالة الإلهية .

ويفترق الغزالي ومابراشن في تقدير اللذة . فهي عند الغزالي خير إلى حد محدود ، ثم تقلب إلى شر . وهي عند مالبراشن خير دائماً ، وإن كان التمتع بها لا يفيد دائماً ، لأنها قد تصرفنا عن الله . ويختلفان كذلك في فهم الألم ، فهو عند مالبراشن يكاد يكون خيراً ، وإن كان شراً بالفعل . والفرض من ذلك تبرير الاحتمال . أما الغزالي فلا يخص الألم باهتمام خاص ، وإن كان يرحب بكل ما يناله من الأذى في سيل الله . وبعد هذه المقارنات الموجزة . أوصى القارئ بأن يعتبر هذا الباب لمعة يسيرة في جانب ما يجب من درس آراء الفلسفه المحدثين ، وأحضره على اتمام ما فاتني انمامه ، والله بالتوفيق كفيل .

الباب الرابع عشر

في آراء علماء العصر في الغزالى

تمهيد

لا يوجد هذا الباب في النسخة التي قدمت للجامعة المصرية ، وإنما رأيت أن أكتبه بعد الامتحان ، تتميماً للسلسلة التاريخية ، التي أردت أن أبين بها قيمة الغزالى في مختلف العصور ٠

ولقد عجبت حين رأيت العلماء يخشون من تدوين رأيهم في الغزالى بجرأة وصراحة ٠ وحاجتهم في ذلك أن الرأى العام لا يقبل في الغزالى غير المدح الخالص ، وللغزالى كسائر المؤلفين حسنات وسيئات ، وهم لا يستطيعون أن يبدوا شيئاً من سيئاته في العلانية ، كما لا يمكنهم أن يذكروا حسناته مجردة من النقد ، والا كانوا عرضة للسخرية والاستهزاء !.

واذ كانت الخطة التي جريت عليها في نقد الغزالى تقتضى علىَّ بشر ما له وما عليه ، عملاً بالنزاهة العلمية ، فقد رأيت أن أثبت آراء أنصار الغزالى وخصومه في هذا العصر ، وأدونها كما هي بلا زيادة ولا نقص ، معتمداً في ذلك على محادثات خاصة دارت بيني وبينهم ، وعلى سند كتابي فيما يتعلق برأي حضرة صاحب الغزة الاستاذ محمد بك جاد المولى وحضرتة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجاشي . وأنا أشكر هذين الاستاذين بصفة خاصة : لأنني لم أر من غيرهما جرأة على التقدم بشيء مكتوب ، وأعذر من أحجم عن الكتابة ، لأن الضجة التي قامت بعد الامتحان أفهمت من لم يفهم : أن حرية الفكر في مصر لا ظهير لها ولا نصير ٠

- 1 -

رأي الدكتور منصور فهمي

الدكتور منصور علم من اعلام هذا العصر ، وهو أستاذ الفلسفة في الجامعة المصرية ، وقد لافى بسبب ارائه ما يقدر لامثاله عادة من الظلم والاضطهاد . فصلته الجامعه فى سنة ١٩١٣ مجازاة للجمهور الذى غضب وثار بسبب ما شاع اذ ذاك من أنه رمى النبي عليه الصلاة والسلام بحب الشهوات . وفدى رأى حضرة صاحب الدولة سعد باشا زغلول أن حرمان الجامعة من مثل هذا العقل الناضج ظلم مبين ، فنصحه يومئذ باى يصلى الجمعة فى الازهر ليكون فى ذلك قطع لآلسنة المرجفين ، وليسقى دولته أن يرجعه الى الجامعة ، ويصل من عمله ما انقطع ، ولكن الدكتور منصور أبي أن يشهد العلماء له بالايمان ، لأن الله على ايمانه شهيد ، فشكراً لسعد باشا رفقه به ، وظل بعيداً عن الجامعة بضع سنين . ثم رجع اليها على الرأس فى سنة ١٩٢١ .

وللدكتور منصور رسالة عن الفزالي نال بها الدكتوراه من جامعة باريس ، فلرأيه في الفزالي قيمة خاصة . وهو لا يعد خصماً للفزالي ولا نصيراً له ، وإنما يشكّره على ما أداه للعلم من الخدمات ، ويغفر له أغلاطه ، لأنّه كأكثر المؤلفين لعهده يعتمد على ذاكرته ، والاعتماد على الذاكرة يورث التناقض والاضطراب .

- 1 -

رأي الشيخ علي عبد الرأزق

الاستاذ الشیخ علی عبد الرزاق رجل ممتاز من بین رجال هذا
العصر ، وقد تلقينا عنه دروس الادب والبيان فی الازهر منذ اتنى عشر
عاماً ، وأمالیه فی علم البيان دلیل عقليته النادرة • ولو مضى فی التأليف
لأنصب قلیل الأمثال •

وقد درس الغزالى بعنایة ، وهو يقف ازاءه موقف الحياد . ويقرر أن الغزالى أوجد حركة فكرية في العالم الإسلامي . أما قيمة هذه الحركة فتختلف باختلاف الانظار ، فمن الناس من يراها ضارة ، ومنهم من يراها نافعة ، ولا يزالون مختلفين .

- ٣ -

رأى الشيخ يوسف الدجوى

الاستاذ الشيخ يوسف الدجوى عالم من هيئة كبار العلماء ، وهو ذو نفوذ كبير في الأزهر والمعاهد الدينية ، وأثر العلماء المتأذين اليوم من تلامذته . ومن الخطأ أن تعرفه من مؤلفاته ، لأنها مع قلتها ضعيفة ، ولأن الفرق بعيد بين ما يقوله في دروسه الخاصة وبين ما يدونه في تملّك المصنفات ، إذ كان يريد أن يصل بكتبه إلى افهام الجماهير ، ومن هنا فقدت هذه الكتب قيمتها العلمية . ورسالته الصغيرة في تفسير قوله تعالى : (لا يسأل عما يفعل) تجعلنا نأسف كثيراً على هجره لهذا الأسلوب البديع ، واقباله على خطبة الترغيب والترهيب ، التي تذكرنا بكتاب الاحياء .

ويكاد يُعدّ الشيخ الدجوى خليفة للغزالى في هذا العصر ، ففيه تقريراً كلّ خصائصه ، من القدرة ، والأخلاق ، وقوّة النفوذ ، وبغضّ الفلسفة ، والحذر من أن يتتجاوز العقل ما له من الحدود .

- ٤ -

رأى الاستاذ جاد المولى

الاستاذ محمد بك جاد المولى من نوابع هذا المصر . تخرج من دار العلوم سنة ١٩٠٦ وكان ترتيبه الثاني ، فسافر في أول بعثة أرسلها دولة

سعد باشا زغلول حين كان وزيراً للمعارف في سنة ١٩٠٧ قضى ثلاث سنين في الكلية الجامعية بمدينة ردمنج . ثم عين في سنة ١٩١٠ مساعداً لأستاذ اللغة العربية بجامعة أكسفورد وقضى بها ثلاث سنين . ثم عاد في سنة ١٩١٣ عين في فلم الترجمة بوزارة الأشغال قضى بها ثلاث سنين . وفي سنة ١٩١٦ نقل إلى الديوان العالى ، وظل في خدمة البيت المالك إلى سنة ١٩٢٢ حيث نقل مقتضايا بوزارة المعارف العمومية .

وقد انتدبته الوزارة مع حضرة الاستاذ عبد خير الدين ليشتراك في الامتحان الذى تقدمت له فى الجامعة المصرية . ويدرك الجمهور أن الاستاذ جاد المولى بك كان يتاجج غيرة على الغزالى ، وقد ناقشنى بشدة فى كل الموضوعات التى خالفت فيها الغزالى . فبداءى بعد الامتحان أن أحادشه عن الغزالى من جديد ، فتوجهت الى منزله لهذه الغاية ، ففضل وأطلعني على المحاضرات التى كان ألقاها عن الغزالى فى سنة ١٩١٨ فرأيته يفضله على كثيرون من الفلاسفة المحدثين منهم والقدماء .

والاستاذ جاد المولى بك لا يشك في أن المسلمين اتفعوا بالتصوف
أيما اتفاع ، وبقدر نفع التصوف يقدر جهد الغزالى فى نشره واذاعته .
وقد كان الاستاذ جاد المولى بك يستشهد وهو يحدثى عن ذلك بما كتبه
الاستاذ الفمراوى بك فى كتاب الغرائز ويقول : ان الصوفى هو كالعلم
سواء بسواء ، فكما يجب على المعلم أن يعمل لاستحصل الغرائز السيئة ،
وتوجيه الغرائز الحسنة الى التواحى النافعة ، كذلك يجب على الصوفى أن
يراقب حركات المریدين ، لأن التصوف ليس الا رياضة للنفوس .

وبالرغم من عناية الغزالى بالتصوف ، فإن الاستاذ جاد المولى يرى أنه
من المجددين وقد سأله عن معنى هذا التجدد ، فقرر أنه يريد به
النهوض بالافكار الاسلامية التي آمن بها الغزالى ، والتي كاد يقضى عليها
تيار الفلسفة اذ ذاك .

- ٥ -

رأى الشيخ عبد العزيز جاويش

والاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش امام من أئمة المسلمين في هذا العصر . وهو معروف في جميع الأقطار الإسلامية ، وله أبحاث في فلسفة التشريع تعز على من راها وتطول ، وقد استفاد من النفي والاضطهاد فيما استفادة ، ووقف بذلك على كثير من عقليات الامم والشعوب ، وعده الانجليز من بين أعدائهم الألداء في الحرب العالمية . ولقبوه بالرجل الخطير المخيف .

ويعد الشيخ جاويش من خصوم الغزالى . فهو أولاً يؤمن بقوه الغزالى ومتانته ، ولكنه بعد ذلك يعجب من تساميه إلى منزلة المجتهد المطلق ، مع أنه كان « جاهلا » بفن الحديث . ويرى الشيخ جاويش أن جهسل الغزالى بهذا الفن هو المقتل الوحيد لقيمه العلمية ، ولن يفعله بعد ذلك ذيوع اسمه في العالمين . ويقرر الشيخ جاويش أن الغزالى متأفف ، وأنه من الصعب تحديد آرائه لأنها قد تختلف في الكتاب الواحد ، وأنه لم يذكر شيئاً إلا وقد قال به في بعض أحواله .

- ٦ -

رأى الكونت دي جالارزا

ظل الكونت دي جالارزا أستاذاً للفلسفة في الجامعة المصرية ست سنين ، وهو نادرة النوادر في كرم الأخلاق . وله مؤلفات في الفلسفة لا عيب فيها غير الفموض ، وعذرره في ذلك أنه أجنبى عن اللغة العربية .

وهو من أشد أنصار الغزالى ، ويرأه المسلم الحق بين فلاسفة المسلمين ويعجب كثيراً بوجهته الروحية وله على الغزالى مأخذ واحد وهو منه

الناس من ورود مناهيل العلم ، مع أنه لم يمنع نفسه شيئاً من العلوم .
ويرى أن الغزالي حرم بذلك من كانوا أهلاً للاستفادة ، وإن كان عصم من
ليسوا أهلاً للانتفاع ، من سواد الناس . والغزالي في رأيه غاية الغايات في
الأخلاص .

- ٧ -

رأي الدكتور العنانى

الدكتور علي العنانى من كبار الأساتذة في هذا العصر ، وقد مكث في
ألمانيا نحو عشر سنين ، فتمكن بذلك من أن يدرس الفلسفة دراسة عميقة ،
وهو من أساتذة الجامعة المصرية .

والدكتور العنانى ينظر إلى الغزالي نظرة خاصة ، من حيث تطور
الفكر الإسلامي فهو يرى أن الفكرة الإسلامية كانت تعتمد أولاً على
الوحى ، ثم دخل العقل على أنه مفسر وموضح ، ولكنه ما زال يقوى
وينمو حتى كاد يستقل عن الوحى استقلالاً تاماً ، فرأى الغزالي أن يقف
في وجه هذا الاستقلال ، فأخذ يحارب الفلسفه ويناضلهم حتى أخمل
ذكرهم في الشرق ، وبذلك انتقلت الفلسفة إلى الأندلس ، ووجدت هناك
مرعاها الخصيب .

والدكتور العنانى يرى أن الغزالي سلك تلك السبيل خضوعاً للرأي
العام في البداية ، ولكنه تأثر بما دعا إليه في النهاية ، وعاد حرباً للعقل ،
وسلاماً للمبادئ الروحية . وهو لا يصدق ما ذكره ابن تيمية من رجوعه
إلى ظاهر الشريعة ، فإن الرجل كان أخذ أخذنا بمذاهب الصوفية ، وإن
كان لا ينكر مع ذلك أن له آراء كان يخفيفها ويضمن بها على الناس .

- ٨ -

رأى الشيخ عبد الوهاب التجار

الأستاذ الشيخ عبد الوهاب التجار نادر هذا العصر ، فقد يندر أنه يقوته شيء من معارف هذا الجيل . وهو أعرف الناس بروح العرب والاسلام . وقد درس الفرزالي دراسة جيدة . وله على هذا الكتاب ملاحظات يراها القارئ في الهوامش ، وهي ملاحظات سديدة لم تنشأ أن نحرم منها القراء . وقد قابلته أخيراً فذكر لي أنه فاته أن يضع ملاحظة عما أخذته على الفرزالي من تحريم الغناء في أكثر الأحيان ، وهو يرى أن الفرزالي محق فيما يقرر من الاكتفاء باباحة الغناء حين لا يوجد موجب التحرير . لأن مهنة الغناء مجملة للشقاء ، وعلى الأخص حين تضطر布 الأحوال .

ورأى الشيخ التجار في الفرزالي رأى وسط : فهو يرى أنه في جملته لا نظير له ، وأن الحكم بتناقضه فيه شيء من المبالغة ، لأن الرجل كان ينظر إلى الأشياء من جهات متعددة ، وكان لسنّه في ذلك أكبر تأثير . وينكر عليه المبالغة في متابعة الصوفية ، ويضرب المثل بما يسميه للفقير من تمزيق الثوب قطعاً مربعاً تصلح للترقيع ويقول : هذا للفقير أما أن يكون في حالة صحو أو في حالة ذهول : فإن كان ذاهلاً فهو معذور ، ولا حكم له ، وإن كان صاحياً فهو عايش ، لأنّه ما يعني تمزيق الثوب بطريقة خاصة تجعله صالحاً لأن يرقع به سواه ؟ إن هذا لا اتلاف !

- ٩ -

رأى الشيخ حسين والي

الأستاذ الشيخ حسين والي من كبار العلماء ومؤلفاته تمتاز بالوضوح والبيان ، وعلى الأخص (كتاب التوحيد) الذي ظهر منذ سنين ، ولو لا أنه

شغل بالادارة عن التأليف لكن مصنفاته تأثير عظيم في بسط آراء المتقدمين في الأصول والتوحيد والأخلاق .

ويعد الشيخ حسين والى من أشد أنصار الغزالى ، فهو يدافع عن وجهته فى التصوف لأن التصوف فى رأيه لا يخرج عن الأصول الإسلامية ، والغلو الذى نراه فى الاحياء ليس الا تمكيناً للمعانى التى يدعوا إليها الغزالى . وهو لا يرى أن الغزالى قصد بمؤلفاته فئة من الناس ، وانما يرى أنه كتبها لجميع الطوائف ، وكل فريق يأخذ بقدر استعداده ، وبقدر ما يصلح له من أنواع الخلال . والغزالى عنده مذور فيما وقع له من ضعيف الحديث . لأنه لم يرد غير تأييد وجهة نظره بما اتفق له من الأحاديث والأخبار والآثار . ومن بعيد أن يضع حديثاً فى كتاب من كتبه وهو يعلم أنه موضوع أو ضعيف ، مع ما عرف عنه من الأمانة والاخلاص .

- ١٠ -

رأى الشيخ عبد الباقى سرور

الأستاذ الشيخ عبد الباقى سرور من العلماء الأفذاذ الذين جمعوا بين المقول والمنقول وكتابه عن « ماضى الاسلام وحاضره » الذى نشره فى جريدة الأفكار من أدق ما كتب المصلحون فى العهد الأخير . ويندر أن يظهر كتاب ولا يطلع عليه ، فهو لذلك أعرف العلماء بالحركة الفكرية ، وأعلمهم بما يجرى فى عالم السياسة ، والفلسفة والمجتمع . وهو فوق ذلك أغير الناس على وطنه ودينه ، وانه لعلى خلق عظيم .

ويرى الشيخ عبد الباقى أنه ليس للغزالى مذهب خاص ، وانما يتوج دفاعه بتنوع الرأى الذى يدافع عنه ، وهذا منشأ ما فى كتبه من تبادل الآراء : فقد كان يحتاج بأصول المعتزلة والأشعرية والكرامية ، وهو ينافقن الفلاسفة ، ويريد بهذا أن يجمع فى يده كل الأسلحة الفكرية

ليدفع بها طفيان الفلسفة الذى كان يخشى على الدين من تياره ٠ والشيخ عبد الباقي يرى أن التصوف فى كتب الغزالى إنما كتب للصوفية ، لا بل جميع الناس ، كما ظن ذلك كثير من الباحثين ٠ ودليل هذا رجوعه فى آخريات أيامه الى دراسة كتب السنة حتى ليذكرون أنه مات والبخارى على صدره ٠ ولعدم اختصاص الغزالى بمذهب خاص وجهة شريفة ، هي تحرى الحق والبحث عن عناصر القوء فيما كان لهؤله من مختلف المذاهب ٠ وهذه الوجهة فيما يرى الشيخ عبد الباقي ضمان للسلامة من التقاليد المذهبية التى تقل حرية الفكر ، وتحرم الباحث من الاتقاء بشرارات المقول ٠

- ١١ -

رأى الشيخ أحمد أمين

أحسن ما يوصف به الأستاذ الشيخ أحمد أمين أنه رجل نافع ، فأن كتبه ورسائله مفعمة بالأراء الجيدة ، التى تفرض الحياة فى نفس المستفيد وعمله فى لجنة التأليف والترجمة والنشر عمل الرجل الذى يعرف أن لا حياة لأمتة بغير العلم ، ولهذه اللجنة أثر كبير فى الحركة العلمية ، ولأعضائها فضل عظيم على شباب هذا الجيل ٠

ويرى الشيخ أحمد أمين أن الغزالى حوالى الناس عن الاشتغال بالفلسفة ، ورجعمهم الى الكتاب والسنة ، وأعلى شأن التصوف والصوفية ٠ وحجب ذلك الى الناس ٠ وأسلوبه فى الترغيب والترهيب أفعى الأساليب فى هداية الجماهير ٠ ويرى معنا أن الغزالى لم يضع طريقة نافعة لخلوص المرأة من شكوكه ٠ وأن آرائه فى الأخلاق لا تنفع فى هذه الأيام ، لأن المدنية الحديثة تتطلب قوة التنازع ، وهو يفضل السلامة على كل شيء !

خاتمة الكتاب

الآن ، وقد قدمنا للقاريء ما وفقنا اليه في درس الاخلاق عند الغزالى ، نوصيه بان يرجع ان شاء الى كتاب الاحياء ، وكتاب الميزان ، وكتاب المنهاج ، وكتاب المستصفى ، والى المصادر الاجنبية التي ذكرناها في غير هذا المكان ، والى كل ما يستطيع الوصول اليه مما يتعلق بالغزالى ، ليرى صحة ما في هذا الكتاب من مختلف الأحكام ٠

ونحن لا ننكر أتنا كنا قساة في نقد الغزالى ، ولكننا نرجو أن يتتبه القاريء أيضا الى ما كشفنا الغطاء عنه من حسناته ٠ ونحب أن يذكر الذين أسرفوا في اللوم عندما علموا بعض ما يحتويه هذا الكتاب ، أتنا لم نذهب لارضاهم أو اغضباهم ، وإنما وضعنا تصب أعيننا غاية واحدة ، هي خدمة العلم والتاريخ ، خدمة خاصة لوجه الله ، لا للناس ٠

وأحب أن أسجل هنا كذلك ، أنني ترددت فيما نصحتني به حضرات الأساتذة من رفع بعض المسائل التي ثار من أجلها الخلاف ، فلم أرفع منها شيئا ، وإنما أضفت إليها بعض البيان ، فليس على جلته الامتحان أية مسئولية ، وإنما أنا وحدي المسئول ٠

أما بعد فاني أسائل الله أن يجزيني بفضله على ما قدمت في سبيل العلم والدين من صادق الجهد ، وإليه وحده أرفع الرجاء ، فقد منّني الناس بالجحود ، ونكران الجميل ٠

«رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًّا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا . رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفَرْ عَنَّا سَيِّعَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتَنَا مَا وَعَدْنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . إِنَّكَ لَاتُخْلِفُ الْمِيعَادَ».

الاسلام والأخلاق

يقول المرجفون انى فررت أن الدين الاسلامى دين فصح لا دين أخلاق . ولو لا ضعف ملكة النقد فى مصر ، لما شاعت هذه الأكذوبة ، ولما وجدت من يتلقاها بالقبول . فليس من الجائز أن رجلاً مثلى قضى فى الأزهر خمسة عشر عاماً يحكم بين الجماهير فى دار الجامعة المصرية بأن الدين الاسلامى ليس دين أخلاق ، وهو يعلم على الأقل أنه يوجد معارضين أشداء من طلبة الأزهر وعلمائه ، وقد حضر منهم يومئذ عدد غير قليل .

وهأنذا أشرح للقراء أصل هذه الأكذوبة التى تناقلها الناس ،
ليعلموا الى أى حد يجرؤ المتكلمون على تشويه الأحاديث !

قلت فى رسالتى : « ان ما كتبه الغزالى عن التوكل صريح فى الدعوة الى الرهبنة ، وقطع العلاقة مع الناس ، والتدرج على احتمال الظمآن والجوع ، والاقتناع بأن الموت من جملة الأرزاق » فلما سألنى حضرات الأساتذة المتحدين عما يؤيد هذا الحكم من كلام الغزالى ، قدمت لهم قوله : « فان قلت فما قولك في القعود في البلد وغير كسب : فهو حرام أو مباح أو مندوب ؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام ، لأن صاحب السياحة في الbadية اذا لم يكن مهلكاً نفسه ، فهذا كيف كان لم يكن مهلكاً نفسه ، حتى يكون فعله حراماً ، بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتاخر عنه ، والصبر ممكن إلى أن يتفق . ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام ، وإن فتح باب البيت وهو غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له . ولكن ليس فعله حراماً إلى أن يشرف على الموت ، فعند ذلك يلزمـه الخروج والسؤال والكسب » وهذا لا أكتم القارئ ، أنى حملت على الغزالى حملة شديدة ، ورميته

(*) نشرت هذه الكلمة فى المقطم بتاريخ ٤ يونيو سنة ١٩٢٤ .

بجهل أسرار الدين ، وسخرت من الآداب التي وضعها للمتوكل حين يخرج من بيته : اذ يدعوه الى أن لا يترك في البيت مثاعبا يحرص عليه السراق ، والى أن لا يحزن اذا سرق مثاعبه بل يفرح اذا أمكنه ، والى أن لا يدعو على السارق الذي ظلمه بالأخذ ، فان فعل بطل توكله ودل على تأسفه على ما فات ، ويدعوه الى أن يقتم لأجل السارق وعصيائه وتعرضه لعذاب الله ، ويشكر الله اذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما !

ثم قلت في التعليق على هذه الآداب الميتة « وما أدرى ما الذي أنسى الغزال أن يحضر المتكفل على أن يترك باب البيت مفتواحا وان يعلق عنده لوحة مكتوب فيها بخط واضح جميل . من أراد أن يأخذ شيئاً من هذا البيت فهو مغفور الذنب ، بل مجزى بما مكن صاحبه من صنع المعروف !»

عند ذلك تذكر الحاضرون من العلماء ، وقال فضيلة الأستاذ الشيخ اللبناني : لا عيب على الغزال في ذلك لأن الدين الإسلامي دين أخلاق ، فقلت : وهو قبل ذلك دين فتح وامتلاك ، وليس من الأخلاق في شيء أن يجرد المرأة بيته حتى لا يبقى قيه مثاع يحرص عليه السراق ، فهل جانبت في ذلك الصواب ؟

والظاهر أن حضرات العلماء فهموا من الفتح التخريب ، والاعتداء على الشعوب . كلاما يا هؤلاء ! الدين الإسلامي دين فتح ، رضيتم أم كرهتم ، وللفتح شروط وأداب سنه الدين الحنيف ، وأتمن حين تنفرون من كلمة « الفتح » انما تجaron الأجانب الذين يتوددون اليكم بوصف الاسلام بالقناعة والرضا بالقليل . وهذا خطأ صراح ، فان الدين الإسلامي أبعد الأديان عن الزهدة ، وأبغضها للخمول ، ولا حرج على الاسلام في أن يرغب أتباعه في امتلاك ناصية العالم ، فان هذا أمل نيل ، ولم يحدثنا التاريخ عن أمّة قوية ، أو ملة قوية ، وضعت حدأ لمطامعها في الحياة ، وإنما ترجم الأمّة الضعيفة ، أو الملل الضعيفة ، على أن تحدد آمالها وأطماعها بضيق الحدود !

ستقولون : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يأمروا المجاهدين بحرب القسيسين والرہبان ، بل أمرهم بالرفق بهم ، والإبقاء عليهم ، كما أمرهم بعدم التعرض للأطفال والنساء والكهول . وأقول لكم : إن هذه المعاملة لا تدل على أن الإسلام ليس دين فتح ، ولكنها تدل على أن الإسلام كان أحكم من أن يبدأ فتوحاته بارهاق النفوس وتفسير القلوب . وهذه الملاينة، وذلك الرفق ، من الأسلحة الماضية في استلال السخايم ، والتشيير بالدين الجديد . وكذلك دعا النبي إلى سيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادل خصومه بالتى هي أحسن ، حتى ظفر بالفتح المبين .

هذا ما أريد من أن الإسلام دين فتح وامتلاك . ولو بعث رسول الله جسلى الله عليه وسلم اليوم ، ورأى ما أتسم عليه من قلة وذلة ، لبل رداءه يسموه ، ولكن له مع حضرات العلماء موقف يرد الويلان شيئاً . أفحسبون أن قوله عليه الصلاة والسلام (بعثت لأنتم مكارم الأخلاق) معناه أنه جاء ليشر علينا ، ويدفع فينا ، تلك المبادئ السقيمة ، التي دافع عنها المغزال وأمثاله ، حين تكلموا عن التوكل والصبر والخُمُول ، وتابعهم في ذلك مع الأسف علماء هذا الجيل ، في غير خجل ولا استحياء؟

أنا لا أنكر أن التوكل فضيلة ، ولكن أنكر أن يكون معناه الاقتاع بأن الموت من جملة الأرزاق ، وإنما التوكل أن تقتحم المصاعب معتمدا على الله (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) والصبر فضيلة . ولكن على أن يكون صبرا على الجهاد لا صبرا على الضيم . والخُمُول فضيلة . ولكن على معنى أن تقبل على عملك غير حاسب للشهرة حسابا . فاما ما نقل الفزالي من أن بعض العلماء كان يترك الدرس اذا زاد الطلبة على ثلاثة ایشارة للخُمُول ، فهي خطلة سلية ، وهروب من الواجب ، تعالت الأخلاق عما يصفون !

ومن العجيب أن تجد العلماء يضربون الأمثال بزهد النبي وخلفائه ،

وكان عليهم أن يعرفوا أن الزهد من النبي وخلفائه فضيلة فضت بها
الضرورة ، وما نحن أولاء نرى بأعيننا كيف تنظر الجماهير إلى ما يملك
رؤساه الحكومات نظر المحقق المغيب ، فلا عجب أن يتتبه رسول الله صاحب
الخلق العظيم إلى ما فطرت عليه الجماهير من حسد من يملكون زمام
الأمور . ولو قضت الظروف اذ ذاك بان يكون النبي فرداً من جماعة
يسوسها غيره ، لرأي أنه ينمى ثروته ، ويسمى جاداً في استغلال ما يملك
من أرض أو مال .. على أنه كان ينظر إلى الدنيا بعين ملؤها الحب والاعتزاز ،
وحسبنا أن نتلن قول أصدق القائلين : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي
الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » فهل ترونـه قال : آتنا في الدنيا حسنة
وفي الآخرة حستين أو حسانـات ؟! أليس من جلال الدنيا أن تسوى
بالآخرة ؟

من أجل هذا ترونـي أنكر أن تكون « الأخلاق » في الإسلام معناها
الرضا بالوجود وان فل وهان ، ومن أجل هذا عارضـت الفرزالي
بعد ما عاشرـته في مؤلفاته بضع سـنين ، فـماذا تـقـمون منـي بعد هذا اليـان ؟

المراجع

تنقسم مصادر هذا الكتاب الى عربية وفرنسية . أما المصادر العربية فما همها مؤلفات الفزالي ، وهي : احياء علوم الدين ، ومنهاج العابدين ، والأربعين في أصول الدين ، وميزان العمل ، وجواهر القرآن ، والادب في الدين ، ومشكاة الأنوار ، ونصيحة الملوك ، والمنقد من الضلال ، والجام العوام ، وخلاصة التصانيف ، ورسالة الطير ، وكيمياء السعادة ، ومكانتفة القلوب ، وقواعد الطريق العشرة ، والاملاء على ما أشكل من الاحياء ، والكشف والتبيين ، والقسطاس المستقيم ، ومقاصد الفلاسفة ، والتفرقة بين الاسلام والزندقة ، والدرة الفاخرة ، والمستصنفي في الأصول .

ومما يتعلق بالفzالى من المصادر العربية : طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ، وشرح الاحياء للزبيدي وقوت القلوب لأبي طالب المكى ، والرسالة القشيرية ، ومجلة الهلال ، والسعادة لابن مسكونيه ، وتهذيب الأخلاق له ، وفلسفة ابن رشد لفرح انطون ، والذخيرة في المحاكمة بين تهافت الفلسفة لعلاء الدين الطوسي ، وحياة الفزالي للدكتور زويمر ، وفتاوی ابن تیمیة ، واعلام المؤمن لابن القیم ، وفصل المقام لابن رشد ، ومحاضرات الكبونت دی جالارزا في الجامعة المصرية سنة ۱۹۱۹ و ۱۹۲۰ ، ومبادئ الفلسفة تعریب أحمد أمین ، والملل والنحل للشهرستاني ، ومججم البلدان لياقوت .

وأهم المصادر الفرنسية :

Gazali, par Carra de Vaux

Etudes sur la philosophie d'Averroës concernant son rapport avec celle d'Avicenne et Gazali, par Moher

Traité d'eschatologie musulmane, par Lucien Gautier.

Encyclopédie de l'Islam (20ème livre).

Histoire de la philosophie, par Paul Janet.

Cours de philosophie, par E. Boirac

Averroës, par E. Renan.

فهرس

الموضوع	
الفصل الثالث : حياته الروحية	٥١
الفصل الرابع : فهمه للحياة	٥٣
الفصل الخامس : وفاته ورثاؤه	٥٧
الباب الثالث	
في النابع التي استقى منها الغزال	٦٠
تمهيد	٦٠
الفصل الأول : المصادر الفلسفية	٦٣
-الفصل الثاني : منبع التصوف	٧١
الفصل الثالث : من عرف الغزال من الصوفية	٧٦
الفصل الرابع : منبع الشريعة	٧٩
الفصل الخامس : أساند الغزال وأصحابه	٨٣
الباب الرابع	
ل مؤلفات الغزال	٨٤
تمهيد	٨٤
الفصل الأول : طريقة في التأليف	٨٦
الفصل الثاني : الصوت المردد في مؤلفات الغزال	٨٨
الفصل الثالث : كتاب الأحياء	٨٩
الفصل الرابع : أغلاظ الأحياء	٩١
الفصل الخامس : غفلة الغزال وعناده	٩٧

الصفحة	الموضوع
١٥٧	الفصل الرابع : فضيلة التوكل
١٧١	الفصل الخامس : فضيلة الاخلاص
 الباب الثامن	
١٧٣	في تقوى الرذائل
١٧٣	تفهيم
١٧٤	الفصل الأول : رذيلة الغضب
١٧٧	الفصل الثاني : رذيلة الحقد
١٧٩	الفصل الثالث : رذيلة الحسد
١٨٠	الفصل الرابع : رذيلة العجب
١٨٣	الفصل الخامس : رذيلة الكبر
١٨٥	الفصل السادس : آفات السنان
١٩٩	الفصل السابع : رذيلة الرياء
 الباب التاسع	
٢٠١	في العلوم والفنون وال التربية
٢٠١	الفصل الأول : العلوم
٢٠٨	الفصل الثاني : الفنون
٢٢٠	الفصل الثالث : تربية الأطفال
٢٢٥	الفصل الرابع : آداب المعلمين
٢٢٨	الفصل الخامس : آداب المتعلمين

دار الكتب العربي للطباعة والنشر
بالمقاهي
فرع الساحل

الثمن ٥٠ قرشاً

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

فرع مصر - ١٩٦٨